جامعة الجزائر

معهد اللغة والادب العربي

الواقعية في روايات

عبد الحميد بن هدوقة ـ والطاهر وطار

تحليلية

رسالة لنيل درجة الماجستير

اعدتها :

الطالبة سعيدة هوارة

واشرف عليها :

الدكتور محمد مصايف

السنة الجامعية 1984 - 1985

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد بدأت أفكر في اعداد دراسة حول الادب الجزائري منذ عدّة سنوات ، وبالضبط منذ التحقت بالجامعة ، وبدأت أكتشف كنوز الأدب الجزائري الذي كان ساعتها ما يزال مادة خاما ، وشمت معي هذه الرغبة الى أن تخرجت، حيث كنت أتابع بالقراءة كل ما تكتبه أقلام الأدباء الجزائريين ، وبخاصة في مجال النثر ، الذي راح يتطور ، وبشكل سريع في السبعينيات ، ويستوعب افرازات الواقع في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الجزائر .

وسبب آخر جعلني أهتم بالأدب الجزائري ، وبالتفكير في القيام بدراسته هو قلة الدراسات المتخصصة في النثر وبخاصة في القصة ، والرواية والمسرحية فاذا استثنينا أعمال الدكتور عبد الله ركيبي حول القصة القصيرة ، وبعض الاعمال الروائية التي صدرت في أوائل السبعينيات ، وهي أعمال هامة تعد اليوم من ضمن المراجع القليلة التي يعود اليها الباحث في الأدب الجزائري ، ودراسات الدكتور محمد مصايف ـ المشرف على هذا البحث ـ خاصة مؤلفه الأخير " الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام" والذي غطى به أعمال مجموعة من الروائيين ، من بينهم ، الأعمال الأولى للروائيين اللذين أحاول دراستهما في هذا العمل المتواضع ، وهي أيضا دراسة هامة استفدت منها في عملي هذا ، على الرغم من أنها لم تعرض لكل الأعمال التي ألفها هذان الروائيان . أما ماعدا هذه الأعمال فدراسات يهتم أغلبها بالشعر ، ولو أن هذا الأخير ـ في نظري ـ لم يتطور كما تطور النثر في فترة السبعينيات . كل هذا يوضح أن أول صعوبة يواجهها الباحث هي قلة المراجع .

وبخصوص هذا البحث الذي قضيت في الاعداد له، وتحريره أكثر من ثلاث سنوات، صادفتني في الطريق صعوبات أخرى كثيرة، ومنها على سبيل المثال بعض روايات الطاهر وطار التي صدرت في بداية الأمر خارج الوطن لم أجد حولها دراسات في المجلات، والجرائد الوطنية. ناهيك عن الدراسات المطولة العميقة فهي شبه نادرة. والأمر نفسه يصدق على كثير من الروايات التي صدرت هنا فالدراسات حولها قليلة جدا كما الأمر بالقياس الى رواية "بان الصبح" لعبد الحميد بن هدوقة، ورواية "الحوات والقصر" للطاهر وطار مما اضطررت معه الى الاعتماد على النصوص الروائية بالدرجة الأولى.

أما سبب اختيار الواقعية، فيرجع الى اهتمامي بهذه المدرسة الأدبية أكثر من اهتمامي بغيرها من المدارس، فأنا أنجذب نحو كل ما هو واقعي، سواء في الشعر، أو في القصة، أوفي الرسم، أو في السنما، وأعتبرها المدرسة التي نحن بحاجة اليها كي نرى أنفسنا على حقيقتها ودون تزبيف. وقد حاولت بعملي هذا أن اضيف شيئا الى ما قدمه غيري من الدارسين في هذا المجال، خاصة وأنني ركزت في بحثي على روائيين فقط من بين كثير من الروائيين، لاعتقادي انهما رائدان في فن الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية.

وقد قسمت الدراسة الى مقدمة، فتمهيد، فبابين يشتمل الباب الأول على ثلاثة فصول خصصتها لعبد الحميد بن هدوقة، اما الباب الثاني فيشتمل على أربعة فصول وقد خصصتها للطاهر وطار، ثم خاتمة. وتحدثت في التمهيد عن الواقعية: معناها ونشأتها وتطورها، ثم تناولت بالحديث بعد ذلك الواقعية النقدية، والواقعية الاشتراكية، والظروف التاريخية، والاجتماعية التي أفرزت كل واحدة منهما، وعلاقة الواقعية الاشتراكية بالواقعية النقدية ونقاط الالتقاء والاختلاف بينهما، وتحدثت عن الواقعية السحرية، ولهذه

الأخيرة علاقة بالبحث ، حيث وجدت آثارها في اعمال وطار ، لا تتقل بالحديث عن الواقعية في العالم العربي : متى دخلت ، وعلى يد من دخلت ، والظروف التى ارتبطت بها في مختلف البلدان العربية لاصل في الاخير الى الحديث عنها في الأدب الجزائري قبل الاستقلال وبعده ، ثم عند الروائيين عبد الحميد بن هدوقة ، والطاهر وطار .

اما الباب الاول الذي خصصته لعبد الحميد بن هدوقة فتناولت في فصله الاول الموضوعات التى عالجها هذا الأديب بدء بالثورة الوطنية التي لم يخصص لها عملا مستقلا ، وانتهاءا بالثورة الوطنية الاجتماعية ، حيث كانت المرأة و الارض ، وواقع الريف والمدينة ، أهم الموضوعات التى عالجها في هذه المرحلة . ثم خصصت الفصل الثاني من الباب الاول لدراسة الشخصيات الروائية في أعماله الثلاثة : ريح الجنوب ونهاية الامس ، وبان الصبح ، ومدى علاقتها بالواقع الذي حاول رصده ، وبالموضوعات التي عالجها ، ثم الشرائح الاجتماعية التي تنتمي اليها . أما الفصل الثالث من الباب الاول دائما فتناولت فيه تقنيات كل رواية ، واللغة الموظفة فيها ، ودور هذه اللغة في رسم الشخصية ، وشريحتها الاجتماعية ، كما تحدثت عن دور التراث الشعبي ، والاغنية والمثل ، والشعر الملحون ، في تأصيل شخصيات ابن هدوقة ، والكشف عن أعماقها ، وهذا طبعا من خلال الروايات الثلاث السالفة الذكر .

اما الباب الثاني المخصص لاعمال للطاهر وطار فقد جاء بنفس الترتيب تقريبا مع بعض الاضافات ، حيث تناولت في الفصل الاول منه الثورة الوطنية من خلال رواية اللاز بجزئيها الاول الذي هو " اللاز " ، والثاني المعنون " بالعشق والموت في الزمن الحراشي " ثم خصصت الفصل الثاني للثورة الوطنية الاجتماعية بدءا برواية " الزلزال " التي تحدث فيها الكاتب عن وقع نبا الثورة الزراعية في نفوس كبار الفلاكين ، وانتهاء بمتابعة مراحل التأميم ،

والاطاحة بالملاكين الكبار في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي"، بالاضافة الى محاولة تعرية الواقع الاجتماعي والسياسي ،والكشف عن تناقضاته في مرحلة ما بعد الاستقلال .

وفي الفصل الثالث تناولت بالحديث الشخصيات الروائية عند الطاهر وطار. الشخصيات بانتماءاتها الطبقية ،وصراعها مع واقعها ،وعلاقاتها بغيرها وأخيرا تحدثت في الفصل الرابع من الباب الثاني عن تقنيات الرواية عند وطار ،محاولة الاجابة عن السؤال : هل يفرض الموضوع الشكل الفني ،أم أن الشكل سابق على الموضوع ؟ ثم الامكانات الفنية التي تتيحها الواقعية الاشتراكية لمن يبدع في اطارها كالطاهر وطار . وأنهيت الدراسة بخاتمة حوصلت فيها النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث ،واستعنت في كل ما سبق بمنهج مركب اعتمدت فيه على تحليل النصوص والمواقف ،ونقدها كلما تطلب الأمر ذلك . محاولة فهم الواقع الجزائري كما صوره الكاتبان في أعمالهما التى عرضنا لها في هذا البحث .

وأخيرا أتقدم بالشكر للدكتور محمد مصايف الذي أعاد إليّ الثقة بنفسي بعد ان كدت أفقدها ،في غمرة المشاكل والعراقيل التي واجهتها في جامعة قسنطينة ، ولم يبخل عليّ بتوجيهاته القيمة ،كما أشكر الأديبين : عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار اللذين ساعداني ببعض المراجع الموجودة عندهما .

الواقعية في روايات

عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار

تمهيـــــــــــد

فـــي الواقعيـــــــــــة

كثيرة هي الكتب والمجلات التي تتحدث عن الواقعية، وعلاقتها بالأدب والسينما، وفن الرسم، وتفرد لها فصولا كاملة. لكن فهم موضوع الواقعية، يقتضي منا فهم مصطلحها اولا، ومناقشة مختلف الآراء التي قيلت حوله.
ونلاحظ بادئ ذي بدء أن لفظ الواقعية يتسع، شأنه في ذلك شأن لفظي الحقيقة، والطبيعة، لمفاهيم كثيرة على المستويين الفلسفي والمادي. ففي المنطق تقابل "الاسمية" (1) مصطلح الواقعية، اذ بينما ينكر الاسميون أن يكون للمفاهيم المجردة أو الكليات وجود حقيقي، ويرون أنها مجرد أسماء نجد أن الواقعيين على النقيض من ذلك لاعترافهم بالوجود الحقيقي لهذه المفاهيم (2). وفي الفلسفة يقرّ الواقعيون بالوجود المستقل للمحسوسات، خلافا للمثاليين الذين يردون كل شيء للذات. ولم تقتصر الواقعية على مجالي المنطق والفلسفة، بل شملت حقل السياسة أيضا، ولو أنها أخذت معنى سلبيا يعني التسليم بالأمر الواقع دون مناقشة (3). أما الحديث عن الواقعية في مجال الأدب فصعب جدا، نظرا لتشعب مفاهيمها من جهة ولا يغالها في القدم من جهة أخرى، وهو ما يصعب معه حصرها بتاريخ زمني معين، خاصة اذا عرفنا أن الفن رافق الانسان منذ أن كان، ولم يغفل واقع هذا الانسان كما اثبتت ذلك دراسة الحفريات التي وصلتنا من العصور

---

1) خلدون الشمعة، مدخل الى مصطلح الواقعية، مجلة الموقف الادبي، عدد خاص بالواقعية، عدد 85، أيار 1978، ص: 11.

2) المرجع نفسه، ص: 11.

3) المرجع نفسه، ص: 11.

القديمة (1)، الا أن هذا لا يعني أن الفن كان دائما واقعيا ،لانّه يملك نوعا من التحرر والاستقلال بالنسبة الى الواقع ، بالرغم من شدّة ارتباطه به ،كما يصعب تحديد الواقعية في مجال الأدب ، لانّ المذاهب الادبية ، التي افرزتها مسيرة الانسان الطويلة ، كانت تعتبر نفسها المعبر الحقيقي عن الواقع حتى ما كان منها مثاليا . لانّ الخيال لعب دورا كبيرا في مرحلة ما من مراحل تاريخ الانسان ،واعتمد على هذا الاخير في تفسير كثير من ظواهر الحياة الغامضة . بل حتى القصص الخرافية التي كتبت في الازمنة الغابرة لم تكن موجهة للاطفال "بل لجمهور القراء الذين كانت الخرافة جزء لا يتجزأ من حياتهم وثقافتهم (2).

وبالرغم من قدم الواقعية ،وتشعب مفاهيمها ،وتوظيفها في مجالات كثيرة ، الا أن هذا المصطلح في الأدب ورد لاوّل مرّة عند الالمان سنة 1798(3)، الذين وصفوا أدب الفرنسيين ،بأنه واقعي أكثر منه مثاليا . لكن هذا التناول للواقعية كان سلبيا الى حد كبير ،حيث قدمها على أنها شديدة الالتصاق بكل ما هو أرضي ، ومادي ، وأنها لا تسمح للشاعر بخلق ما يحتاج اليه الشعر من سمو ومثالية ، وتألق ،وأنها تحد من انطلاقه الشعري . ومع تقدم الزمن ،وتقدم مسيره الأدب ، انتشر مصطلح الواقعية في حقل الأدب ،واحتضنه الكتاب الفرنسيون بعد الالمان معارضين به الأدب الكلاسيكي . وكان مفهومهم للواقعية حينئذ هو المحاكاة الأمينة لما تمثله الطبيعة ،وهو مفهوم ما يزال منحصرا في نطاق ضيق : كالملابس ،والعادات،

1) بوريس" ستشكوف ،المصائر " التاريخية للواقعية ،دار الحقيقة ،بيروت ، الطبعة الاولى ، 1974 ، ص 8 .
2) خلدون الشمعة ،مدخل الى مصطلح الواقعية ،ص : 12 .
3) د / صلاح فضل ،منهج الواقعية في الابداع الأدبي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1878 ، ص : 12 .

وتصرفات الناس اليومية . اما التحديد المقبول للواقعية فجاء في منتصف القرن التاسع عشر ، وذلك حينما صدرت مجلة أدبية تحمل اسم " الواقعية " وكتبت فيها مقالات تحت هذا الاسم على يد كاتب قصص يدعى "شامفلوري" (1) بالاشتراك مع أحد اصدقائه ، وساعد هذا العمل بالاضافة الى أعمال أخرى ظهرت في الفترة نفسها على انتشار الواقعية ، والتعريف بها في الأوساط الادبية ، الأمر الذي باتت معه تعني نوعا من الأدب ، يقدم الواقع بطريقة أمينة ، ويأخذ بعين الاعتبار معطيات الحياة من خلال الملاحظة ، وابتعاد الكاتب عن الذات واهوائها بقدر الامكان .

لقد صاحب الفن الانسان في مسيرته الطويلة ، واتخذ من افرازات واقعه مادته الأساسية ، كما كانت تجاربه الاجتماعية المحرك القوى لهذا الفن ، غير أن ذلك لم يجعل منه صورة طبق الأصل للواقع ، ولا اعتبره نظيرا للواقع ، ولم يكن يخلط بين مظهر العالم الخارجي ، وجوهر الفن ، بل كان دوما يحاول أن يشخص الانطباعات ، والصور التي يوحي بها الواقع ، ويعبر عن العالم الداخلي والخارجي للانسان معا (2) . والمتتبع للابداع الفني في مختلف العصور ، يلاحظ أنه لم يكن جامدا ثابتا ، عديم الحركة ، يقدم صورة آلية عن الواقع ، بل كان يزخر بالحركة والحيوية ، نتيجة لتعامل الفنان مع الحياة ، وتعاطيه مع الواقع .

وبحلول عصر النهضة الذي تغيرت فيه مفاهيم كثيرة قديمة ، وظهرت آراء جديدة علمانية تركز على مفهوم الانسانية ، وعلى اكتشاف محوري الانسان

---

1) د / صلاح فضل ، منهج الواقعية في الابداع الأدبي ، ص : 13 .
2) بوريس ستشكوف ، المصائر التاريخية للواقعية ، ص 6

والعالم ، وضع حد لكثير من المفاهيم الفهيمية التي كانت تتحكم في تفكير انسان القرون الوسطى حيث كانت النزعة الانسانية " تمجد شخصية الانسان، وتعبر عن الايمان بلا محدودية طاقاته الخلاقه "(1). مع رياح هذا التغيير الذي أصاب العالم في عصر النهضة ، ومس ميادين كثيرة ، دخل التحليل حقل الادب وأصبح صفة ملازمة للمنهج الواقعي (2). هذا التحليل الذي لا يجعل من الفنان ملاحظا لما يرى أمامه فحسب ، بل يدفعه لفهم الواقع ، محللا تناقضاته ، ومبرزا القوى التي تعمل على تحريكه . وأضحت سمة التحليل بعد ذلك جوهر المنهج الواقعي الذي يدرس التجربة الاجتماعية للانسان ، وعلاقات الافراد بعضهم مع بعض من جهة ، وعلاقاتهم مع المجتمع من جهة ثانية . يضاف الى ما سبق تطور العلوم الطبية ، والمعارف المختلفة ، التي هيأت الظروف المناسبة للثورة الصناعية ، التي اوجدت علاقات جديدة برجوازية في المجتمع ، دفعت الفن الى تحليل الواقع الاجتماعي للفرد .

والواقعية باعتبارها منهجا في الكتابة ، تتيح للكاتب الواقعي تحليل الوسط ، ورسم الصراعات الأساسية في العصر ، وربط المسببات باسبابها ، مما يسمح له بامتلاك تصور موضوعي للواقع ، يبتعد فيه عن أهوائه وميوله الذاتية . وقد ساعد الواقعية على الانتشار في الساحة الأدبية الفهم التطوري للتاريخ ، وللعلاقة بين ازمنته المختلفة . وبالرغم من ظهور البذور الأولى لهذا الفهم في الرومانسية (3) الا أنها لم تنتبه الى الاسباب التى تحكم

---

1) م ا سيانيكوف ، زسمير نوفا ، تعريب باسم السقا ، موجز تاريخ النظريات الجمالية ، دار الفارابي ، بيروت ، 1979 ، ص : 82 .
2) بوريس ستشكوف ، المصائر التاريخية للواقعية ، ص : 12 .
3) المرجع نفسه ، ص : 63 .

حركة التاريخ ،أما الواقعية فقد تنبهت الى هذه الاسباب عندما تناولت التاريخ باعتباره تطورا مستمرا ،وصورت هذا التطور المستمر ،وأخذت على عاتقها توضيح المحتوى المادي للحركة التاريخية ،وتحديد اتجاهها . وهي أول منهج فلسفي اعتبر التاريخ محصلة لنشاط الانسان في مختلف الميادين . (1)

وقد ساعد المنهج الواقعي الكتاب المحدثين على دراسة الوسط الاجتماعي الذي يمارس فيه الفرد نشاطه ، ويتفاعل مع احداثه ،وعلى دراسة التأثير الذي يحدثه هذا الوسط في الفرد الذي هو افراز من افرازاته . فالمنهج الواقعي اذن يمكن الفنان من الغوص في اعماق المجتمع ، ملاحظا ودارسا ، ومحللا بنياته الاجتماعية والاقتصادية ،ويتيح له الفرصة لدراسة الفرد كمحرك للحياة في تفاعله مع بني جنسه وهو المنهج الذي يولى التاريخ أهمية كبرى ، لا بوصفه سجلا لاحداث وقعت ،وانتهى زمانها ،بل باعتباره معبرا عن نشاط الانسان الدؤوب الحركة من أجل التحرر ، والتغيير ،ولهذا اكتسب المنهج الواقعي أهمية بالغة في الادب الحديث ، وانتشرت ظلاله في المناهج الادبية الاخرى ، مما جعل كثيرا من الدارسين لا يعتبر الواقعية اسلوبا واحدا من بين الاساليب ،بل أساسا للادب بعامة . يقول " جورج لوكاتس ":

" وغالبا لا تتضح معالم الخط الفاصل ،ولو أن كل ألوان الكتابة لابد أن تتضمن قدرا معينا من الواقعية . والواقع ان هناك حقيقة أساسية مرهونة بهذا : هي أن الواقعية ليست أسلوبا واحدا من بين أساليب أخرى ،انها أساس الأدب ،وكل الأساليب حتى تلك الاساليب التي تبدو متعارضة أشد التعارض مع الواقعية ، تنشأ منها أوترتبط بها ارتباطا له دلالته "(2).

---

1) كارل ماركس ، وانجلز ،عن بوريس ستشكوف ،المصائر التاريخية للواقعية، ص71 .
2) جورج لوكاتش ،ترجمة أمين العيوطي ، معنى الواقعية المعاصره ،دار المعارف بمصر ،القاهرة ،ص : 58 ، 59 .

وتجدر الاشارة الى أن الواقعية النقدية كانت محصلة لمجمل سيرورة الأدب العالمي السابقة، حيث تكونت مبادؤها الفكرية والجمالية في الأدب العالمي فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (1) . وهي الفترة التي انبعثت فيها شخصية الانسان المتكاملة، الواعية، البعيدة عن متاهات القرون الوسطى وتبلورت فكرة الواقعية فيما بعد لتصبح اتجاها أدبيا في أدب القرن التاسع عشر، فارتبطت باسماء كتاب معينين في أقطار مختلفة، كان " بلزاك " اسبقهم اليها بابداعاته، التي اعتمد المنظرون عليها فيما بعد في استنباط أسسها، حتى قال فيه (فان تيغم) : " كان بلزاك في الواقع هو الرائد الأول للواقعية، ولكنه لم يكن مشرعا لها . ومع ذلك فبمقدار ما كان يتكون عمله الادبي، كان هو يتفهم أكثر طبيعة الواقعية الخاصة، وما كان من تناقض بين هذا المظهر الجديد للفن، وبين الرومانسية التي كانت في اوج تفتحها "(2). وعليه فان كثيرا من الدارسين يردّ الواقعية في مرحلتها الأولى الى فرنسا، ومنها انتشرت الى باقي انحاء أوربا : فرنسا التي عرفت هزات ثورية عنيفة . وحتى ان كنا نرى أنه من غير اللائق ربط الأدب ربطا مباشرا بالتاريخ، أو وضعه في أنبوب اختبار ودراسة شأن التجربة العلمية، فاننا لا نستطيع عزله عن التاريخ تماما، لما بينهما من تفاعل مستمر، فالثورة الصناعية التي عرفتها بلدان اوربا، والتحويل الذي احدثته في مجرى الحياة، والثورة الفرنسية التي دمرت حصون الاقطاع، ومختلف الانتفاضات، والحركات العمالية في القارة

---

1) سرغي بيتروف، ترجمة شوكت يوسف، الواقعية النقدية، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1983، ص9 .

2) فليب فان تيغم، ترجمة فريد انطنيوس، المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، 1967، ص 236 .

الاوروبية، وغير الاوروبية ،استوعبتها الواقعية التي اطلق عليها النقاد اسم " الواقعية الغربية " أو " الواقعية العظمى "(1)، والتي تطورت فيما بعد لتمطي " الواقعية الاشتراكية ".

- 2 -

هل هناك واقعية واحدة أم واقعيات ؟ وما العلاقة بينها وبين الحركات الاجتماعية التي عرفتها البشرية ؟

ان المتصفح للكتب التي تناولت موضوع الواقعية تعتريه الدهشة أمام العدد الكبير من التسميات التي اعطيت للواقعية في مراحل مختلفة من تطورها ،الى درجة أن بعض الدارسين الذين اهتموا باحصاء مصطلحات الواقعية ، وجدوا أن عددها يفوق خمس وعشرين مصطلحا .(2) غير أن ما اتفق عليه الدارسون ،ونال حظه من الدراسة والاهتمام ،هو الواقعية النقدية أو الانتقادية كما تسمى أحيانا ،وبعدها الواقعية الاشتراكية .

ولقد نضجت الواقعية النقدية في ظل المجتمع الرأسمالي القائم على الملكية ، وكانت افرازا من افرازات هذا الواقع الذي ترك أثره في الانسان بافساد طبائعه ،وعبرت عن الشعور بالاستلاب داخل هذه المجتمعات ،التي يسحق فيها الفرد بدون رحمة ،وتتغلب فيها الانانية ،والجشع ،والحقد

1) د . صلاح فضل ،منهج الواقعية في الابداع الادبي ،ص : 33 .
2) خلدون الشمعة ،مدخل الى مصطلح الواقعية ،ص : 18 .

والكراهية في نفوس الافراد . فالواقعية النقدية شاهدت احتضار الاقطاع، وتدمير معاقله، وواكبت ظهور البرجوازيات الاوروبية، ومناهضتها للفكر الاقطاعي المهيمن آنذاك . واستوعب الفنان الواقعي النقدي الواقع الجديد المتولد عن البرجوازية، وابرز التناقضات القائمة داخل المجتمع، وعبر عن ازمة الفرد بداخل هذا المجتمع، اما الواقعية الاشتراكية فقد ارتبطت بمرحلة تاريخية متقدمة في تاريخ البشرية، وهي مرحلة انتقال بعض المجتمعات من الرأسمالية الى الاشتراكية وارتبطت أيضا بالنضال الثوري للطبقة العاملة من أجل التغيير الاشتراكي للعالم (1)، وارتبطت في آداب أخرى بالحرب العالمية، وبحركات التحرر في بلدان العالم الثالث (2)، وتعتبر الواقعية الاشتراكية تطورا طبيعيا للواقعية النقدية، حيث جاءت لتدفعها الى الامام للتعبير عن معطيات مرحلة تاريخية متقدمة في عمر الانسانية، بلغت فيها شوطا معتبرا في التحرر من أغلال الاستغلال .

واذا كانت الواقعية النقدية قد واكبت ظهور الطبقة البرجوازية كافراز للمجتمع الرأسمالي القائم على الملكية، فان الواقعية الاشتراكية ظهرت في الوقت الذي بدأت فيه البرجوازية تتفسخ، وتتدمر مفسحة المجال لبروز قوه جديدة تبلورت في ظل المجتمع الرأسمالي، وهي الطبقة الشغيلة، العاملة بمختلف المعامل، والمصانع في القارة الاوروبية، عندما بدأت تعي واقعها المرير تحت سياط أرباب العمل، ووطأة الآلة التي لا ترحم .

فالواقعية النقدية عبرت عن ضياع الفرد، وانسحاقه داخل المجتمع الرأسمالي الذي أخذ يتوسع على حساب الشعوب المتخلفة، كما عبرت عن ضياع القيم الاخلاقية داخل هذا المجتمع الذي تسوده الانانية، والتناحر بين

---

1) سيرغي بتروف، الواقعية الاشتراكية منهجها واتجاهها، الموقف الادبي، ص: 105.
2) المرجع نفسه، ص: 106

افراده . وكانت الواقعية النقدية ،وهي تحلل التناقضات التي يزخر بها المجتمع القائم على الملكية ،تضع طبقة النبلاء الاشراف مقابل الطبقة الفقيرة،والفرد الضائع في مواجهة ،قوى عاتية تستغله ،ولا يملك القدرة على الانتصار عليهما فيستسلم أو يقاوم واليأس يحصر نفسه . أما الواقعية الاشتراكية التي تعززت بانتصار ثورة أكتوبر العمالية فقد وضعت الثقة في الطبقة الشعبية التى بدأت تمنى دورها التاريخي في تغيير الاوضاع .

وعندما نتحدث عن المدرسة الواقعية لا تستطيع فصل الواقعية النقدية عن الواقعية الاشتراكية لوجود سمات مشتركة بينهما . فالواقعية الاشتراكية ترعرعت في احضان الواقعية النقدية ،واتفقتا في نضالهما ضد القوى المعرقلة لحركة التطور . وليس المنظور المستقبلي الذي يميز الواقعية الاشتراكية ،ويحدد مسار الاحداث ونموها ،وتطور الشخصيات ، والتنبؤ بما سيحدث لها في حياتها هو ما يفرق بين الواقعية الاشتراكية ، والواقعية النقدية.ذلك أن الواقعية النقدية نفسها ،وبالنظر الى المرحلة التي سادت فيها نجد أن كثيرا من الكتاب الواقعيين النقديين وهم يرفضون كل انواع الاستلاب والاستغلال ،يقتربون من فكرة المنظور السابق خاصة حين كانوا يتنبؤون بمستقبل أفضل للبشرية، ويرون أن " سقوط المجتمع الرأسمالي أمر محتوم ".(1)

والسمة التى تفرق بين الواقعية النقدية ،والواقعية الاشتراكية هي طريقة التناول الخاصة بكل واحدة منهما ،اذ في الوقت الذي تسلط فيه الواقعية النقدية الضوء على الاشتراكية ،وتصف الاحداث والشخصيات وصفا خارجيا ناتجا عن صراعات الفرد الشخصية من أجل الوصول الى مكانة اجتماعية نجد الواقعية الاشتراكية تصف الاشياء من الداخل من خلال تعمقها ، وفهم

---

1) بوريس ستشكوف المصائر التاريخية للواقعية ،ص : 165 .

صراعات الواقع ، وتحليل أهم الاحداث التي تضطرم بداخل المجتمع .

فالواقعية النقدية عكست أحداث عصر كامل من تاريخ البشرية بكل تناقضاته ،عصر الثورات البرجوازية ، وسيادة الانظمة الرأسمالية على حساب الانظمة الاقطاعية المتهالكة ، وشرحت الأوساط البرجوازية ، واظهرت تناقضاتها الداخلية ، وافلاسها في تغيير الواقع المتعفن الذي يعيشه الانسان المعاصر وعبرت عن نضال الطبقات الكادحة في مواجهة قوى الظلم والاضطهاد . لكن الكتاب الواقعيين النقديين لم يكونوا قد فهموا بعد الدور الذي يمكن أن تلعبه الطبقات الدنيا من المجتمع ، اذا ماوعت حقيقة واقعها ، فبلزاك الذي اعتبره مؤرخوا الواقعية النقدية أبا لهذه المدرسة يصرح في رواية من رواياته على لسان شخصية الدكتور " بيناسي ": "اعتقد أنني برهنت بالفعل عن اخلاصي لطبقة الفقراء المحرومين ، وآمل ألا اتهم باني اريد لها الشر لكن مع تقديري لعرقها وجهدها وانحنائي أمام صبرها ، وخضوعها أوكد أنها غير قادره أو مؤهلة للمشاركة في تسيير شؤون البلاد . البروليتاريون بتصورى أطفال الشعب الكبار ، ويجب أن يبقوا تحت الوصاية "(1) .

وكما نلاحظ في هذا النص ، ظل الواقعيون النقديون بالرغم من فهمهم لتناقضات الواقع المتولد عن البرجوازية ، وادراكهم لافلاس الانظمة الرأسمالية ضعيفي الثقة بالطبقات الدنيا من المجتمع ، وبالامكانات التي تتوفر لها . ويبقى دور كثير منهم منحصرا في التعاطف مع الجماهير الشعبية، ومع قضيتها المصيرية .

وحتى عندما تطورت الرأسمالية ، وتدهورت معها حال الطبقة العاملة

---

1) بلزاك ، عن سرغي بتروف ، الواقعية النقدية . ص : 158 .

واشتد الاضطهاد والاستغلال ، ظلت نظرة الكتاب الواقعيين النقديين احادية الجانب لا تهتم الا بمعاناه الطبقة العاملة .(1)

وظل الامر كذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر ، حيث ظهر موضوع النضال الثورى للطبقة العاملة في كتابات الواقعيين النقديين ، ولم يعد الكاتب الواقعي النقدي يكتفي بوصف معاناة وآلام الطبقة ، واستغلال أرباب العمل لها ، بل أصبح غضبها ، وانتقاضاتها ، ونمو وعيها ، موضوعا لكتابات كثيرة في هذه الفترة (2).

وجاءت الواقعية الاشتراكية لتقطف ثمار المحاولات التي سبقتها فلم تكتف بتشريح الواقع ، وتحليل تناقضاته ، بل شخصت الطبقة التي تعاني من هذا الوضع ، وتعمل على تغييره ، وابرزت ثقتها الكاملة بنفسها في نضالها من أجل تحسين مستواها ، ودفع حركة التقدم الى الامام . وقد مكن منظور المستقبل كتاب الواقعية الاشتراكية من فهم جدلية العلاقة بين الفرد والمجتمع الامر الذي لم تفهمه الواقعية النقدية ، فاكتفت ، بتأكيد ان المجتمع البرجوازي يحد من امكانات الانسان ، ويقفل في وجهه الحياة الكريمة ، ويشعره بالاغتراب.

وتعترف الواقعية النقدية ، والواقعية الاشتراكية بقومية الادب ، وباصالة الكاتب كلما كان مرتبطا بتراثه الثقافي ، ومدركا لخصوصية هذا التراث الذي يضيف اليه ما يبتكر من فنيات ورؤى جديده ، وقد ساعد التقارب بين الواقعيتين على تحول كثير من الكتاب الواقعيين النقديين في مرحلة من مراحل تطورهم الى كتاب واقعيين اشتراكيين . يقول " توماس مان " في هذا التحول : " انني برجوازي بالتأكيد ، ولكن فهم البرجوازي اليوم يعني الانفصال عنه ، وادراك

---

1) سرغي بتروف، الواقعية النقدية، ص : 158 .
2) المرجع نفسه ، ص : 164 ، 165 .

القوى الجديدة ، ومن السخف أن نخطئ فهم الوعي الذاتي على أنه تصوف وليس هناك امرؤ يعرف نفسه معرفة وثيقة ويظل نفس الانسان (1)

ونلاحظ أن البطولة في الواقعية النقدية فردية ، حيث حرك موضوع الانسان الذي يحس بالاغتراب في مجتمعه ، وبعدم الانسجام مع الناس الآخرين ويناضل بمفرده قوى عاتية كتابات كثير من الواقعيين النقديين " التي تصور عدم تلاؤم حاجات الشخصية ، ورغباتها مع ظروف حياتها مما يؤدي بالانسان أما الى الموت المادي أو المعنوي "(2) . بينما تركز الواقعية الاشتراكية على البطولة ، الانسان الذي يمثل طبقته الاجتماعية ، بكل آمالها ، وآلامها ، أو الشعب نفسه عندما يصبح بطلا و " يمتلك ارادة واحدة تجمع بين أرادات مختلفة ، وله مصلحة جماعية ترتفع خلال العمل الثوري "(3) .

والواقعية الاشتراكية تقيم أيضا علاقات بين الفرد والمجتمع ، لا على أساس التعارض ، والتنافر كما جاء في كتابات الواقعية النقدية ، لكن على أساس الثقة التي تربط بين الفرد والمجموعة التي ينتمي اليها ، والتي تحقق له انسجامه وتوازنه . وقد تطورت الواقعية الاشتراكية بسرعة مذهلة وذلك بفضل نضال الطبقة العاملة ، والتزام الادباء ، والمفكرين في بلدان كثيرة بقضايا هذه الطبقة ، وبانتصار كثير من الثورات وحركات التحرر في بلدان آسيا وافريقيا وامريكا اللاتنية فتطورت معها اشكال الاعمال الأدبية ، ومضامينها على السواء .

والحديث عن أدب الواقعية الاشتراكية ، وعن تطوره ، يقودنا الى الحديث عن انحياز الأدب ، وصيرورته في خدمة الفئات الشعبية الواسعة . ويعني انحياز الأدب ، " نضال الكاتب الواعي ، والنشيط ، من أجل انتصار قضية

---

1) توماس مان ، عن جورج لوكاتش ، معنى الواقعية المعاصرة ، ص : 138 .
2) بوريس ستشكوف ، المصائر التاريخية الواقعية ، 223 .
3) المرجع نفسه ، ص : 223 - 224 .

الطبقة العاملة ، وحزبها الشوري ، وانتصار أفكار الاشتراكية ومثلها العليا"(1)
كما يعني التزام الكاتب بفكرة الواقعية الاشتراكية . والسؤال الذي يجدر بنا
طرحه ونحن بصدد الحديث عن التزام الكاتب بايديولوجية ، وحزبية الطبقة
العاملة هو : ألا يؤدي هذا الالتزام بالكاتب الى التقيد بموضوعات معينة
يكرر نفسه من خلالها ؟ ثم ألا يحد هذا من حرية الأديب ؟ وللاجابة عن
هذه التساؤلات نرى أن ذلك قد يقع اذا ما فهم الكاتب الالتزام فهما سطحيا
واغفل القضايا الجوهرية للفئات الشعبية ، وتناقضات المرحلة التي يعكسها
في ابداعه ، وتطور الواقع الذي يعالجه ، وابتعد عن الصدق الذي هو جوهر
المعالجة الواقعية . والكاتب الذي يفهم الالتزام فهما خاطئا ، ويسقط في
المذهبية الضيقة الجامدة ، يتصف ادبه بالمباشرة ، والتسطح ، وقد يصبح
مكررا لنفسه فيما يكتب . وهذا الذي حدث للأدب الواقعية الاشتراكية في
مرحلة ما من مراحل تطورها . والواقعية الاشتراكية - وبالرغم من الكتابات
العظيمة التي تحققت في اطارها - ما تزال تتطور ، وتحاول أن تتجاوز كثيرا
من السلبيات التي عرفتها عندما اسيء فهم الالتزام الذي هو أحد أركانها ،
وظهرت فكرة الادب الخالي من الصراع ، والانعكاس الجزئي للحياة . وما
نلاحظه ونحن في نهاية الحديث عن الواقعيتين النقدية والاشتراكية هو أنه
بالرغم من تطور كثير من الشعوب ، ومعها آدابها ، وبالرغم من تجاوز بلدان
أوربا والاتحاد السوفياتي لأحداث وثورات كانت من وراء تفجير الأدب الواقعي
بشكلية النقدي والاشتراكي مازلنا نقرأ آدابا جديده واقعية نقدية واشتراكية
في هذه البلدان ، وبلدان افريقيا وآسيا وامريكا اللاتنية ، فهل يعني هذا
أنها مازالت قادرة على استيعاب المعطيات الجديدة للواقع المعاصر ؟ أم أن
ما ظهر من مناهج انما هو امتداد لها . ذلك ما سنحاول معرفته من خلال

---

1) سرغى بتروف ، الواقعية الاشتراكية منهجها واتجاهها ، الموقف الادبي ص 111 .

الحديث عن الواقعية السحرية .

- 3 -

تقودنا الواقعية السحرية التي نجدها في بعض اعمال الطاهر وطار الى الحديث عن فن الواقعية السحرية ،هذا المذهب الذي استنبطه الدارسون من ابداعات امريكا اللاتنية ،وعززوا به أدب الواقعية ،والاسطورة في امريكا اللاتنية لا تمثل مرحلة زمنية انتهت في هذه القارة ،كما هو الحال في قارات أخرى ،لانها لا تعبر عن طفولة وبدائية فيها ،بل تعبر عن واقعها وعن انسانها ،وعن ثقافتها وتربتها . فانسان امريكا اللاتنية يعيش الاسطورة في حياته اليومية ،في اعراسه ،وفي طقوس الدفن وفي ولائمه ،وفي تعامله مع الزمن ومع الناس . والاسطورة ليست ملكا للفنان فحسب بل هي ملك انسان امريكا اللاتنية بصفة عامة ،حتى ذلك الذي لا يعرف رمزها يقول الكاتب غابر يال غارسيا ماركيز " فالطريق قد هدتني اليه جدتي ،بالنسبة لها أن الاساطير والخرافات ،واعتقادات الناس تشكل من ناحية - والطريقة جدّ طبيعية - جزءا من حياتهم اليومية ،ومفكرا فيما قالته ،اكتشفت دون عناء أنني لم أكن ابتكر شيئا بل كنت ببساطة التقط وأحكي عالم التنبؤات والوقايات من التكهنات والشعوذات . واذا أردت فانها أشياء منا والينا ومن خاصيات امريكا اللاتنية"(1) . وحتى عندما ابتليت معظم دول امريكا اللاتنية بالاستعمار، فان هذا الاخير لم يستطع تغيير نمط حياة الفئات الشعبية في هذه

---

1) ترجمة حمادي عبد الله ،غابر يال غارسياما ركيز رائد الواقعية السحرية المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،الطبعة الاولى ، ص : 117 .

البلدان المغزوة . اما الغالبية العظمى من سكان أمريكا اللاتية ، من السود والهنود والمولدين فقد احتفظوا " بتقاليدهم الخاصة ، وسحرهم ، واساطيرهم، يعيشون خارج التاريخ ، تحكمهم روح أخرى لا تكاد تمت بصلة لمن يعايشونهم في الحدود الجغرافية "(1) فالاسطورة اذن ، والقصص الخيالية الخارقة للمادة، والسحر ، وارواح الأموات التي يستحضرها الاحياء ، كل ذلك يمثل جزءا من واقع امريكا اللاتنية التي حاولت الواقعية السحرية استيعابه والتعبير عنه ، وزيادة على ذلك فتوظيف الاسطورة ، والتعبير من خلالها في أدب امريكا اللاتنية ، يعبر عن ظاهرة صحية في أدب هذه القارة ، وعن مرحلة ناضجة من آدابها . وكما قال "توماس مان " في حديثه عن الطابع الاسطوري الذي يميز أدب امريكا اللاتنية : "اذا كانت الاسطورة تمثل في تاريخ الانسانية مرحلة بدائية مبكرة، فانها تمثل في حياة الفرد المبدع مرحلة ناضجة متأخرة "(2) . فالاسطورة عند كتاب امريكا اللاتنية الواقعيين شكل ومضمون في الوقت ذاته : شكل من حيث كونها تمثل اسلوبا وطريقة لفهم الواقع ، واستنباط اسراره ، ومضمون على أساس أنها جزء من الواقع المعاش الذي يحاول الكتاب أن يعكسوه في ابداعاتهم .

واستعمل مصطلح الواقعية السحرية لأول مرة سنة 1949 في مقدمة قصة " مملكة هذا العالم " لصاحبها القصاص الكوبي أليخو كاربنتير"(3). كرد فعل ضد بعض المدارس الشكلانية التي وجدت لها رواجا في امريكا اللاتنيسة، بعدما فشلت في التعبير عن ازمة الحضارة الأوروبية ، وهموم الانسان المعاصر ، ومن يومها التفت الكتاب الى كنوز الواقع المحلي ، وغدت عجائبه، وقصصه الخيالية ، ورقصاته الشعبية ، وتعاويذه السحرية ، مادة الفن القصصي

---

1) د / صلاح فضل ، منهج الواقعية في الابداع الأدبي ، ص : 314 .
2) المرجع نفسه ، ص : 312 .
3) المرجع نفسه ، ص : 316 .

الذي بدأ يزدهر ويتطور ، ويفرض نفسه يوما بعد يوم على قراء امريكا اللاتنية، وقراء العالم كله ، خاصة هؤلاء الذين كانوا يحاولون الهروب من حضارة التكنولوجيا ، ويبحثون عن الدفء في ثقافات الشرق ، وادغال افريقيا ، وامريكا اللاتنية .

وبالرغم من أن كتاب الواقعية السحرية يغرفون من ثقافات أمريكا اللاتنية الشعبية ، ومن عوالمها السحرية ، أو الواقع الآخر الاسطوري كما يسميه غابريال غارسيا ماركيز (1)، الا أنهم في كتاباتهم الواقعية السحرية يختلفون عن الكتاب الواقعيين النقديين ، أو الاشتراكيين ، في عملية عكس الواقع ، لأن الواقع الذي يتعاملون معه كما قلنا من قبل لا ينفصل عن الخيال والاسطورة . ومن ثم فمعالجته تختلف عن معالجة الواقع المادي الذي استطاعت الواقعية بشقيها استيعابه من قبل ، فهم من ناحية يبتعدون عن عالم ما وراء الطبيعة ، ومن ناحية أخرى يتجنبون نسخ الواقع ، أو محاولة تفسيره، وفهم تصرفات افراده فهما منطقيا ، والواقعية السحرية غاية ما تهدف اليه هو التقاط الاسرار التى تختفي تحت مظاهر الواقع. (2)

لقد تحدثنا من قبل عن علاقة كل من الواقعية النقدية ، والواقعية الاشتراكية بالاحداث والحركات الاجتماعية التي عرفتها البشرية خلال القرن التاسع عشر ، وهذا القرن ، وبالهزات الثورية ، والانتفاضات الشعبية التي كانت وقودها الدائم ، حيث عبرت الواقعية النقدية عن مرحلة مهمة من تاريخ الانسانية تميزت بسقوط الانظمة الاقطاعية ، وصعود البرجوازية التي كانت تحمل أفكارا متقدمة ، وعبرت الواقعية الاشتراكية عن مرحلة أخرى متقدمة

---

1) ترجمة جمادي عبد الله ، غابريال غارسيا ماركيز رائد الواقعية السحرية، ص: 119 .
2) د / صلاح فضل ، منهج الواقعية في الابداع الادبي ، ص : 316 .

من حياة البشر ،مرتبطة بنضال الطبقة الفقيلة ،وآمالها في بناء المجتمع الاشتراكي ،والسؤال الذي يطرح هنا هو بماذا ترتبط هذه الواقعية التي اطلق عليها الواقعية السحرية ؟ والى أي حد التزم كتاب الواقعية السحرية بقضايا أمريكا اللاتنية المصيرية ؟

والمتأمل في كتابات كبار كتاب امريكا اللاتنية ممن ابدعوا في اطار الواقعية السحرية ،أمثال استورياس أو كاربنتير ,أو غابريال غارسيا ماركيز، يتحسس آلام الجرح العميق الذي تركته الدكتاتوريات المتعاقبة على بلدان امريكا اللاتنية ،وآثار القمع والاستبداد التي حفرت أخاديد لها في حياة سكان القارة ،فتحولت على اثرها أحداث واقعية كثيرة عاشها سكان امريكا اللاتنية الى نوع من الاساطير ، والقصص الخيالية ،التي رددها الناس،وآمنوا بها فامتزجت من جديد بالواقع الى درجة يصعب معها فصل الخيال والاسطورة عن الواقع المعاش بكل تناقضاته ،أو كما عبر عن ذلك " استورياس" ،أحد قصاصي أمريكا اللاتنية بقوله :" لا يمكنه ان يتحدث عن أهل بلده مغفلا عناصر السحر والاسطورة والاشباح التى ما تزال حية قوية في وجودهم ،وتجاهلها لن يؤدي الى الواقع بامانه بل هو خيانه له "(1)

فالواقعية السحرية اذن استوعبت الاحداث الاجتماعية التي مرت بها امريكا اللاتنية ،فعبرت عن تناقضات الواقع ،وعن هموم انسان امريكا اللاتنية وتطلعاته ،لكن بطريقة كتابها الخاصة ،ومن وحي ثقافتهم المتميزة ، الغنية والمعقدة في نفس الوقت وحتى التزام كتابهم بقضايا قارتهم ،وقضايا العالم كله ،التزام من نوع خاص . فهم يعتبرون الكتابة الجيدة ،والرؤية الواضحة ،في ذاتها التزام ،وقد قال الروائي الكولومبي "،غابريال غارسيا ماركيز "في هذا الالتزام

1) د / صلاح فضل، منهج الواقعية في الابداع الأدبي ، 324 .

- 19 -

مايلي "اللاتينو أمريكيون ينتظرون من الراية شيئا يفوق الكشف عن القمع وغياب العدالة الاجتماعية التي يعرفونها جيدا... ففي الواقع أن واجب كل كاتب، والواجب الثوري اذا أرادوا ذلك، هو أن يكتب جيدا "(1).

- 4 -

بما ان الواقعية تنطلق من مبدأ الانعكاس الموضوعي عن للواقع، واستقلاليته عن تفكير الانسان، وتعتمد على عنصر التحليل لتناقضات هذا الواقع، مما يجعلها مدرسة أدبية صالحة لكل زمان ومكان. فمن الخطأ تضييق مجالها، وحصرها في بلد معين، فبامكان كل مجتمع ان ينظر من خلال الواقعية مشاكل واقعة، وتناقضاته، ومختلف القوى التي تعمل بداخله ومادام المجتمع العربي يشهد تطورا كبيرا، ونموا للوعي القومي في مختلف أقطاره، ويواجه تحديات حضارية كثيرة، ويناضل من أجل التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فهو بحاجة الى الواقعية مدرسة أدبية تضعه وجها لوجه أمام مشاكله، وتفسح له المجال للتطلع الى مستقبل افضل، المستقبل الذي يستعيد فيه نضارته واشراقه.

وما دمنا بصدد الحديث عن الواقعية في الادب العربي، يجدر بنا أن نتساءل متى وعلى يد من دخلت؟ وأيهما أسبق في احتضان الواقعية النقد أم الابداع؟... وبادئ ذي بدء نشير الى أن دخولها الى الادب العربي

---

1) ترجمة عبد الله حمادي، غابر يال غارسيا ماركيز رائد الواقعية السحرية، ص: 116.

جاء متأخرا نسبيا بالمقارنة الى آداب أخرى ، ويعود السبب في ذلك الى تأخر ظهور الفن القصصي نفسه في العالم العربي ، وتمثر المحاولات الأولى للرواية لعدم وجود فن روائي في التراث العربي باستثناء بعض الاشكال الشعبية التي تتوفر على عنصر الحكاية ،بالاضافة الى اقتران الواقعية بانواعها المختلفة باحداث تاريخية معينة ، وبتغييرات سياسية واجتماعية معروفة عالميا . والظروف التاريخية ، والسياسية التى مرّبها المجتمع العربي تختلف عن تلك التي مرّت بها دول كفرنسا وانجلترا ، والاتحاد السوفياتي .فتاريخ بعض المجتمعات العربية ،تاريخ نضال طويل من أجل التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي لهذه المجتمعات . والحديث عن الواقعية في الأدب العربي مرتبط بالحديث عن نضال الشعوب العربية من أجل استقلالها ، واستعادة سيادتها ، وقد ظهرت بذور الواقعية في كتابات لاشين، ومحمود تيمور، وعبيد، وغيرهم في اهتمامهم بمشاكل الواقع آنذاك ، وبهموم الانسان العربي ، وبالمقابل ازدهر الفن الرومانسي وانتشر بشكل واسع ، مستفيدا من أوضاع اجتماعية خاصة مرت بها بعض الاقطار العربية ، وكان مطلوبا من الواقعية في ولادتها الثانية ، والحقيقية أن تناضل الاتجاه الرومانسي الذي كان مزدهرا على يد يوسف السباعي ، واحسان عبد القدوس ، وعبد الحليم عبد الله (1) .

لكن هل يمكن للواقعية أن تتطور في الادب العربي وهي لم ترتبط بنفس المناخ الذي نشأت فيه في الغرب ؟ .

وقبل الاجابة عن هذا السؤال يجب ملاحظة أن أي مذهب فكري ، أو مدرسة أدبية ، وهو ما يطلق عليه البناء الفوقي لمجتمع من المجتمعات ،

---

1) غالي شكري ،الرواية العربية في رحلة العذاب ،الناشر عالم الكتب ،الطبعة الاولى ، 1971 ،ص : 7 .

يكون نتاجا طبيعيا للبنية التحتية ، ويرتبط بها ارتباطا آليا بادئ الامــــر، لكن عندما ينتقل الى مجتمعات أخرى ، فانه لا يرتبط بالضرورة بهذه الظروف، اذ يصبح قابلا لعملية التأثير والتأثر في الظروف الموضوعية الجديدة أي بعدها يكون قد اسلخ عن ارضيته (1) . وهذا ما نلاحظه عند انتقال الواقعية باعتبارها مدرسة تبلورت في الغرب الى الادب العربي . ولم تكن واحـــدة بالنسبة للاقطار العربية كلها بالرغم من التشابه بينها ، وهذا يرجع بطبيعـــة الحال الى خصوصية كل مجتمع من المجتمعات العربية ، ومراحل تطـــوره، والظروف التي مرّبها ـ كما سنعرف ذلك في الفقرات الآتية بالنسبة الى الجزائر ـ فالواقعية اذن بمرحلتيها النقدية ، والاشتراكية في الادب العربي لم ترتبط بالظروف نفسها : الاطاحة بالاقطاع ، ونمو البرجوازية فتفسخها ، ثم ظهـــور الطبقة العاملة ، وكفاحها من أجل تغيير واقعها كما حدث في الغرب ، وذلك لتأخر ظهور البرجوازية الصناعية نفسها ، لانّ معظم البلدان العربية زراعيــة وكثيرا منها ما يزال يعتمد في اقتصاده على الزراعة حتى الآن . وما وجـــد في تلك الفترة هو البرجوازية الكبرادورية (2) التي ترعرعت في ظل الاقطاعيــة وعملت معها حتى منتصف القرن العشرين عندما ظهرت البرجوازية ، الريفيـــة وعملت على تحطيم معاقل الاقطاع . (3)

وقد اعطت الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية أدبا واقعيـــــا نقديا يتفاوت من حيث الجودة من كاتب الى آخر ، ففي الأدب : طاهر لاشين، ومحمود تيمور ، وفي النقد محمد مندور ، ولويس عوض ، وعبد القادر القط (4) ،

1) حنا عبود ، الواقعية في الادب العربي المعاصر ، الموقف الادبي ، ص 20 .
2) البرجوازية الكبرادورية هي : البرجوازية التي لها صلة بالرأسمال الاجنبي وتساعده في السيطرة على الاقتصاد الوطني ، واللفظة اسبانية .
3) حنا عبود ، الواقعية في الأدب العربي المعاصر ، الموقف الادبي ص: 21 .
4) د / أحمد ابراهيم الهواري ، نقد الرواية في الادب العربي الحديث في مصـــر، دار المعارف ، الطبعة الأولى 1978 ، ص 219 ، 220 .

وتميزت كتابات كثيرة من أدب الواقعية النقدية في العالم العربي بتقليدها للآداب الأوروبية التي تطور فيها الأدب الواقعي كثيرا .(1)

اما الواقعية الاشتراكية ،أو الواقعية الجديدة كما كانوا يسمونها فقد كان النقد اسبق الى احتضانها من الأدب . لقد دخلت العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية مع ازدهار حركة الترجمة من لغات كثيرة الى العربية، وانتشار الفكر الماركسي في بلدان كثيرة من العالم العربي (2) والتغيير الذي احدثته ثورة اكتوبر العمالية في الأدب الانساني ،والذي مسّ بطبيعة الحال الادب العربي الذي كان يعيش نهضة حقيقية . وقد ورثت الواقعية الاشتراكية في الادب العربي كثيرا من أسس الواقعية النقدية ،واضافت اليها عنصر منظور المستقبل الذي استمدته من الاشتراكية العلمية ،وعمقت كذلك عنصر التحليل لتناقضات الواقع الذي كان يتسلح به من قبل كتاب الواقعية النقدية قبل الحرب العالمية الثانية ،واتخذت لها من قضية نضال الشعوب العربية ضد الاستعمار الذي كان يهيمن على معظم البلدان العربية موضوعا حرّك معظم ابداعات تلك الفترة . بالاضافة الى النضال الداخلي الذي كانت تخوضه الشعوب العربية ضد القوى المعرقله لحركة التقدم ، والمتحالفة مع الاستعمار ، أو التي خلفته بالنسبة للدول التى تخلصت من الاستعمار الخارجي ، وقد اهتم ادب الواقعية الاشتراكية بمشكل التخلف الذي تعاني منه كل الاقطار العربية ،عندما فتحت عينيها في هذا القرن لتجد نفسها متخلفة حضاريا ينهش الفقر والبؤس شعوبها ،بينما قفزت بلدان الغرب قفزة كبيرة نحو التقدم والتطور العلمي والتكنولوجي ،ويمكن أن نشير الى القضية

1) حنا عبود ،الواقعية في الادب العربي المعاصر ،ص: 23 .

2) حنا عبود ،الواقعية في الادب العربي المعاصر ،ص : 24 .

الفلسطينية التي غدت من الموضوعات الهامة في ادب الواقعية الاشتراكية، والنقدية في الأدب العربي، خاصة بعد نكسة 1948، وكانت قضية الفلسطينيين كما قال عنها حنا عبود: " أكبر الدعامات للواقعية الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية "(1).

وأصبحت الواقعية فيما بعد لا تصور الصراع بين طبقة وأخرى، أو بين مجتمع عربي وقوة غازية فحسب بل اصبحت تغوص في أعماق المجتمع نفسه كاشفة عن الامراض التي تنخر جسمه. وأصبح هم الكاتب الواقعي تصوير التناقضات التي يعج بها المجتمع العربي، وتقديم القوى الحية التي تعمل بداخله، من أجل دفع حركة التقدم الى الأمام، وغدت رؤيته لقضايا الانسان العربي أعمق، واوضح مما كانت عليه قبل ذلك، وقد اعطت الواقعية الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية أدبا كثيرا، وبرز عدد لا يستهان به من الادباء والنقاد في مختلف الاقطار العربية، وان ظل ميدانا التنظير والنقد اسبق من الابداع في تبني الواقعية الاشتراكية. اما ما افرزت هذه المرحلة من ابداع، فيتفاوت من حيث العمق والجودة تماما كما قلنا من قبل بالنسبة لانتاج الواقعية النقدية في الادب العربي قبل الحرب العالمية الثانية (2). فهناك من حاول أن يترجم أسس الواقعية الاشتراكية الى الأدب ترجمة ميكانيكية، وهناك من الادباء من تعامل مع الشعارات تعاملا خارجيا دون أن يجعلها خاضعة لتجربته الفنية(3)، ولا نابعة من صميم الاحداث التي يتناولها. لكن استطاعت الواقعية فيما بعد أن تتجاوز ذلك بنضالها ضد "الاتجاه التقريري المباشر الذي كان لا يزال وليدا يتعثر في خطواته الأولى على أيدي عبد الرحمن الشرقاوي وحنا مينا

---

1) حنا عبود، الواقعية في الأدب العربي المعاصر، ص: 28

2) انظر الصفحة 21 من التمهيد.

3) حنا عبود، الواقعية في الادب العربي المعاصر، ص: 32.

وغيرها "(1)، كما تجاوزت الفهم السطحي للمبادي، وحتى على مستوى الكتاب الواقعيين أنفسهم، فقد حدث تطور كبير في فهمهم للواقعية، ولعملية الانعكاس للواقع، ولكيفية التعامل مع معطيات هذا الواقع، ونظرة متأنية لابداعات حنا مينا، أو يوسف، دريس، أو زكريا تامر، أو أي كاتب واقعي آخر يجعلنا نلاحظ نضج وعمق الرؤية لدى هؤلاء الكتاب في ابداعاتهم الاخيرة، بمقارنتها الى ما كتبوا في مراحلهم الاولى. وشهدت فترة الستينيات محاولات جادة من الروائيين الواقعيين العرب من أجل التغلب " على المزاوجة بين الطابع الخاص والمحلي والنزعة الانسانية الرحبة التي تتجاور مع احلام البشر وآلامهم اينما وجدت "(2)، وبرزت اسماء كثيرة في مجالي التنظير والنقد مع دخول الواقعية الاشتراكية الى الادب العربي وربما كان عددهم أكبر من عدد الادباء انفسهم في بداية الامر، وقد ساعدت الدراسات التي قدمها محمود أمين وعبد العظيم أنيس، وحسين مروة، ودكروب، وغالي شكري، وغيرهم كثير على تعميق منهج الواقعية في الادب العربي، حيث تجاوز عملهم عمليه الشرح والتفسير، والتعليق من حين الى آخر، ليصبح عمليه تقييم للشكل والمضمون، ويلعب دورا في تطوير رؤية الفنان، وتجربته الفنية. (3)

والحديث عن الواقعية بشقيها النقدي والاشتراكي في الادب العربي يسوقنا الى الحديث عن الواقعية في الادب الجزائري: فمتى وكيف دخلت ؟

---

1) غالي شكري، الرواية العربية في رحلة العذاب، ص: 7.

2) نفس المرجع: ص، 7.

3) جلال فاروق الشريف، سؤالان، الموقف الادبي، ص: 6.

قبل الاجابة عن السؤالين تجدر الاشارة الى أن ما قلناه عن الواقعية في الأدب العربي ، يصدق الى حدّ ما على الواقعية في الادب الجزائري ، لوجود عوامل مشتركة بين الجزائر وبين بلدان عربية أخرى ، بالاضافة الى بعض الأمور التي تعد من خصوصيات كل مجتمع ، والتي تميزه عن بقية المجتمعات الأخرى. فنلاحظ أن فترة الاحتلال الاجنبي مثلا بالنسبة الى الجزائر كانت أطول من غيرها في البلدان العربية . كذلك طبيعة الاحتلال نفسه ، وهذا اثر بطبيعة الحال على نواحي كثيرة ، من بينها الثقافة التي تعرضت لمحاولات المسخ ، والتشويه ، والتغريب . والحديث عن الثقافة يجرنا الى الحديث عن اللغة عن هوية الانسان الجزائري ، وعن أدبه . وتعتبر اشكالية اللغة أيضا خاصة بالمجتمع الجزائري ، ولعله البلد الوحيد في العالم العربي الذي ما يزال يناقش هذه الاشكالية ويبحث عن مخرج مما اصطلح على تسميته بالازدواج اللغوي .

ومادامت اللغة هي مادة الأديب التشكيلية ، فقد خضع بدوره لهذه الظروف التي كنّا بصدد الحديث عنها ، واغفالها يحرم الأدب الجزائري من أدب مرحلة بكاملها ، اعتبره جلّ الدارسين ناضجا ، ومتطورا ، فالأدب الجزائري عرف الواقعية النقدية والاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية . وحتى اذا كان عدد الروايات المكتوبة بالعربية قليلا في تلك الفترة ، وغير متطور أيضا ، فانما يعود السبب في ذلك الى الوضع العام الذي كانت تعيشه الجزائر ، وحالة الحصار التي كانت مضروبة على الثقافة العربية . اما فيما يتعلق بالرواية المكتوبة بالفرنسية فقد

خطت خطوات كبيرة ، واستوعبت معطيات تلك الفترة ، وعبرت عن الأوضاع الاجتماعية المتدهورة ، وعن ارهاصات الثورة الوطنية . وكانت فترة الخمسينيات غنية بالانتاج الروائي الواقعي باللغة الفرنسية ، الانتاج الذي كان يعكس تناقضات الواقع في تلك المرحلة ، وبرز عدد كبير من الروائيين امثال مولود فرعون ، مولود معمرى ، ومحمد ذيب بثلاثيته الرائعة التي صدر الجزء الأول منها سنة 1952 ، والجزء الثاني سنة 1954 ، والجزء الثالث سنة 1957.(1)

اما بالنسبة للانتاج المكتوب بالعربية ، فقد عرف الواقعية النقدية والاشتراكية في الخمسينيات والستينيات لكن كان ذلك في ميداني الشعر ، والقصة القصيرة اما الرواية فكان حظها قليلا جدا في هذه الفترة وما ظهر منها كان مجرد محاولات لا تصل الى مستوى الرواية المكتوبة بالفرنسية ، ولا الى مستوى الرواية في بعض البلدان العربية ، ومن هذه المحاولات رواية " أحمد رضا حوحو " "غادة أم القرى ، ورواية " الطالب المنكوب " لعبد المجيد الشافعي " التي قال عنها الدكتور عبد الله ركيبي : " مضمونها ساذج مثل طريقة التعبير فيهما".(2) لكن ما تهم الاشارة اليه هو أن فنّ القصة القصيرة كان اوفر حظا من الانتاج الروائي . وربما عاد السبب في ذلك الى سهولة كتابة القصّة القصيرة ونشرها ، بخلاف فنّ الرواية المعقد الذي يحتاج الى استقرار ، وامكانات مادية ، وهذا بطبيعة الحال لم يتوفر له اثناء الثورة . اما القصة القصيرة فقد عرفت الواقعية وعرفت الواقعية الاشتراكية ، واستطاعت أن تعبر عن واقع تلك المرحلة وعن هموم الانسان الجزائري ، وعن نضاله ضد قوى الاحتلال . وبرز كتاب كثيرون في فترة الاربعينيات والخمسينيات امثال رضا حوحو ، وابو القاسم سعد الله ،

Jean Dejeu, la littérature algérienne contemporaine collection que sais-je Presse UNIVERSITAIRE.DE FRANCE p. 57.

2) د / عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، 1830 ، 1974 ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية ، 1976 ، ص 98

وابن الميد دودو ، وعبد الله ركيبي وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطـــار، وكانت قصص هؤلاء الكتاب تتفاوت من حيث العمق والجودة (1). على أن كثيرا من كتاب القصة القصيرة توقفوا عن الكتابة بعد الاستقلال ،بينما واصل بعضهم الآخر كتابة القصة القصيرة ،وبعث فن الرواية من جديد في مرحلة السبعينيات، مرحلة الانتعاش ،والصحوة الحقيقية في ميدان الرواية . ومن بين هؤلاء الكتـاب عبد الحميد بن هدوقة ،والطاهر وطار اللذان سندرس انتاجهما الروائـــي بالتفصيل في الفصول القادمة . ويمكن أن ننهي حديثنا عن الواقعية بطـرح هذا السؤال : هل ما تزال الواقعية قادرة على استيعاب الواقع الجديـــد بكل تناقضاته ؟ أم أنها أعطت محليا وعالميا كل ما يمكن لها أن تعطيـــه بحيث يجب البحث عن بديل لها ؟

وللاجابة عن هذين السؤالين نرى ان المستقبل وحده هو الكفيل بالـــردّ على ذلك ... وما يمكن أن نقوله الآن وباختصار هو أنها ستظل من أقــدر المدارس على استيعاب المرحلة الحرجة التي يمر بها العالم العربي . ودليلنا على ذلك أن مدارس كالرومانسية والسريالية والطبيعية ،وغيرها أفل نجمها " وظلت الواقعية المدرسة القادرة على مواجهة تحديات العصر ، وازماته ،لانها كانـت وما تزال المذهب في الأدب والفن الأكثر التزاما بالانسان ،وبقضاياه ، والاقـدر على مواكبة نضاله من أجل تحرره وتقدمه (2) .

1) انظر عبد الله ركيبي " القصة القصيرة في الادب الجزائري المعاصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .
2) جلال فاروق رشيد ،سؤالان ،الموقف الادبي ،ص 6 .

الباب الأوّل

في أعمال عبد الحميد بن هدوقة

الفصل الأوّل : الثورة في اعمال ابن هدوقة .

الفصل الثاني : في بناء الشخصية الروائية .

الفصل الثالث : في تقنيات الرواية .

الفصل الأول

الثورة الوطنية والثورة الوطنية الاجتماعية

في أعمال عبد الحميد بن هدوقة

لا يمكن أن نفهم عالم عبد الحميد بن هدوقة الروائي مالم نحاول اقتحام الازمنة الثلاثة معه ، ومعرفة كيفية توظيفها في اعماله الادبية . وستكون نقطة الانطلاق من الزمن الماضي ، زمن الثورة الوطنية ، مرحلة المطالبة بالاستقلال السياسي ، بالرغم من كوننا ندرك صعوبة ربط الأدب ربطا مباشرا بالتاريخ ، لأنّ تعامل الأديب معه يتطلب فهمه بدل تتبع سيرورته بتسجيل حوادثه ، والتمليق عليها . والادب يهتم أيضا بتصوير الانسان كعضو في المجتمع وعلى وجه الخصوص ، كمشارك في دفع الحركة التاريخية (1) . والسؤال الذي يطرح نفسه علينا ونحن نتناول هذه المرحلة ، هو كيف عكس ابن هدوقة واقع الثورة الوطنية ؟ وهل استطاع اعطاء صورة صحيحة عن مرحلة أفرزت ثورة من أكبر الثورات التحررية في العالم؟

ان عبد الحميد ابن هدوقة واحد ممن عاشوا الثورة الوطنية عن كثب ، وتحدث عنها أيضا ، بيد أن حديثه تمّ في مرحلتين مختلفتين زمنيا ، وهنا تجدر الاشارة الى قصصه القصيرة ، (2) أين استطاع تسجيل كثير من الاحداث فيها في ظروف لم تكن الكتابة فيها سهلة أبدا . أما رواياته ، موضوع دراستنا ، فالأمر فيها مختلف حيث تمت كتابتها في مرحلة زمنية أخرى ، كانت الحرب قد وضعت

---

1) بوريس ستشكوف ، المصائر التاريخية للواقعية ، ص 74 .

2) عبد الحميد بن هدوقة ، الاشعة السبعة ، الشركة الوطنية التونسية سنة 1962 .

أوزارها ،ومن ثمّ كان الحديث فيها بطريقة موضوعية ،خاصة اذا عرفنا أن الرواية الحقيقية بالعربية وليدة السبعينيات (1). وعبد الحميد بن هدوقة ممن وضعوا لبناتها الاولى عندما تهيأت له الظروف الملائمة (2). ونشير في البداية الى أن عبد الحميد بن هدوقة لم يخصص عملا روائيا كاملا للحديث عن الثورة الوطنية ولم يتحدث عن الثورة باعتبارها موضوعا ثوريا معينا ،ولم يتتبع أحداثها في اطارها الزماني والمكاني مما يعين الكاتب على تحليل طبيعة الثورة،

---

1) عبد الله ركيبي ،تطور النثر الجزائري الحديث ، 1930 - 1974 ص 197 .

2) ولد عبد الحميد بن هدوقة سنة 1925 بالمنصورة ولاية سطيف ،تلقى تعليمه بالمدارس العربية والفرنسية بالجزائر ،ثم واصله بتونس . من مؤلفاته :

- ظلال جزائرية ،مجموعة قصص ،نشرت بدار الحياة ،بيروت سنة 1960 .
- الاشعة السبعة ، مجموعة قصص ، نشرت بالشركة الوطنية التونسية سنة 1962 .
- الكاتب وقصص أخرى ،مجموعة قصص نشرت بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،سنة 1974 .
- الارواح الشاغرة ، مجموعة من الشعر النثرى ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،سنة 1967 .
- ريح الجنوب ،رواية ،نشرت بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،سنة 1971 .
- نهاية الامس ،رواية نشرت بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، سنة 1975 .
- بان الصبح ،رواية ،نشرت بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، سنة 1980 .

وتعميق مفهومها ، واستخلاص نتائجها كما فعل كتاب جزائريون آخرون (1). اذا الثورة الوطنية تغلت من قبضة الماضي أحيانا لتندمج في الحاضر ، بحيث تعيش في ذاكرة كثير من شخصياته الروائية ،كما نرى ذلك في رواية " ريح الجنوب " ولاسيما في ذاكرة هؤلاء الذين عاشوا الثورة الوطنية ، ويعيشون الحاضر بكل ثقله . وعن طريق هذه الشخصيات يلتفت ابن هدوقة الى مرحلة الثورة الوطنية محاولا رصد حركة الواقع آنذاك ويرى الكاتب أن الثورة الوطنية هي ثورة ضد الاستعمار الفرنسي بالدرجة الأولى ، حيث يتوق الشعب من خلالها الى استعادة حقه في الحياة ، وبطريقة بسيطة خالية من أي تحليل يرسم الكاتب واقع الثورة الوطنية ، وعن طريق صور بطولية فردية كثيرة تتاثرت في رواياته الثلاث - لا تجسد الثورة كعمل جماعي - يتم تقديم هذه المرحلة الفنية بأحداثها تاريخيا .

صور بطولية فردية كثيرة تناثرت في أعمال عبد الحميد بن هدوقة تسجل بعضا من كثير حدث أثناء الثورة الوطنية . ونحن نتساءل : هل استطاع من خلال هذه الصور المتناثرة الغوص في أعماق الثورة الوطنية وتقديم صور حية عنها . قبل الاجابة عن السؤال نحاول استعراض هذه اللوحة من رواية " نهاية الأمس " حيث يقدم الكاتب الشيخ " حمودة " وهو يحمل بندقية ، ويواجه فيلقا كاملا من العساكر مجهزين تمام التجهيز يقول : " ها هي الفرقة العسكرية مقبلة الافكار تتوقف في ذهن الشيخ حمودة ... أيبقى فوق الحجر أم يختفي وراءه ، يبقى فوق الحجر ليثبت رباطة جأشه وعدم رهبته أمام هذه الشرذمة لا ، انه خطر يجب أن يختفي وراء الحجر ليكون الانتقام كاملا ان بقي واحد من الفرقة حيا فقد يكون هو الذي اعتدى على شرف ابنه . الكلمة لا تجانف

---

1) مرزاق بقطاش ، طيور في الظهيرة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، وعرعار محمد العالي ، بروايته ما لا تذروه الرياح ، عن المؤسسة نفسهما .

الشجاعة وانما تؤيدها (1)" والكاتب من خلال هذه الصورة وصور أخرى كثيرة مشابهة لها ، يبين الثورة وكأنها عبارة عن مغامرة ، ومغامرة فردية أيضا ، ومن ثمّ يجردها عن صفتها الجماعية الشعبية ، ويعز لها عن واقعها الطبيعي الصحيح حيث يصورها كمبادرات تتم على مستوى افراد قلائل يرفضون الواقع بشكل أو بآخر . ومن خلال رواية " ريح الجنوب " وبواسطة التقابل يكشف ابن هدوقة عن جانب آخر من الثورة الوطنية أثناء تدشين مقبرة للشهداء باحدى القرى الجزائرية ، فيقدم من ناحية صورة " لمالك " أحد مجاهدي الثورة الوطنية وهو يستعيد ذكرياته المشرقة حينا ، والمليئة بالشجون أحيانا أخرى من يوم التحاقه بالثورة ، الى أن وضعت الحرب أوزارها ، ويقابل هذه الصورة بصورة" لعابد بن القاضي " ، وموقفه المتذبذب من الثورة ، حيث كان يدفع باولاده الى الانخراط في صفوفها ، وفي الوقت نفسه يشي بالثوار ، ويتعامل مع السلطات الفرنسية حتى يضمن الأمن لنفسه ، وبواسطة هذا التقابل يكشف ابن هدوقة عن بعض التناقض الذي افرزته تلك المرحلة ، وان ظل كلامه يفتقر الى التحليل والعمق ، والموقف الواضح من هذه المعطيات التاريخية يقول : " أرأيت ، لقد قتلت فرنسا هذا الاسبوع معظم شباب القرية فأجاب عابد بن القاضي : الابناء هم الحل .

فانجته هذه الجملة ، وظن المسؤول السياسي أن الرجل واع للثورة بكل ابعادها ، فاذا رضي الآباء يموت أبنائهم من أجل الوطن فمعنى ذلك أن انتصار الثورة حتمي !". (2)

وابن هدوقة وهو يحاول رصد واقع الجزائر أثناء الثورة الوطنية لاتسعفه

---

1) نهاية الأمس ، ص : 97 .

2) ريح الجنوب ، ص : 48 .

أداته لتحليل هذا الواقع ، وابراز التناقضات الموجودة فيه ، والاحاطة بشمولية ومن ثم كان حديثه عنها عبارة عن انطباعات عامة عن بعض المعارك سجلها دون أن يستفيد منها في فهم الحالة العامة للناس آنذاك ، وكان باستطاعته من خلال حوادث كالتي سبق ذكرها عن " عابد بن القاضي " كشف الكثير من التناقض الذي كان موجودا آنذاك . وكثيرا ما يغرق وهو يسجل ذكريات أبطاله عن الثورة الوطنية في تفاصيل طويلة مملة ، فيتتبع جزئيات بعض الحوادث مما يفقدها حرارتها ودلالتها الواقعية ، ويغفل أمورا كثيرة بامكانها اثارة جوانب كثيرة من الثورة " فرقية " احدى شخصيات " نهاية الأمس " تسترجع عن طريق التداعي ماضيها أثناء الثورة الوطنية كما نرى ذلك في احدى غارات المستعمر على القرية . وبدل أن يتحدث الكاتب عن آثار هذه الغارة ، وانعكاساتها على سكان القرية ، ومعنويات " رقية " نفسها كامرأة ضمن السياق الاجتماعي العام ، نراه يغرق في تفاصيل كثيرة حول حادثة اغتصاب " رقية " من طرف الجنود الفرنسيين مما أفقد الصورة بعدها الثوري والواقعي أيضا (1) وبسبب هذا التسجيل غير الواعي لمعطيات الثورة الوطنية ، وعدم الماّم الكاتب بشمولية الواقع آنذاك ، وافتقاره لروح التحليل ، نراه يقدم صورة للريفيين ، وقد يئسوا وفقدوا كل أمل في الانتصار نتيجة احدى الغارات وما أكثرها في تلك المرحلة دون اقناعنا بهذا الموقف يقول : " ومن الزمان الدائرالمتشابه ، ومع الاسلحة المجددة الأكثر حداثة ، ومع الطائرات التي تفصل بين القرية والسماء انحدرت آمال الناس الى الصفر ولم يعد هناك مجال للتفكير في الماضي ولا في المستقبل صارت الحالة الآنية هي الزمن بابعاده الثلاثة وتداخلت الحياة والموت فاذا هما يستبقان ويتنازعان الهيمنة على الناس . حتى المؤمنون أخذوا يشعرون

---

1) نهاية الأمس ، ص : 86 - 87 .

بأن الاله ان لم يكن حلما جميلا يسكن نفوسهم في وقت ما فهو متغيب عن القرية وأن هذه تعيش بلا اله "(1)، ونص كهذا بما فيه من مبالغة ، وتهويل للاحداث لا ينقل حقيقة ما كان يقع أثناء الثورة الوطنية ، ولا يعكس العلاقات التي كانت موجودة بين الناس آنذاك . ولا يصور جوهر العمل الثوري أيضا . ويتعرض عبد الحميد ابن هدوقة فيما يتقله من أحداث الثورة الوطنية لحالة المهاجرين الجزائريين خارج الوطن ، وللظروف الصعبة التي يعيشونها من خلال شخصية " البشير " احدى شخصيات رواية " نهاية الأمس " اضطر الى مغادرة الوطن بعدما اصيب بجروح بليغة ، تاركا بلده واسرته ، وانطلق الكاتب من استعراض هذه الوضعية الى الحديث عن علاقة الثورة الجزائرية بالثورتين التونسية والمغربية (2)، الا أنه لم يستطع التعمق في فهم العلاقة بين الثورات الثلاث في مواجهة الاستعمار المشترك ، بالرغم من تشابه الظروف التاريخية والمصير المشترك أيضا . وبنفس الطريقة التسجيلية أيضا أشار الى ظروف تكوين الحكومة المؤقتة خارج حدود الوطن بدون ربط هذا الحدث بسياق الثورة العام (3).

واذا كان الكاتب في تناوله للزمن الماضي ولمرحلة الثورة الوطنية لم يتمكن من الغوص في أعماق الواقع ، وتحليل تناقضاته ، واكتفى بتسجيل بعض الاحداث والذكريات التي ظلت عالقة بذهن بعض شخوصه الروائية دون تحليلها ، والكشف عن الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لتلك المرحلة فان هذا لم يمنعه من تقويم الماضي ، حيث حرك أحداث روايته " نهاية الأمس " بتساؤله عن موقف الحاضر من الماضي من أجل بناء مستقبل جديد للجزائر ؟ ويتمثل الماضي في رواية

---

1) نهاية الأمس ، ص : 83 .

2) المرجع نفسه ، ص: 35

3) المرجع نفسه ، ص : 34

" نهاية الأمس" في شخصية " رقية " زوجة "المعلم " البشير " حيث يلتقي بها صدفة في احدى القرى بعدما ظن أنها ماتت كما مات أهله أثناء الثورة . ويتم اللقاء بها في وقت يقرر فيه بدء حياته من جديد ، ولو تطلب الأمر البدء من الصفر ، لكن حضورها في ذلك الوقت بالذات يحرجه ، ويضعه ولأول مرة امام نفسه " فرقية " هي الزوجة ، وهي الماضي في نفس الوقت فهل بامكانه التخلص من زوجته ، وبالتالي من ماضيه ؟ وهل من الممكن بناء حاضر دون الالتفات الى الماضي ؟ وفكرة تقويم الماضي التي شغلت بال الكاتب في رواية " نهاية الأمس " جعلته يضع بدل نهاية واحدة للرواية نهايتين . ومن خلال هاتين الخاتمتين يناقش الكاتب الماضي بمحتواه المادي ، الماض الذي احتضن الثورة الوطنية . والثورة قامت من أجل القضاء على الاستغلال ، وبناء حاضر افضل . وعلى هذا الأساس يدعو الى القيام بعملية فرز للزمن الماضي للاحتفاظ بالجوانب الايجابية فيه ، والتخلص من سلبياته ، والقيام بعملية غربلة بغية تصفيته يقول : " لكن القضية هنا ليست هي الرجوع الى الماضي أو الانقطاع الى المستقبل انها موقف مع نفسه أن مشكلة ابن الصخري وما يمثله من اقطاع وشيخ الجامع وما يمثله من جهل بحقائق الدين وعقلية بعض السكان وما تمثله من شطط عاطفي وخلط بين الحق والباطل ... كلها ثانوية بالنسبة الى هذه الوضعية الجديدة فهو ان غادر القرية باعتبار أن هذا الماضي الذي التقى به فيها قد يعرقل مشروعه المستقبلي ، لا يفعل شيئا سوى انه يهرب من مواجهة مسؤولياته ، والهروب من مواجهة المسؤولية لا يؤهله للمستقبل . ثم هل يستطيع الهروب من نفسه "(1) يكشف النص السابق عن حيرة وقلق الكاتب ازاء الماضي

1) نهاية الأمس ، ص : 236 .

وعن موقفه المتذبذب منه ، وعما يكتنف رؤاه من ضبابية أيضا . وينهي ابن هدوقة روايته " نهاية الامس " نهاية توفيقية تقوم على التصالح بين الزمنين ، وانتقاء ما هو صالح من الزمن بغية الاستفادة منه " دون التمكن من ادراك السببية الحقيقية للأحداث التاريخية "(1). الا أنه ، ومن خلال رواية "بان الصبح "، التي انطلقت من أرضية المدينة ، لا يفكر الا في المستقبل ، ويرفض من يعرقله ، حتى وان تطلب منه ذلك الوقوف بعنف في وجه الماضي يقول : " انك في العشرين من العمر ومثقفة ، فماذا تخشين ؟ اباك ؟ هو رجل كالرجال لا تتوهمي انه بطل الابطال لانه شارك في حرب التحرير. الجزائر كلها شاركت حتى النساء لا يخيفنك ما يحكي عن نفسه من بطولات . قولي له بدون حياء أو تلعثم ماوقع فان لم يصدقك ، أخذت ابوته ورميت بها وجهه ! انك قانونيا في سن الرشد فلا هو ولاغيره يستطيع السيطرة عليك / اباؤنا نحترمهم في حدود احترامهم لنا لا ينبغي أن نخافهم انهم الماضي ، ونحن المستقبل "(2) . وموقف الكاتب من الماضي في روايته الاخيرة " بان الصبح " أكثر وضوحا من موقفه في سابقتها " نهاية الامس " حيث يكشف النص السابق عن موقف جرئ وصريح من احدى شخصيات الرواية وهي تتحدث عن عمها المجاهد اثناء الثورة . انها سعيدة وهي ترى في نفسها وفي الجيل الذي تنتمي اليه صورة المستقبل ، بينما لا يمثل جيل أبيها الا الماضي الذي أنتهى دوره .

- 2 -

واكب الادب الجزائري بوسائل تعبيره المختلفة الثورة الوطنية وجسد

---

1) بوريس تستشكوف ، المصائر التاريخية للواقعية ، ص : 216 .

2) بان الصبح ، ص : 231 .

مختلف نضالات الشعب من أجل تقرير مصيره ،حيث أحس معظم الادباء غداة الاستقلال بضرورة المواصلة . لأن الثورة الوطنية كما يراها بعض المفكرين(1)، لا تقف عند حدود الاستقلال السياسي بل تتجه في اناه وصبر لا نجازات اجتماعية.

والمرحلة التي اعقبت الثورة الوطنية لا تقل أهمية عن سابقتها : مشاكل اجتماعية كثيرة طفت فوق السطح ،خلافات سياسية كادت تجر البلاد الى ثورات أخرى ، نزاعات حول الحدود مع الدول الشقيقة المجاورة ،فقر منتشر في ربوع الريف الجزائري ،وتحرك القلم مرّة أخرى ليرصد هذه الظواهر، ويعبر عن هذه التحولات متابعا عن كثب مسيرة الشعب الجزائري في مرحلة ما بعد الاستقلال . وكان اهتمام عبد الحميد بن هدوقة في المرحلة الجديدة منصبا على الريف ،وما يعيشه من مشاكل ،حيث حركت الأرض أحداث روايتين كاملتين " ريح الجنوب " و " نهاية الامس " وبالرغم من كونه ينطلق من الزمن الحاضر وهو يعالج مشكلة الأرض الا أنه يغوص في أعماق الماضي حيث يندمج الزمنان، ويصبحان لحظة واحدة يترصد من خلالها الكاتب واقع الريف الجزائري، والسؤال الذي يلح علينا هنا هو كيف رسم هذا الواقع الجديد ؟ ولم كان الماضي دائم الحضور عنده ؟

يضع ابن هدوقة لروايته الأولى " ريح الجنوب " الريف كاطار مكاني تتحرك فيه شخوصها وأحداثها ،ويرسم كثيرا من صور البؤس والفقر ،والبطالة، والامية والفراغ الذي يعيشه سكان قرية من قرى الجزائر النائية التي فرضت عليها طبيعتها القاسية أن تعيش في شبه عزلة عن المناطق الأخرى وتتخلل هذه الصور القاسية صور مشرقة عن ماض القرية النضالي ،حيث كانت القرية مسرحا لمعارك ضارية مع العدو ،التف فيها السكان بعضهم حول بعض، وبرهنوا

---

1) سلامة موسى ،من كتاب الرواية العربية في رحلة العذاب ،غالي شكري ،ص : 24 .

على رفضهم للاستغلال، وتشبثهم بالارض، ويمضي الكاتب في رسم واقع الريف الحاضر حيث يكشف عن جوهر التناقضات القائمه بين الناس: شخص يملك كل شيئ وآخرين لا يملكون شيئا، فئة تتمتع، وفئات تموت موتا بطيئا تحت وطأة الاستغلال والتوزيع غير العادل للأراضي الفلاحية، وعن طريق هذه الصور استرجع الكاتب مرّة أخرى واقع الريف قبل الاستقلال، ومعاناة الناس آنذاك. فنعرف أن "عابد ابن القاضي"، الذي يملك الأراضي الكثيرة، والمنزل الفخم، ويبعث بابنته للدراسة في العاصمة، ويستخدم أجراء في حقله، ما هو الا "عابد بن القاضي" الذي كان يتحايل على الثورة الوطنية (1)، ويطعنها من الداخل، ويتعامل مع السلطات الفرنسية التي ساعدته على توسيع ممتلكاته. وتتوالى الصور، وتمتزج بعضها ببعض، فاذا الماض حاضر، والحاضر ماضي، وبواسطة هذا المزج بين الازمنة يتولد الصراع، ويكشف الكاتب النقاب عن أوجه الاستغلال المختلفة اثناء الثورة الوطنية، وما بعدها، ويبرز الكثير من التناقضات الموجودة في الريف، والناتجة أساسا من سوء توزيع الأراضي الفلاحية، وهيمنة الاقطاع على الفلاحين الذين كانوا يتضورون جوعا يقول: "وبدون أن يشعر التفت الى الربوة الواقعة في الضفة المقابلة حيث الكوخ الذي تنام فيه أمه فرآه يبدو أسود رغم ضوء القمر لا يشبه بحال دار ابن القاضي هاته التي امامه ذات الغرف الكثيرة والقرميد الأحمر الذي كان يراه في تلك اللحظة اصفر فاقعا مما شرب من أشعة ضبها عليه القمر وأحس بانقباض لم يدر سببه ولا حاول أن يفكر فيه" (2).

ومن خلال النص نحس بوجود الفارق الطبقي بين سكان الريف، بين الكوخ الذي يبدو أسود من بعيد، وبين الدار ذات الغرف الكثيرة، الفارق الذي أحس

---

1) د / عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 205.

2) ريح الجنوب، ص: 105.

به رابح بصورة عفوية ، فشمر بانقباض في نفسه . الا أن عبد الحميد بن هدوقة لم يبلور هذا الشعور ، ويحوله الى صراع طبقي بين الفئات المستغلة والمستغلة في الريف بانهائه النص بجملة " ولا حاول أن يفكر فيه " وينقل الكاتب صورا أخرى من واقع الريف في ظل الاقطاع حيث يحوّل الملاكون الكبار مياه القرية الى أراضيهم على حساب الآخرين ، ويعرقلون مشاريع القرية حتى يظل السكان في حاجة ماسة الى العمل عندهم . ويمضي ابن هدوقة في تعرية الاقطاع من خلال شخصية "عابد بن القاضي " الذي كان على استعداد للتضحية بكل شئ بغية تحقيق مأربه ، وضمان ملكيته ، وينطلق كعادته دائما من عهد الثورة حيث دفع " عابد بن القاضي "بابنته " زليخة " وابن له الى الثورة حتى يضمن النجاة لنفسه ، والحفاظ على املاكه . وبعد الاستقلال يحاول جاهدا مصاهرة شيخ البلدية " مالك " بواسطة ابنته "نفيسة " حتى يحمي ارزاقه من خطر التأميم ، ويصور الاقطاعي في مواضع اخرى متسترا وراء الدين لتمويه وخداع الناس يقول : " لم يجب بوغرارة بكلمة . ان علم الرجل بما يجرى في الريف جعله مشدوها ثم ان ابن الصخرى كأي معمر آخر . . . امر محير انه يعرف الرجل لقد شارك بأمواله في حرب التحرير وشارك بولدين احدهما قتل في الجبل والثاني مازال على قيد الحياة . كيف يمكن اذن أن يكون كالمعمرين وهو يقرأ القرآن كل عشية في الجامع ويصلي هو ليس كالمعمرين ، انما غني . . . هو غني "(1) .

وتحدث عبد الحميد بن هدوقة في توظيفه للاقطاع في فترة ما بعد الاستقلال عن الوسائل التي يتشبث بها الملاكون لتثبيت وجودهم في المجتمع ومحاولة التغلغل في أجهزة الدولة . حيث يحاول "عابد بن القاضي " في ريح الجنوب التقرب من " مالك" الوطني النقي من أجل حفظ ممتلكاته ، وينصب ابن الصخري ابنه كاتبا عاما للبلدية في رواية " نهاية الأمس "، بغية تجميد مشاريع

---

1) نهاية الأمس ، ص : 111 .

البلدية التي تكون في صالح الشعب ، ويكشف بواسطة هذا التحالف مختلف الاقنعة التي يتستر وراءها الاقطاع ، ويفضحه من حيث " انتقاله من ملكية مفضوحة الى ملكية مغلفة بالمسؤلية ومحفوظة بالادارة فصار المسؤولون عن القطاع العام يتصرفون فيه بحرية وكأنه خاص "(1) . ويرى ابن هدوقة أن الاقطاعي ليس مجرد مالك للاراضي الواسعة ، ووسائل الانتاج ، بل الملكية عنده تتسع لتشمل اجراءه وخدمه ونساءه أيضا . "فخيرة" ، و" نفيسة " و " زليخة " و " رابح " وامه ليسوا الا أدوات في يده يشغلها كما يشاء ، ويخضعهما جميعا لمصالحه .

وبعد استعراض الكاتب لصور كثيرة من الريف الجزائري في ظل الاقطاع يجوز لنا أن نتساءل هل استطاع ابن هدوقة أن يعكس واقع الريف . وكيف عكسه ؟ وللاجابة عن السؤالين تجدر الاشارة الى أن الكاتب في كثير من الاحيان كان يقوم بعملية تصوير تكاد تكون فوتوغرافية ، فعدسته كانت تلتقط كل شيء ، دون انتقاء ، وكثيرا ما كان يغرق في تفاصيل و جزئيات لا تساهم في تطوير الحدث ، ولا في اثراء الشخصية بل تضعف النفس الروائي المتواصل في كثير من الاحيان بالرغم من أن الواقعية التي يحاول أن يبدع في اطارها تبحث عن الحدث البسيط الدال الذي يضع يد الكاتب على الجوهري من الاشياء ، كأن ينقلنا الى المقبرة مع " نفيسة " وأمها ، والعجوز " رحمة " ، ويطيل بنا المكوث هناك ، ويسمعنا ما تقصه العجوز " رحمة " على لسان زوجها الميت من مدة ، ثم يرينا منظر حمارين بالمقبرة (2) ، وهكذا مع تفاصيل كثيرة من هذا النوع . ونحن نتساءل ما دلالة هذه الجزئيات التي كثيرا ما كانت على حساب أحداث جوهرية في الرواية ؟! ...

---

1) عبد الرحمن مخلوفي ، الامس الذي لم ينته في رواية نهاية الامس ، آمال ، عدد 33 ماي ، جوان ، 1976 ، ص: 125 .
2) ريح الجنوب ، ص: 22 ، 23 .

وبالرغم من كون الكاتب يتخذ من الاقطاع محركا لكلتا روايتيه " ريح الجنوب" و" نهاية الأمس " الا انه يتجنب كل توتر أو صراع ، ويتحاشى اقامة التصادم بين شخصياته حتى في حالة تعارض مصالحهما فمالك المناضل الوطني الذي كان يحلم بالاصلاح الزراعي منذ الثورة الوطنية يكتشف كل ألاعيب " عابد بن القاضي " الاقطاعي ،لكن الكاتب يتجنب اقامة أي تصادم بينهما ،بل حرص على احترام مشاعره في حالة تطبيق الاصلاح الزراعي الذي كثر الحديث عنه يقول الكاتب" وخصوصا أنه لم يكن يتصور أن الاصلاح الزراعي عملية يراد بها الانتقام من بعض الناس ،وانما هو شيئ آخر لا يتصل بانتقام ولا حقد ولا تمييز بين شخص وشخص كان يتصوره حلا وحيدا لمشاكل الجوع والفروق الطبقية التي لا تخدم مصلحة الفقير ولا الملاّك "(1). ويكشف النص عن محاولة تجنب الكاتب لاقامة صراع بين شخصياته ،ففي نصّ سابق لاحظ رابح راعي عابد ابن القاضي الفارق بين كوخ امه ،ودار عابد بن القاضي ،وجمل ابن هدوقة الملاحظة لا شعورية ،ودون تفكير من رابح (2)،وربما كان ذلك مقبولا من شخصية "رابح " الأمي الذي لم يغادر القرية ، ولم يع بعد واقعه وانتماءه الطبقي ،لكن كيف نقبل ذلك من مالك المناضل الذي كان يحلم بالاصلاح الزراعي من أيام الثورة التحريرية ،ثم وهو شيخ بلدية يطلع بنفسه على مشاكل وأحوال الناس . والنص نفسه يكشف عن اهتزاز في رؤى الكاتب ، وعدم وضوح في مواقفه : فهو يرى من جهة ان الاصلاح الزراعي لا يراد به التمييز بين شخص وشخص آخر ،ويرى من جهة ثانية أنه الحل الوحيد لمشاكل الجوع والفقر، والفروق الطبقية ،والاغرب من ذلك أن ينهي النص بقوله ان الفروق الطبقية لا تخدم مصلحة الفقير ولا الملاك !!!...

---

1) ريح الجنوب ، ص : 206 .

2) انظر الصفحة 40من الفصل نفسه .

وتظهر عدم واقعية الاحداث في محاولات " عابد بن القاضي " الكثيرة من أجل تزويج ابنته " نفيسة " بشيخ البلدية . والقارئ لا يقتنع بموقف الكاتب لانه يقدم نفيسة شابة جميلة متعلمة ، ويظهر ضعف هذا الموقف أكثر من خلال ما اتسمت به شخصية " مالك " من سلبية (1) ولا مبالاة حيال هذا الزواج ، وما اشير حوله من اشاعات (2).

وقدم عبد الحميد بن هدوقة الريف ساكنا جامدا ، وقدم سكانه بنفس الطريقة تقريبا ، وحتى المقهى الذي وظفه في كلتا الروايتين لم يلعب دوره في تحريك الاحداث ، واعطاء صورة نابضة متحركة عن واقع القرية . وبالرغم من اعتراف الكاتب بخطر الاقطاع ، وكونه وراء كثير من المشاكل التي يعيشها الريف الجزائري الا أنه لم يستطع ان يبرز جوهر التناقضات الاجتماعية التي يعيشها الريفيون في حياتهم اليومية لانه كان يصف السطح دون التغلغل في اعماق المجتمع ، ويفتقر الى التحليل الذي يمكنه من اكتشاف حقيقة الصراع الدائر بين مختلف القوى المحركة للواقع .

وبالاضافة الى ما تقدم نلاحظ عدم وضوح ، وضبابية تكتنف رؤية الكاتب مما يفسر تذبذب الكاتب ، وعدم وضوح موقفه من الاقطاع . وانعكست هذه الضبابية بطبيعة الحال على احداث الرواية ، وشخوصها التي اعتراها الكثير من الاهتزاز . واثرت على نهاية العمل ، فبعدما جسد في شخصية "عابد بن القاضي " فكرة الاقطاع ، ورمز به للقوى المعرقلة للتطور في رواية " ريح الجنوب" نراه في نهاية الرواية يضرب .أي عابد بن القاضي من طرف " رابح " الراعي رمز

---

1) د / محمد مصايف ، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام الدار العربية للكتاب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1983 ، ص : 197 .

2) أحمد الهواري ، اهتزاز الرؤية الواقعية في ريح الجنوب ، الثقافة ، ص : 50 السنة 2 عدد 10 ، 1972 .

الطبقة المسحوقة المستغلة بعدما التجأت "يه نفيسة هروبا من ضغط والدها وجبروته ،لكن المفاجأة التي تذهل القارئ هي تعاطف نفيسة مع والدها عابد بن القاضي ، وتراجعها عن موقفها حيث تقرر العودة الى البيت بعد أن غادرته من قبل .

ويضع عبد الحميد بن هدوقة في مواجهة الاقطاع افرادا قلائل ، وهذا بالرغم مما في الريف من مستغلين . ففي رواية " ريح الجنوب " لا نجد غير مالك المناضل القديم ، يتفطن لخبث " عابد بن القاضي " ويعرف دسائسه ، وحتى بعد أن عرفه يظل بعيدا عن حلبة الصراع . وفي رواية " نهاية الأمس" يضع المعلم " البشير " الذي جاء الى القرية كي يعلم الناس ، ويعرفهم بواقعهم المتخلف ، ولو تطلب الأمر البدء معهم من البداية (1) ، وتصل المواجهة الى حد التصادم بين ابن الصخرى والمعلم البشير . لكن الكاتب تجاهل القوى الحية في القرية الواقعة تحت وطأة الاقطاع ، ولم يعر القاعدة التي هي أساس كل تغيير أية أهمية . واهماله هذا حال بينه وبين الفهم الصحيح العميق لتناقضات المجتمع الريفي . وتنتهي الرواية ولا نشعر بصدى أفكار المعلم البشير تتردد في ارجاء القرية ، ولا بنمو الوعي عند القرويين ، وهذا بطبيعة الحال راجع الى انعدام التحليل عند الكاتب ، واقتصاره على رسم صور سطحية لقشرة الواقع دون التغلغل في اعماقه .

- 3 -

وعبد الحميد بن هدوقة الذي عودنا بحديثه عن الريف حيث وظفه اطارا

---

1) نهاية الأمس ، ص : 47 .

مكانيا لمطيه الاولين ريح الجنوب ونهاية الأمس ، ينتقل هذه المرّة بعدسته الى المدينة ، ويتخذها اطارا مكانيا لروايته الأخيرة " بان الصبح "، وأول ما نلاحظه هو الحركة الحثيثة التي يشهدها مجتمع المدينة خلافا لما عودنا اياه من نقل صور عن المجتمع الريفي الذي تقل فيه الحركة . وقد حاول نقل صور للمجتمع الحضري بكل تناقضاته الاجتماعية[1]، وبكل الاضطرابات والهزات التي فجرتها عمليات الهجرة المتواصلة من الريف الى المدينة . وهذا من خلال اسرة تتحرك ضمن وسط برجوازي ، وتحتفظ في الوقت نفسه بكثير من الخصائص الاقطاعية التي تكشف عن منبتها الريفي وبواسطة هذه الأسرة التى يسعى افرادها ليكونوا من الطبقة البرجوازية بواسطة التحالف معها يكشف ابن‌هدوقة عن عيوب هذه الطبقة مبرزا الصراعات التي تعيشها من الداخل ، والاضطرابات التي تثقل كاهلها من جهة ، وكفاح الطبقات الأخرى من أجل تغيير واقعها من جهة ثانية ، وتناول في هذه الرواية مرحلة زمنية مهمة من التاريخ الجزائري المعاصر ،هي مرحلة التحولات الكبرى التي زكتها مناقشات " الميثاق الوطني ". ومن خلال مناقشات الميثاق فتح الكاتب المجال لبعض الشرائح الاجتماعية للتعبير عن نفسها ، والادلاء برأيها يقول الكاتب على لسان امرأة تدعى ذهبية من المشاركين في مناقشات الميثاق الوطني :

" نسيت بسرعة . كنا منذ حين مع بعض أنا ذهبية الدلاكة أنسيت الحمام؟

- آهذى أنت! لم اعرفك ، اقسم لك . أتيت الى الاجتماع انت كذلك ؟
- ولم لا ؟ ألست امرأة ؟ جئت وأجيء وسترين كيف أفضحهم .
- من تفضحين ؟
- البرجوازيين والبرجوازيات !

---

1) بان الصبح ، ص : 133 .

- أي برجوازيات ؟

- باية السمينة ، امرأة القهواجي ، امرأة عمك ... اتظنين اشفق عليهن ؟

لا ، لن اشفق على أحد هذا يوم الفقراء امثالنا "(1). وعن طريق هذا الحوار أسمعنا الكاتب صوت احدى المشاركات في مناقشات الميثاق الوطني اتيحت لها الفرصة للتعبير عن رأيها وضم صوتها الى اصوات الفقراء الذين ينتمون الى الطبقة نفسها التي تنتمي اليها . والحوار بسيط ، وجرئ يعكس بصدق تطلعات هذه الطبقة ، وتوقها الى حياة أفضل . وأسرة الشيخ "علاوة" التى سلط الكاتب عليها الضوء ، ونقل صورا كثيرة عنها ، وعن علاقات افرادها بعضهم ببعض ما هي الا عينة من المجتمع الجزائري نفسه في ظل علاقات انتاجية جديدة : اسرة تهاجر من القرية الى العاصمة ، تشترى فيلا ، ثم تحولها بسبب النمو الديمغرافي الى بناية تتغير طوابقها كلما تكاثر عدد افراد الأسرة. ثم التناقضات الحادة التي تعيشها هذه الأسرة ذات المنبت الاقطاعي وطموحها الكبير في الثراء ، و ويكشف الكاتب من خلال هذه الأسرة عن نوع آخر من الصراع ، صراع بين جيلين مختلفين تمام الاختلاف حيث يمثل الشيخ علاوة الجيل الأول المحافظ ذا الثقافة الكلاسيكية ، والافكار الجامدة والرافض لكل تطور أو تغيير ، وتحمل شخصيته الكثير من التناقضات . ويضع ابن هدوقة في المقابل جيلا آخر فتحت له مجالات الحياة المختلفة ، وتشرب منابع الثقافة المتنوعة ، وعاش فترة زمنية مغايرة ، فكان الصراع على أشده بين أفراد أسرة الشيخ علاوة ، بين دليلة المتمردة الثائرة ووالدها ، وبينها وبين نفسها ، وبين دليلة وأخيها عمر الذي كان في كثير من الاحيان امتدادا لابيه ، وبينها وبين اختها زبيدة . والكاتب يدين الشيخ علاوة ادانة واضحة ، ويكشف

---

1) بان الصبح ، ص : 127 .

عن كثير من التناقض الذي يعيشه عن طريق ابنه " رضا " وابنته دليلة، ويفضح كذلك ابنه عمر، مدير المؤسسة التي سرق أموالها. ويتم كشفه بواسطة العمال الذين اكتشفوا ألا عيبه يقول عبد الحميد بن هدوقة: "كانت الساعة حوالي التاسعة من مساء الثلاثاء كل افراد اسرة الشيخ علاوة بالصالون عمر كان يتقد عضبا. أقسم بكل الايمان أن ينتقم من الفرع النقابي للمؤسسة التي كان يديرها مهما طال الزمن. لقد نجح اضراب العمال، وصدر قرار من الوزير بايقافه عن العمل كمدير للمؤسسة" (1). وبالرغم من أن الكاتب في هذا النص لم يعط الحادثة الاهمية التي تستحقها، واكتفى بالاشارة الى الفرع النقابي الذي ساعد العمال، وتسبب في ايقاف المدير عن العمل، الا أنها لفتة طيبة من الكاتب وهو يتناول فترة مناقشات الميثاق الوطني. ونلاحظ أن الكاتب يدير احداث رواية" بان الصبح في الوسط البرجوازي الذي يعيش الكثير من التناقضات الايديولوجية، والمشاكل الاجتماعية، الا أن موقفه من هذه الشريحة الاجتماعية واضح حيث يتناولها بالنقد والتعرية والكشف عن نقائصها (2).

- 4 -

لقد انصب اهتمام ابن هدوقة وهو يصور الواقع الجزائري في المرحلة الوطنية الاجتماعية على عدد من المشاكل الاجتماعية الناجمة عن اوضاع اقتصادية وسياسية، معينة، ونقل الكثير من اللوحات الحية التي تجسد هذا التخلف.

ونالت قضية المرأة مكانة كبيرة من انتاجه، حيث كانت مفجر " ريح الجنوب " الى جانب قضية الأرض، وحركت دراما رواية " بان الصبح " أيضا والسؤال الذي نطرحه هنا هو كيف وظف قضية المرأة في انتاجه ؟

لقد كشفت رواية ريح الجنوب، شيئا مهما هو أن المرأة، شأن الفئات

---

1) بان الصبح، ص: 322.

- Dans le cercle de la famille, El-Moudjahid, 6 fevrier 1982, Alger.

الأخرى من المجتمع ، تخضع لنظام العلاقات الانتاجية القائم . فالمرأة في ذهن عابد بن القاضي لا تختلف عن الاشياء الاخرى التي يملكها ، ولا عن الاشخاص الآخرين الذين يستخدمهم عنده ، فلا خيرة ، ولا نفيسة ، ولا زليخة من قبل تملك حرية التصرف في نفسها ، ومن ثم كان مصيرهن بيد عابد بن القاضي ، ولو أدى ذلك الى المتاجرة بهن . وقد كشف ابن هدوقة عن الكثير من الحيل التي التجأ اليها عابد بن القاضي بغية تحقيق مصالحه مستخدما في ذلك المرأة .

فاثناء الثورة الوطنية أراد مصاهرة مالك المناضل حتى يضمن الأمن لنفسه ويبعد الخطر عنها ، وكانت الوسيلة في ذلك ابنته زليخة ، وفي المرحلة الوطنية الاجتماعية حاول مرةً اخرى مصاهرة مالك بعد أن عين شيخا للبلدية . وهذه المرة قدم نفيسة بعدما لقيت اختها حتفها اثر حادث تفجير قطار ليحمي املاكه من خطر التأميم في حالة تطبيق الاصلاح الزراعي . وفي كلتا الحالتين لم يكن يستشير أحدا ولا يأخذ برأي أحد يقول على لسان "عابد بن القاضي" " ترفض ؟ ذلك لا يكون أبدا . ان قراري ينفذ مهما كان الأمر . واضاف قائلا وهو خارج لأداء صلاة العشاء اذا كنت لا استطيع التصرف حتى في ابنتي فلماذا أحيا بين الناس اذن ؟" (1) ، وابن هدوقة وهو ينقل هذه الصور عن وضعية المرأة في الريف الجزائري ، لم يغفل صيحات التمرد التي كانت تنبعث وسط هذا الجوّ الخانق . فنفيسة الفتاة المتعلمة ، ترفض مشروع والدها ، وتتمرد عليه ، وترفض نمط الحياة التي تحياها في بيتها ، وترفض أيضا أن تكون نسخة من أمها ، ومن ثم تقرر الفرار ، والعودة الى العاصمة لمواصلة دراستها . وبالرغم من كون الكاتب يحول تذمر نفيسة الى نوع من السخط الرومانسي الذاتي (2) .

---

1) ريح الجنوب ، ص : 92 . /

2) محمد مصايف ، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام ، ص : 193 .

عندما يعيدها في النهاية الى بيت عابد بن القاضي ، ويوقف خط سيرها . الا أن هذا يظل مقبولا بالنسبة الى الفترة الزمنيه التي كتبت فيها الرواية .

وتابع الكاتب القضية نفسها في رواية "بان الصبح" فاذا كانت نفيسة في "رواية ريح الجنوب" طالبة لم تتجاوز التعليم الثانوي ، فبطلات "بان الصبح" جامعيات ، ويسكن المدينة ، ومن ثم كان تمردهن أعنف ، فدليلة تثور بعنف وتطالب بالمساواة مع الرجل ، وبحقها الكامل في الحياة . ومن هنا تدخل في الصراع مع اسرتها ، ومع الوسط الخارجي أيضا ، وبقدر ما كانت ثورتها عنيفة جارفة بقدر ما كان رد فعل المجتمع عنيفا معها . فسخطها شمل كل شيء ، كانت ترى أن المجتمع الذي تعيش فيه مجتمع رجال ، ولا مكانة فيه للمرأة ، وحاولت عن طريق الخمر والجنس والتحدي أن تجد لها مكانا وسط هذا المجتمع يقول على لسان دليلة " طبعا عيب ! امرأة وفي مجتمع الرجال كما قلت . . . ! انظري كم عدد النساء بالشارع وكم عدد الرجال "(1) وقد أثرت الفوضى والعنف اللذان اتسمت بهما تصرفات دليلة على مواقفها ، وأحدثا انفصاما في شخصيتها ، وقلقا في نفسها تقول : " أنا أحيا بحياتين ، أو اذا شئت أحيا بشخصيتين ، شخصية من تصميم أهلي وأبي على الخصوص ، وشخصية من تصميمي أنا . ولست سعيدة لا بالاولى ولا بالثانية لست أجد نفسي لا في هذه ولا في تلك "(2) ومن خلال النصين يتضح موقف دليلة المتطرف الى حد كبير ، ونظرتها الاحادية الجانب الى الواقع فهي تعتبر الرجل العدو الاول بالنسبة للمرأة ، والمتسبب في مشاكلها .

ونقل الكاتب صورا أخرى لمشكل المرأة . واذا كان الطريق الذي وضع فيه دليلة مسدودا لم يصل بها الى هدفها ، ولم يحررها حقيقة كما كانت تظن ، فانه

---

1) بان الصبح ، ص : 88 .

2) المرجع نفسه ، ص: 192 .

وضع في المقابل شخصية أخرى لعبت دورا كبيرا في دفع أحداث الرواية ، وهي نصيرة صوناكوم . واذا كانت دليلة من أسرة برجوازية تركت بصماتها على تصرفاتها ومطالبها ،فان نصيرة من وسط فقير ،ومن ثم لم تكن ثورتها على المجتمع ككل ، ولا على الرجل بشكل خاص ،فهي تشعر بماتشعر به الفئات المسحوقة الأخرى ، وحريتها من حرية هؤلاء ،وعدوهم عدو واحد كما جاء على لسانها تقول : "ليس الرجال كلهم سواء . أعداء المرأة في أي مجتمع هم أعداء الطبقات الكادحة" (1) .

ويترك الكاتب بطلاته في رواية " بان الصبح " يتحركن بحرية ، ويخضن التجارب الواحدة تلو الأخرى بغية فهم الكثير من التناقضات الاجتماعية التي يعيشها المجتمع . وقد شاهدنا دليلة في ثوراتها المنيفة مع كل المحيط الى أن تمكنت من كشف نفاق اسرتها التي كانت تطلق عليها " الشكنة " ،وغادرتها غير آسفة عليها ، وهو كشف لاخلاقيات الطبقة البرجوازية أيضا ،وادانة لتصرفاتها ثم التحقت في النهاية بنصيرة صوناكوم (2) .

- 5 -

لم يقتصر اهتمام الكاتب على قضية المرأة فحسب ،بل تتبع قضايا أخرى لا تقل اهمية عنها ،حيث نقل لوحات كثيرة ، تجسد مشكل الجوع ،وآثاره على فئات عريضة من المجتمع . وقد ربط الكاتب مشكل الجوع في " ريح الجنوب " بنظام الاقطاع الذي أوجد فئتين داخل المجتمع ،تعيش الواحدة على حساب الأخرى . فهناك الملاكون الكبار الذين يتمتعون بكثير من المزايا الاجتماعية، وهناك

---

1) بان الصبح ،ص : 181 .
2) المرجع نفسه ،ص : 330 .

الرعاة، والخماسة ، والعمال الموسميون ، والعاطلون ، وغيرهم ممن لا يحصلون على قوتهم الا بمشقة يقول على لسان " رابح " اقذر ما معنى القدر ؟ تعني أنني ذو رائحة كريهة أو أن أثوابي وسخة أو أني فقير لست مساويا لها ؟ اثوابي ككل الرعاة اذا كانت بها رائحة فهي رائحة الغنم ، والغنم لها رائحة وهي لأبيها ليست غنمي أنا لا أنال منها الا عذاب القر والحر ، وهذه الرائحة الكريهة التي جعلتها تقول لي " الراعي القذر " لاشك انها لا تعني الرائحة الكريهة انما بدل أن تقول " أيها الراعي الفقير " قالت أيها الراعي القذر ، فهمت الآن ما تعني ، تعني فقري ما في ذلك شك ، لأنها لم تقل أيها الرجل قالت الراعي كأن الراعي وحده يتصف بالقذارة . لاشك أنها تتصور الراعي كحيوان ككلب أو ذئب أو ضبع لا كرجل ".(1)

ومن خلال اللوحات التي ينقلها الكاتب عن مشكل الجوع بالريف الجزائري ، وانعكاساته على حياة الناس اليومية ينقد الهياكل السياسية القائمة بالقرى ، وتهاونها في أداء واجبها بل حمل البلدية مسؤولية كل الامراض الاجتماعية المنتشرة في الريف ، فيراها هي السبب في مشكل البطالة والأمية ، وهي من وراء كل التخلف الذي تعيشه القرية (2).

ونلاحظ أن الصور التي سجلها عن الواقع الريفي ، وجسد فيها مشكل الجوع في رواية " نهاية الأمس " ، قد ربطها بالاستغلال الذي تمارسه فئة ضد فئات كثيرة من المجتمع ، حيث يتمتع الملاكون الكبار بالخيرات التي يعرق ويكد الفقراء من أجل جمعها يقول على لسان أحد القرويين : " ماذا يعمل هل هو في حاجة الى العمل ؟ انه ملاك ، هو أغنى سكان هذه الناحية...

---

1) ريح الجنوب ، ص : 127 .

2) ريح الجنوب ، ص : 80 .

الفقراء أمثالي يمطون ،وهو يجني الثمر . أرأيت ذلك الواقف الى فأسه هناك انه عامل بالبستان وحارس ،هذا عمله طوال السنة ، حتى أكله لا يستطيع تناوله مع أهله . ولو سألته كم يتقاضى عن عمله هذا وسجنه الدائم ،لضحكت مرارة على أكثر تقدير يتقاضى قنطارا من البرّ أي مائة دينار أو أقل في الشهر"(1).

وعالج الكاتب المشكل نفسه في روايته الاخيرة "بان الصبح" وان كان قد تناوله في مجتمع المدينة ،وفي ظل علاقات انتاجية جديدة ، حيث كانت الصور تعبر ،ولو بشكل بسيط ،عن صراع الطبقة الفقيرة مع البرجوازية المستغلة لها ، تلك الطبقة الآخذة في التصاعد على أكتاف الطبقة الفقيرة ،والمرتبطة بالاقطاع كخلفية مادية .

واعطت رواية "بان الصبح" نماذج كثيرة من الطبقة الشعبية ، كخادمة "كريهو" البرجوازى الذي كان يناديها باسم "فاطمة" بالرغم من كونها تسمى "عويشة" ليشعرها دوما بالفارق الطبقي بينها وبينه . كذلك الصورة التي جسد فيها كفاح عاملة الحمام "ذهبية" الدلاكة ،المسحوقة من طرف صاحبته "باية السمينة". ويمكننا أخيرا أن ندرج أعمال الكاتب الثلاثة التي سبق الحديث عنها ضمن انتاج الواقعية النقدية ،على أساس المواضيع التي تناولها ،والطريقة التي عكس بها واقع الريف والمدينة ،كذلك من خلال مواقفه من كثير من القضايا المطروحة ،هذه المواقف التي تفتقر الى الوضوح أحيانا . ولم يكن الكاتب يملك الاداة التي يتسلح بها الكاتب الواقعي وهي التحليل الذي يمكن الكاتب من الغوص في أعماق الواقع ،وفهم طبيعته ،وعدم الاكتفاء بما يظهر على السطح ،وهذا تسبب في اهتزاز الرؤية في كثير من الاحيان عند عبد الحميد بن هدوقة وعامل آخر جعل اعماله تندرج في اطار الواقعية النقدية هو اهتمامه

---

1) نهاية الأمس ، ص : 109 .

بالفرد ، وتضخيمه في بعض الاحيان على حساب الجماعة التي يتواجد معها كما فعل مثلا في رواية " نهاية الأمس " مع المعلم " البشير " ، وأخيرا اقتصار الكاتب على تصوير الواقع ، والمشاكل الموجودة فيه والفئات المتصارعة دون أن يحمل رؤيا مستقبلية في ذلك .

لا أحد ينكر العلاقة المتينة التي تربط بين مادة العمل الأدبي وشكله واذا كان النقد قد أهمل هذه الصلة ،أو قسم الأدب الى هذين الجزئين المرتبطين ارتباطا وثيقا ،فان النقد الحديث والواقعي بشكل خاص ،أخذ على عاتقه توضيح هذه الصلة ،وذلك بتعميق النظرة الى الأدب ككل متكامل .لأن الواقعية لا تتمثل فقط في اختيار الموضوع وانما في الشكل الذي يصب فيه هذا الموضوع ،وكذلك في الاسلوب الذي يعبر به الكاتب عن هذا الموضوع (1) . فشكل العمل الأدبي لا يتحدد الا من خلال النظر الى مضمونه ،ومضمونه لا تظهر جدته وأصالته الا عن طريق بحث الشكل الذي يغتقه ،فتتعمق الصلة بذلك بين شكل العمل الأدبي ومضمونه الى حد خلق علاقة جدلية بينهما والأدب على هذا الأساس بناء تتكامل صورته ومادته بعملية باطنة فيه هي كماله و حقيقته (2) . وهكذا يتعين علينا ،ونحن نتتبع انتاج عبد الحميد بن هدوقة الروائي أن نتساءل عن الادوات الفنية التي وظفها وهو يسجل الواقع الجزائري في ازمنته الثلاثة؟ وهل كانت الأدوات الموظفة في أعماله في مستوى الاحداث التي حاول رصدها في كل تجربة روائية ؟. واذا عرفنا أن نجاح العمل الروائي يتوقف على مدى قدرة الروائي على التنسيق بين مختلف الاحداث وتوزيعها توزيعا يتناسب وطبيعة هذه الاحداث ،واهميتها في العمل الروائي وعلى اختيار الأدوات الفنية من لغة وحوار وصور لحمل هذا المضمون أو ذاك .

1) محمود أمين العالم ،وعبد العظيم أنيس ،في الثقافة المصرية ،منشورات دار الفكر الجديد ،الطبقة الاولى ،أيار سنة 1955 ،ص : 31 .
2) المرجع نفسه ، ص : 51 .

وان المضمون مهما كان جيدا وجديدا ،اذا لم يستطع القاص أن يفتق به اشكالا تعبيرية مناسبة سيظل يشكو القصور والفشل ،والعكس يصح في حالة ما اذا وضع القاص نصب عينيه شكلا ،وصب الاحداث فيه دون أن يراعي مدى صلاحيته لها . ومن ثم يجب مراعاة الانسجام بين ما يطرح الكاتب من قضايا تشكل محور العمل الادبي ،وما يوظف لها من أدوات تساهم في معالجتها ،وتقريبها من ذهن القارئ . والشخصية تلعب دوراهاما في العمل الأدبي ،فبها يكتسب ديناميكية وقوة. ولو تتبعنا أعمال عبد الحميد بن هدوقة لا ستوقفتنا كثير من شخصياته التي استقاها من واقع الحياة اليومية ،ومن الأوساط الريفية بصفة خاصة،بكل ما تتميز به هذه الأوساط من بساطة وعفوية . ويعمد ابن هدوقة عادة الى تقديم شخصياته بنفسه ، ولا يترك لها المجال لتقديم نفسها من خلال ادوار تقوم بها ،أو من خلال حوادث تتصل بها ،حيث يطالعنا منذ الصفحات الأولى من عمله الروائي بالشخصيات الواحدة بعد الأخرى ،حسب تسلسلها في الرواية بل يأتي التقديم أيضا عن طريق السرد ،والاسلوب التقريري المباشر بعيدا عن كل ما من شأنه أن يحرك احساس القارئ ،ويولد فيه الرغبة في متابعة القراءة ويقف الكاتب دوما خلف شخصياته ،ويحركها كيفما شاء ،ويملي عليها ما يريد ، وكأنها دمى مربوطة بخيط يحركها بواسطته في أي اتجاه يريده لها .

ولا يكتفي الكاتب بتقديم الشخصية جاهزة ،حيث يخبر القارئ بلون بشرتها ، وطريقة لباسها ،ونوع العلاقات التي تربطها بغيرها فحسب،بل يتدخل حتى في ثنايا الحوار بين شخصياته مما يموه أحداث الرواية ،ويعوق السير الطبيعي لها . وقد رسم كثيرا من شخصياته بطريقة جامدة خالية من كل ديناميكية وحيوية،

مما يتنافى وحركة الواقع نفسه وديناميكيته . وعزل هذه الشخصيات عن واقعها الطبيعي الذي تتحرك فيه يقول عابد بن العاض : " هذه زليخة ابنتي التي تقرأ في الجزائر ، أنت لا تعرفها يا مالك ! " فتصافح الفتيان ، وكانت نفيسة حينئذ في حوالى العاشرة من العمر تقيم بالجزائر لدى خالتها ، ولاحظ مالك ما تتحلى به زليخة من جمال وحيوية ولاحظت هي ما يبدو على مالك من فتوة وذكاء . ولاحظ ابن القاض ما يجرى بينهما من تبادل نظرات مقتبطة فسر غاية السرور وأدرك ان حيلته نجحت جزئيا "(1) والنص كما نلاحظ في غاية الجمود والرتابة حيث حشر الكاتب نفسه بين شخصيات الرواية الثلاث مالك زليخة ، ابن القاض ، ولم يترك لها المجال للتعبير عن نفسها بحرية ، بالاضافة الى استعماله الطريقة التقليدية في تقديم الشخصية الطريقة التي تجعل من الشخصية اداة في يد الكاتب يحركها كما يشاء : " لاحظ مالك ما تتحلى به زليخة ، ولاحظت هي ما يبدو على مالك من فتوة ، ولاحظ ابن القاضي ما يجري بينهما ." وهذا بطبيعة الحال يضعف النفس الروائي في العمل الادبي. وبالرغم من أن الكاتب وظف في كثير من الاحيان الريف الجزائري أرضية للعديد من قصصه ورواياته : الريف الذي احتضن أعنف الثورات ضد الاستغلال بكل أشكاله ، الا أنه وهو يسلط عليه أضواءه لم يتعمق في معالجته ، ويترصد عن قرب حركته ، ويحلل شرائحه الاجتماعية وهذه السطحية في المعالجة انعكست بطبيعة الحال على مختلف شخصياته الروائية والقارئ لرواية " ريح الجنوب " التي عدها بعض الدارسين تنبؤا بالثورة الزراعية قبل الشروع في كتابة ميثاقها(2)، يلاحظ سلامة الفكرة التي لم تكن الادوات التي وظفها في مستواها .

---

1) ريح الجنوب ، ص : 50 ، 51 .

2) دراسة للاعرج واسيني، الطليعة ، العدد 3،4 ، عدد خاص ، آب ، أغسطس 1981 ، لبنان .

فتركيب الشخصيات يعاني كثيرا من القصور ،اذ لم يستطع الكاتب جعلها في مستوى أحداث الرواية ،وعجز عن مسايرة تطورها ،فانتهت الرواية ،والقارئ يتساءل عن مصير شخصياتها ،وهو غير مقتنع بالكيفية التي رسمت بها .

- 2 -

لو تتبعنا مسار بعض الشخصيات التي وظفها لتقوم بادوار ذات اهمية في الرواية لوجدناها ضعيفة كثيرا بالنسبة الى هذه الادوار . فنفيسة وهي بطلة رواية " ريح الجنوب " يقدمها الكاتب جاهزة الى القراء منذ الصفحات الاولى من الرواية ،حيث يحدد أبعادها النفسية والاجتماعية ،والفيزيولوجية أيضا دون منحها حق الحركة والتفكير ككائن ينمو وسط مجتمع تتصارع فيه القيم والعادات ،وبتحريكها من طرف الكاتب فقدت هذه الشخصية كيانها المستقل ،وضعفت حرارة الحياة فيها ،وربما يعود السبب في هذا الى طريقة السرد التى اعتمدها ابن هدوقه في معالجته الفنية لاحداث رواية " ريح الجنوب " هذه الطريقة التي تحتاج الى مهارة فنية وامتلاك صحيح لتكنيك الرواية ،والا قادت الكاتب الى مزالق فنية ، لأن من بين خصائصها التتبع الزماني والمكاني للاحداث ،ونقلها نقل متتاليا ،وهذا يتطلب مهارة فنية، والماما بكل جزئيات العمل قصد ابعاد الملل الذي قد يخلقه اسلوب السرد في نقل الاحداث وما قلناه عن نفيسة ،احدى شخصيات رواية " ريح الجنوب " المهمة يمكن أن نقوله عن " رحمة " العجوز التي رمز بها الكاتب الى ماض الجزائر ،الغني بتراثه ،والتى جمعت تاريخ الثورة الوطنية بحكم معايشتها لها . وبالرغم من توفيق الكاتب في خلق هذه الشخصية المستمدة من واقع الريف الجزائري ،والتي تميزت

بديناميكية اكسبت الرواية بعض الحيوية ، وساهمت في تحريك احداثها بمطلها الدؤوب ، وتفاعلها المستمر مع محيطها الداخلي والخارجي ، وتفجيرها لكثير من أحداث الرواية ، نقول بالرغم من هذا الدور الذي لعبته العجوز " رحمة " ، احدى شخصيات " ريح الجنوب " الا أن الكاتب أحيانا يبالغ في بعض مواقفها مستغلا حرفة الفخار التي كانت تقتات منها في خلق كثير من العوالم الرمزية ، والمتاهات الفلسفية ، هذه العوالم التي تبدو غريبة عن العجوز " رحمة " القروية الضاربة بعروقها في قلب الريف بكل ما يحمل هذا الريف من خصائص . وهذه التهويمات الفلسفية هي التي جعلت شخصية العجوز رحمة تتعثر في كثير من المواقف ، وتفقد جزء كبيرا من حيويتها التي تزخر بها في مواطن أخرى من الرواية يقول ابن هدوقة : " فهي فنانة وفنها اكسبتها اياه السنون الطويلة التي عاشتها ، وأكسبها اياه العمل المتواصل الذي لم تنقطع عنه طوال حياتها وأكسبتها اياه الوراثة ، فقد كانت أمها صانعة فخار ، ثم أكسبها اياه شغف دائم وطموح متواصل نحو الاتقان . كانت كلما شرعت في صنع آنية افرغت في انشائها جهدها ، وكل حنانها وشوقها ، ورسمت عليه كل ما يجري حولها من احداث ، وما يعتمل في نفسها من عواطف ، ورسمت ذلك خطوطا مستقيمة أو متكسرة ، متوازية أو متلاقية ومن جميع تلك الخطوط تبرز في النهاية رسوم جميلة الهندسة ، واشكال تعبر عن ذكريات واحداث لا يفهم رمزها الناس لم تكن تهتم بالناس أن يفهموا زخرفتها أو لا يفهموا فهي ليست مؤرخة انما صانعة فخار ، فخارها ان لم يذكر الناس باحداث مرت بهم على كل حال يكفيهم حاجتهم فيما يستعملونه للطعام والشراب "(1) . وبالرغم من أن النص يبدأ بسيطا يعبر عن شخصية العجوز " رحمة " وشغفها بصنع الفخار ، الا أن الكاتب يقحم في النص أشياء أخرى لا علاقة لها بما تقوم به العجوز رحمة ذات الأصل الريفي

1) ريح الجنوب ، ص : 150 .

من أدوات فخارية غاية في البساطة ،فهو تحدث عن الخطوط المستقيمة والمتكسرة ،والمتوازية ،وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن الرموز التي لا يستطيع فهمها الناس ،وهذا بطبيعة الحال يعزل الشخصية عن وسطها الطبيعي ، وشريحتها الاجتماعية ،ولا يحقق لها واقعيتها .

والحديث عن رسم شخصيات رواية " ريح الجنوب " يقودنا الى الحديث عن شخصية أخرى لا تقل أهمية عن شخصية " نفيسة " في مواجهة واقع يحمل كثيرا من التناقضات الاجتماعية . هذه الشخصية هي "مالك " عاش بالأمس الثورة الوطنية بكل أعماقه ،وساهم الى جانب الكثيرين في القضاء على شكل عنيف من أشكال الاستغلال ،وابن هدوقة يرسمه في الرواية شيخ بلدية حتى يلفت النظر لواقع الريف ،وما يعيشه من مشاكل . يؤمن مالك المناضل الوطني بأستمرارية الثورة ، وبضرورة تعميقها (1) ،ويعرف بحدسه الوطني من هم أعداء الشعب . وعلى هذا الأساس كان عابد بن القاضي مصب تفكيره ، عابد الملاك الكبير الذي في حوزته أراضي شاسعة ،يستغل سكان القرية لخدمة أملاكه مقابل أجر ضعيف ،وهو الساخط على مشروع الاصلاح الزراعي . حاول التقرب من مالك ليحمي املاكه ،وبالرغم من خلق الكاتب لهذه الشخصية التي تقف موازية لشخصية عابد بن القاضي الاقطاعي ،وجمعه للكثير من العناصر التي كان من المنتظر أن تؤهلها للدور الطلائعي في الرواية ،وتجعل منها شخصية ايجابية تدفع عجلة التطور الى الأمام الا أنه يوقف سيرها ،فتظل شخصية مالك غارقة في احلامها المثالية ،وتطلعها للمجتمع الاشتراكي (2) ،دون أن يوفر لها فرصة التصادم مع الاقطاعي عابد بن القاضي ، وامتحان ثوريتها

---

1) ريح الجنوب ،ص : 178 .

2) المرجع نفسه ، ص : 193 .

في مجابهة الاقطاع (1) .

واتصف مالك بالسلبية حتى مع اصدقائه . اذ بالرغم من صداقته لمعلم العربية " الطاهر "، واحتكاكه الشديدة ، واستماعه الى آرائه ، ووجهات نظره في كثير من القضايا التي لم يكن يعي كل ابعادها ، قلت بالرغم من ادراك مالك لكل هذا الا أنه لم يحاول مساعدته ولا تصحيح مفاهيمه . وابن هدوقة يبعد وهو مالك شيخ البلدية عن حلبة الصراع ، ويحرمه من خوض معركة ضد شكل آخر من أشكال الاستغلال ، ويفصله عن جماهير الريف ، يقدم " رابح " كبديل موضوعي له ، رابح الذي حركته عبارة " الراعي القذر " (2) ، ورسمت علامة استفهام كبيرة حول منزلته الاجتماعية ، ونلاحظ أن شخصية " رابح " كانت نامية ومتطورة ، ومتجذرة في الواقع الريفي الى حدّ كبير ، و قد نجح الكاتب في رسم ابعادها الاجتماعية والاقتصادية والنفسية أيضا ، وسمح لها بان تلعب دورا ديناميكيا خاصة في الجزء الأخير من رواية " ريح الجنوب "، وحتى التحول الذي طرأ على شخصية " رابح " بعد ما اصطدم بالواقع الاجتماعي لنفيسة ابنة عابد بن القاضي الاقطاعي ووعى واقعه الخاص ، جاء مقنعا نتيجة الطرح الطبيعي غير المفتعل للمشكلة يقول ابن هدوقة على لسان رابح : " أنا مغلق ، لا أعرف شيئا : اجهل حياتي وحياة الناس ، عشت مع الغنم فصرت واحدا منها : ما الفرق بيني وبين أي كبش؟ أنا ككبش العيد ، لا اعرف امقاد للذبح أم للسرح ، ضحكت نفيسة فحسبت الدنيا كلها تضحك ، وطردتني فظننت الأرض كلها حزينة بحزني ما أشد بلهي وغباوتي " (3) . والنص يقدم عدة تساؤلات على لسان رابح يمكن اعتبارها بداية التحول والتغيير في حياته .

---

1) احمد الهواري ، اهتزاز الرؤية الواقعية في ريح الجنوب ، مجلة الثقافة .
2) ريح الجنوب ، ص : 195 .
3) ريح الجنوب ، ص : 131 ، 132 .

وتعتبر شخصية رابح في رواية " ريح الجنوب " الشخصية الوحيدة تقريبا التي تنفرد بالصفاء والعفوية والجرأة أيضا ، حيث وقف موقفا جريئا ، وواضحا من عابد بن القاضي ، برفضه الشغل عنده كرفض صريح للاقطاع والاستغلال ، حتى وان ظل الرفض ذاتيا نابعا من شخصية رابح نفسها يقول رابح :
" صل ما شئت فالغنم لن اسرح بها اليوم ولا بعد اليوم "(1).

- 3 -

واذا استعرضنا بعض شخصيات رواية " نهاية الأمس " على أساس أنها العمل الثاني لابن هدوقة ، وجرت احداثها في الريف أيضا في مرحلة الثورة الاجتماعية فاننا نلاحظ أن الكاتب باختياره للشخصيات النمطية الجاهزة ، غير المتطورة لم يضف كثيرا الى ما قدمه من قبل . فشخوص هذه الرواية تظهر بشكل ، وتظل كذلك حتى النهاية . فابن الصخرى ليس الا صورة طبق الأصل لعابد بن القاض في " ريح الجنوب " ، من حيث الأوصاف التي وصف بها هذا النوع من الشخصيات الأنانية ، والجشع ، والانتهازية ، وحبّ التوسع والنفوذ ، واستغلال الآخرين .

والقليل الذي أضافه الى شخصية ابن الصخرى هو وضعه في حلبة الصراع مع المعلم " البشير " الشيء الذي لا نجده في شخصية "عابد بن القاض" مع الريفيين ، أو مع " مالك " شيخ البلدية في رواية ريح الجنوب. ولا نبالغ اذا قلنا أن الملاحظة نفسها تصدق على شخصية أخرى لها وزنها في رواية " نهاية الأمس " وتتمحور حولها الاحداث . هذه الشخصية هي المعلم " البشير" ويقدم ابن هدوقة المعلم جاهزا منذ الصفحات الأولى . جاء القرية لكي

---

1) ريح الجنوب ، ص : 110 .

يعلم الناس ، ويفتح اعينهم على الواقع الفاسد الذي يحيون فيه ، ويمضي الكاتب في تضخيمه الى درجة أن يصبح محور العمل كله ، فنكتشف خلفيته الاصلاحية. كان مجاهدا في صفوف الثورة ، ويواصل النضال في مرحلة الثورة الوطنية الاجتماعية ، تعلّم أمورا كثيرة أثناء الثورة الوطنية عندما نقل مريضا الى احدى مستشفيات ألمانيا . ويحس القارئ للرواية أنه أمام بطل دونكشوتي " جديد لا علاقة له بالريف الجزائري الذي يحاول مساعدته ، ومن هنا جاء ضعف الشخصية ، واهتزازها في الرواية . فالقارئ لا يحس بوجود غير وجود هذا المعلم الذي جاء الى القرية من أجل بعثها الى الوجود ، ولو تطلب الامْر البدء من الصفر ، ونحن نتساءل هنا عن دور الريفيين في عملية التغيير هذه ؟ وهل بامكان البشير القيام بثورة دون مشاركة بقية الجماهير ؟

والكاتب لا يكتفي بالغاء دور القاعدة فحسب ، بل يصفها بالجهل والتخلف ، وعدم القدرة على اختيار مستقبلها لو استشيرت في ذلك (1) وأدى هذا بطبيعة الحال الى عزل المعلم " البشير " عن الواقع ، وابعاده عن ميدان النضال الحقيقي وجعله أشبه ما يكون بالابطال الرومانسيين الذين يناضلون في مجتمعات يحسون بعزلتهم وغربتهم فيها .

أما الشخصيات النسائية في نهاية الامْس فلا وجود عمليا لها اذ في الوقت الذي اعطتنا ريح الجنوب نفيسة رافضة لاوْضاع اجتماعية معينة في ظل طغيان الافكار الاقطاعية آنذاك ، حتى وان لم يخرج الرفض عن تلك المحاولات الخجولة لفتاة لم تكن تطلك من الجرأة ما يحوّل ذلك الرفض الى ثورة حقيقية تساهم في التغيير . في هذا الوقت يتبين لنا عدم قدرة الكاتب على متابعة تطوير شخصياته وعلى فهم تناقضات الواقع الذي تتحرك فيه هذه الشخصيات . وشخصية " رقية "

---

1) نهاية الامْس ، ص : 64 .

التي افرزتها رواية " نهاية الأمس ، والتي رمز الكاتب بها الى ماض الجزائر بكل ما يحمل هذا الماض من ايجابيات وسلبيات لم يكن لها وجود مستقل عن شخصية البشير المحورية التي سلط عليها الضوء فلم تكن سوى ظل من ظلالها . وحتى عندما عاد بشخصية " رقية " الى ماضيها عن طريق " الفلاش بك " واستعادت ذكرياتها زمن الثورة الوطنية عندما التحق زوجها " البشير " بصفوفها ، كانت تحس بان الزمن لم يعد يتحرك ، وتمنت ان تلتحق بالجبل مثله لكن ابن هدوقة لم يفجر طاقتها كمواطن يرى الثورة وسيلة لحلّ المشاكل التي يعيشها ، ويلتحق بها ليدعم صفوفها ،فهو يصورها امرأة تقليدية تتمنى الالتحاق بالثورة من أجل اللقاء المحتمل بزوجها . بالاضافة الى ذلك يعز لها عن واقعها تماما ،عندما ، يجعلها بعيده عن الثورة الوطنية مما يتنافى وواقع المرحلة التاريخية نفسه يقول ابن هدوقة " ان الحياة في القرية لم تعد شيئا ذا بال يستحق العناية لقد توقفت في لحظة الصفر . اما فكرة الالتحاق بالجبل فوق كونها تحقق بعض أملها في اللقاء المحتمل مع زوجها ،فهي تمكنها من ولوج عالم جديد لم تعرفه المرأة ، أو لم تعرفه بالاقل مثيلاتها من فتيات القرية لكنها ليست فتاة انها أم وفريده لمن تتركها ؟ انها في حاجة قصوى الى أم تحنو عليها ، وترضعها جدتها لا يمكن أن ترضعها "(1) . والنص كما نلاحظ ،لا يصور حقيقة نضالات المرأة في تلك الفترة الزمنية : الفترة التي ضحت المرأة بالنفس والزوج والاطفال ، وعطت الى جانب فئات المجتمع الأخرى من أجل تغيير الواقع الفاسد الذي تحياه ،ومن خلال النص أيضا يحاصر الكاتب المرأة ، ويضيق عليها الخناق عندما يحصر اهتماماتها في تربية الاطفال ، ويجعل الثورة ، التي حررتها حقيقة ، عالما لم تعرفه المرأة !!!

---

1) نهاية الأمس ،ص : 84 .

ولعل السبب في ضعف هذه الشخصيات ، وتداعي بنائها ، وعدم اقتناعنا نحن بما تقوم به من أعمال يعود الى ما يكتنف رؤى ابن هدوقة أحيانا من ضبابية تحول دون استيعاب الواقع بما يزخر به من حركة .

- 4 -

والملاحظة التي تستوقفنا ونحن نستعرض شخصيات ابن هدوقة الروائية الأولى ، هي عنايته الشديدة بالشكل الخارجي للشخصية دون الغوض في اعماقها للكشف عن الصورة الاخرى العميقة التي لا تتبدى بسهوله القارئ وهذه الطريقة في العرض اتبعها الكاتب مع الشخصيات البسيطة المسطحة التي تزخر بها روايتا " ريح الجنوب " و " نهاية الأمس " ، ومع الشخصيات المركبة التي تتمحور حولها الاحداث وتنمو . واهتمامه بالشكل الخارجي من لون ، وملبس ، وقامة ، وسلوك خارجي (1) ، يعود أساسا الى كون الكاتب يتحكم في شخصياته فيقودها كيفما شاء ، وينطقها بما يراه صالحا لها ، ويشكلها بالطريقة التي تعجبه فنحس بانه من ورائها في كل خطوة تخطوها ، ولا نشعر بالعفوية في تصرفاتها ومادام الكاتب هو الموّجه الأول لشخصياته فقد أبدى عناية كبيرة بالشكل الخارجي لهذه الشخصيات دون الالتفات الى أعماقها . ولو تركها تكشف عن مكوناتها بنفسها لغدت أكثر ديناميكية وحركة ، ولأحسسنا بحرارة الحياة تتدفق في شرايينها ولأبعدها عن الجمود والركود الذي علق بكثير منها . واذا كانت هذه الملاحظات تبدو جلية في عملية الأولين " ريح الجنوب "

---

1) ريح الجنوب ، ص : 173 ، 174 .

و " نهاية الأمس اللذين تعثرت شخصياتهما كثيرا ، واتسمت بضعف كبير في بنائهما فانّ الكاتب في عمله الأخير " بان الصبح " حاول التخلص من عيوب كثيرة اثقلت كاهل عطية السابقين ، وربما كان للبيئة التي جرت فيها أحداث العمل الأخير دور كبير في ذلك . لقد جرت أحداث الرواية في المدينة ، وبالضبط العاصمة ملتقى الصراعات الفكرية ، والهجرات المتواصلة ، والتنافس الحاد بين الناس.

بالمدينة يمرّ الوقت بسرعة ، الاحداث تتلاحق ، والتغيير يمسّ كل شيء بما في ذلك الانسان نفسه هذه الخصائص التي ميزت جو الرواية ككل انعكست على تشكيلة شخصياتها بطبيعة الحال . ولم ينصب الكاتب نفسه وصيا على شخصياته بالطريقة التي شاهدناها من قبل في روايتي " ريح الجنوب " و" نهاية الأمس ". ففي رواية " بان الصبح " يدفع شخصياته وسط الميدان ، ويتركها تتحرك بمحض ارادتها ، وتتفاعل مع ما يقذفه الواقع من أحداث . وقد لعبت الشخصيات في رواية " بان الصبح " دورا عظيما ، وشكلت محور الصراع فيها ، فكشفت بعمق عن تناقضات الواقع الذي تتحرك فيه اسرة برجوازية من منبت اقطاعي مازالت تحتفظ بخصائصها الاقطاعية في ظل علاقات انتاجية جديدة.

هذا الواقع المتداخل المتناقض ، المتغير باستمرار ، أفرز شخوصا تحمل الخصائص نفسها ، وتعكس هذا الواقع بكل تركيباته . واضافة الى ذلك فمعظم شخصيات الرواية نامية ، ومتطورة ، ومتفاعلة مع الوسط . ومن بين هذه الشخصيات شخصية دليلة . التي جعلها ابن هدوقة امتدادا لشخصية نفيسة في رواية ريح الجنوب وتكملة للدرب الذي بدأت نفيسة شقه ، ووفق الكاتب في رسم الشخصية بابعادها المختلفة دون أن يكون الموجه لها والمشرف على كل

تحركاتها كما فعل مع كثير من الشخصيات من قبل وحتى البعد الفيزيولوجي كان تقديمه حيويا جدا من خلال اللوحة الفنية التي نقلها . لدليلة ، وهي تتأمل نفسها في المرآة متحسسة لمواطن الانوثة المتفجره فيها ، وقد ربط ذلك بالحالة النفسية التي كانت عليها دليلة ، وبالوضع الاجتماعي الذي تعيشه يقول ابن هدوقة : " اتمت دليلة الحركات الرياضية التي تقوم بها كل صباح ، وتقدمت من مرآة الخزانة ، وقالت لها وهي تنظر الى وجهها وجسمها فيها : " أنا جميلة أليس كذلك ؟ اياك أن تعكسي أمامي صورة زائفة لحقيقتي ! هذا شعري اعرفه بلونه الخروبي وطوله . هاتان عيناي المسليتان الحالمتان بتفجير شيئ ما هذان حاجباي المقوسان الرقيقان . هذا أنفي المستقيم الذي يأنف من انحرافي، هاتان شفتاي الرقيقتان اللتان تحسنان التدخين والشرب أكثر من القبلات" (1) ، ولا يتوقف الكاتب عند هذا ، بل يكشف الصورة بتلك الاستبطانات الداخلية التي تكشف عن أعماق دليلة ، ومختلف الصراعات التي تضطرم بداخلها ، صراع حادّ مع نفسها ، وصراع مع المجتمع الذي تعيش فيه ، مجتمع الرجال كما كانت تسميه (2) ، هذا المجتمع الذي كانت تحبه وتكرهه في آن واحد ، تشتاق اليه ، وترهبه . وبالتقاء هذه التناقضات يحتدم الصراع ، ويتكشف ويولد السخط فالرفض لكل شيئ ، ولا سيما للنفاق الذي كانت تحياه داخل اسرتها البرجوازية والكاتب عن طريق دليلة ، وصراعاتها المستمرة مع اسرتها يبرز زيف هذه الشريحة ونفاقها ، وتناقضاتها الداخلية ، وما يلفت النظر في شخصية دليلة تصرفاتها العفوية ، وبساطتها ، وتلقائيتها مما ساهم في اضفاء الحركة في كيان الرواية وربطها أكثر بالواقع يضاف الى ذلك تلك الحرية التي منحها الكاتب لدليلة ، والتي بفضلها كانت تخوض التجارب الواحدة تلو الاخرى ، وتمرّ بمشاكل وصعوبات جمة

---

1) بان الصبح ، ص 5 .

2) المرجع نفسه ، ص : 180 .

كانت بمثابة امتحان حقيقي لقدرتها على تحمل مسؤولياتها بمفردها كامرأة تعاني الكثير من الاضطهاد وسط شريحة اجتماعية تتآكل . ووفق الكاتب أيضا عندما جعل تمردها المنيف ينتهي بقرار تحطيم اسوار اسرتها ، والتحرر من قيودها ، ثم اللجوء الى " نصيرة صوناكوم " ريثما تتدبر امرها بنفسها . تقول دليلة في مكالمة مع نصيرة : "لا أقول لك شيئا الآن ، انني اكلمك من البيت قولي نصيرة : هل تقبلينني لاجئة عندك بضعة أيام .

- بكل سرور .
- هل استطيع أن أتي الليلة ؟
- تستطيعين أن تأتي الآن .
- أنا آتية اذن باي ، باي ! " (1)

واهتم الكاتب كثيرا بشخصية نصيرة ففي الوقت الذي كانت دليلة تصب جام غضبها على الرجل ، وتعلن ثورتها على مجتمع تحس أن لا مكانة فيه للمرأة، منطلقة في ذلك، من تجارب ذاتية في أغلب الاحيان ، نرى نصيرة مثقفة واعية بمشاكل المجتمع ، تعمل بأحد المكاتب النقابية ، وتعرف بحدسها الثوري ، وبفضل ممارساتها اليومية ، من هو الذي يجب محاربته بل وتتسع الرؤية لديها لتشمل البناء الاجتماعي نفسه ، ومختلف التناقضات التي يعيشها المجتمع(2). وابن هدوقة وهو يقدم شخصية نصيرة ، ويكشف عن مستواها المادي والفكري ، يقرنها بالشريحة الاجتماعية التي تنتمي اليها ، وهو ما يكسب عطها عمقا وأصالة .

والى جانب هذه النماذج النسائية التي وظفها ابن هدوقة ليطرح من

---

1) بان الصبح ، ص : 330 .

2) المرجع نفسه ، ص : 199 ، 200 .

خلالها مشكل المرأة باعتباره واحدا من مشاكل كثيرة يعاني منها المجتمع في ظل العلاقات الانتاجية الجديدة ، وظف الكاتب شخصيات أخرى كشف بواسطتها زيف ونفاق بعض الأوساط التي كانت تمارس هيمنتها على المجتمع بصورة أو باخرى . فنجد عمر امتدادا لشخصية الشيخ علاوة والده من حيث رفضهما لكل تطور أو تغيير ، وعزلتهما للجهود المبذولة من أجل تحسين الوضع. ووفق الكاتب الى حدّ كبير في تقديم هاتين الشخصيتين . فهو يقدم الشيخ علاوة شخصية نمطية تظل على الصورة التي تظهر بها في الوهلة الأولى ، متحجرة ومتعصبة ، تحمل كثيرا من التناقض ، والانقسام في شخصيتها يقول رضا "اتردين أن تعرفي عمك هذا الذي منه تتألمين والذي كنت من قبل تعتزين ؟

انه مجموعة من قطع الغيار ، لا تشابه الواحدة الأخرى ، ولا هي من مصدر واحد ! انه يحيا في عدد من العصور ، وفي عدد من البلدان في نفس اللحظة يريد أن يكون من عداد الاغنياء ومع المثقفين ومع الزعماء ، ومع الحكام يناصر الحق ، ويناصر الجلادين أباطيب وفظ ...

يريد أن يكون كل ذلك وهو ليس شيئا من ذلك ، يعتقد أنه أذكى الناس وهو ابلههم ، اضرب لك مثلا واحدا على بلاهته ... كانت هذه الدار عندما اشتراها تسمى الربيع فصورها ..."(1).

والنص يكشف عن التناقضات الحادة التي تعيشها شخصية الشيخ علاوة ومن ورائه كل الطبقة التي ينتمي اليها ، وفيه تعرية لاخلاقيات هذه الطبقة وما فيها من نفاق وانتهازية وجشع . والى جانب هذه الشخصية النمطية التي وصفها بأنها مجموعة من قطع الغيار غير المتجانسة فيما بينها ، يقدم الكاتب

---

1) بان الصبح ، ص : 276 .

شخصية عمر مديرا لاحدى المؤسسات الوطنية ،حيث يقوم بتعرية عمر من خلال فضح تصوفاته مع افراد اسرته ، ومع العمال في المؤسسة عندما تختلس أموال الشركة ،وتشن ضده اضرابات كثيره . ثم يكشف عن الجانب الاخلاقي لهذه الشخصية التي تظهر بمظاهر المستقيم أمام افراد الاسْرة، (1) وتسليط الضوء على هذه الجوانب المختلفة بمهد الكاتب للنهاية الطبيعية التي انتهى اليها عمر عندما تحركت القاعدة العمالية ،واتحدث ضده، ورفضته كمسؤول يعبث بمصيرها .

---

1) بان الصبح ، ص: 224 .

تحدثنا في الفصل السابق عن علاقة الشكل بالمضمون أو الصياغة بمحتوى العمل في عطية الابداع الادبية ،هذه العلاقة التي حاولت مدارس نقدية قديمة وحديثة تبيين طبيعتها ،وفهم حقيقة الصلة التي تربط في اطارها بين الموضوع الذي يختاره ،والموقف الذي يتخذه من كثير من القضايا وبين الكيفية التي يعبر بها عن هذا الموضوع ،ويكشف بواسطتها عن موقفه ورؤياه. الا أن معظم المدارس النقدية التي حاولت فهم هذه العلاقة لم تفلح في ذلك لانها وهي تتناول بالدراسة كثيرا من الابداعات فصلت بين شكل الأدب ومضمونه، فقد نظرت الى الشكل كفاية في حدّ ذاتها ،واعتبرته جوهر العملية الابداعية، فافرغت الأدب من محتواه ،وقيمته ،وأصبح الشكل نتيجة ذلك قوالب جامدة لاحياة فيها ،وجاءت مدرسة الواقعية بشقيها التنظيري والتطبيقي على السواء لتساهم بدورها في حلّ هذه الاشكالية ،ولتطرح العديد من الاسئلة حول طبيعة هذه العلاقة ونوعها ،وكيف يجب أن ننظر الى فنّ الأدب ؟ وماذا يهمّ في العملية الابداعية أكثر الشكل أم المضمون ؟ هل يتصور المبدع شكلا ويصب فيه مضمونه ؟أم يترك المضامين تفرض الشكل الخاص بها ؟.

ومع التغيير الذي مسّ جوانب الحياة العربية ،والتطورات الاجتماعية والسياسية التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ظهرت اعمال كثيرة مما يدخل في باب الواقعية يغلّب اصحابها المضمون على الشكل باعطاء الاهمية القصوى للقضايا الاجتماعية

فيه(1)، وللموقف الذي يتخذه الكاتب من هذه القضايا . الا أن الأدب الذي افرزته هذه المرحلة جاء في معظمه تقريريا مباشرا ركز فيه اصحابه على المضمون دون أن يصاحب ذلك تطوير في الادوات الفنية التي تحمل هذا المضمون. وبعد هذه الموجة تعالت أصوات تطالب من جديد بأدب واقعي حقيقي يستوعب متطلبات الحياة العربية الجديدة، وينفذ الى أعماق الواقع العربي ويعبّر عن تطلعات الانسان العربي، وأطمه في تحقيق حياة أفضل، دون اهمال الناحية الفنية، لأن التركيز والتشديد على المضمون يجعل الأدب أقرب ما يكون الى اللوائح أو الشعارات، أو التقارير السياسية، ويقتل الأدب من حيث هو نشاط انساني متطور ومتجدد باستمرار، أو كما قال لوكاتش: " يعطل الأدب لأنه لا يعطي الجانب الفني حقه "(2). وكانت مطالب التيار الجديد تركز على الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون، وعلى محاولة ايجاد توازن داخل العملية الأدبية عن طريق انصهار الموضوع: الاحداث والمواقف والعلاقات، في الشكل: اللغة والحوار، والصور والاخيلة، وعلى تفاعل هذه العناصر بعضها ببعض في عملية تنمو وتتطور داخليا، وتتضح كلما كان الكاتب أكثر فهما ووعيا لمشكلات واقعه، وممتلكا لتكنيك الرواية . ومادمنا بصدد الحديث عن الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون في العملية الأدبية، وضرورة الربط بينهما، علينا أن نتساءل هل المقصود من ذلك وضع شكل معين يلتزم به المبدعون كما يلتزمون بمضامين معينة ؟ أم أن المقصود التزام الأديب بمضمون معين، وموقف ملتزم من قضايا الجماهير على أن يكون له قبل كل شئ رؤياه الجمالية الخاصة به هذه الرؤية التى تفتق في كل مرّة شكلا جديدا ؟...

---

1) غالي شكري، شعرنا الحديث الى أين، دار المعارف بمصر، 1968، ص: 26، 27.

2) الموقف الأدبي، عدد خاص بالواقعية، عدد 85، ص: 78.

وقد برهنت الأعمال الواقعية التى افرزتها فترات الستينيات والسبعينيات وحتى الثمانينيات على أن الواقعية منهج في التفكير ،ورؤية للواقع تتباين اساليبها الفنية تباينا يتفق والتجربة الانسانية التى يتناولها الكاتب بالتعبير. (1)
ومما سبق نستنتج أن للواقعية أشكالا تتباين ،وتتنوع حسب طبيعة الموضوع المتناول، والتجربة التي يعبر عنها الكاتب ،وليست شكلا واحدا معينا يطالب المبدع بالنسج على منواله . وهذا يدفعنا بطبيعة الحال الى التساؤل عن الاشكال الفنية التي عبر الكاتب من خلالها عن مضامينه ، وعن الموقف الذي اتخذه من كثير من القضايا ؟ وهل استطاع أن يحقق الانسجام بين المضامين التى طرحها ،والاشكال التعبيرية التى حملت هذه المضامين . وأخيرا مدى نجاحه في تطوير أدواته الفنية لغة ،وحوارا ،وصورا ،واخيلة ،من عمل الى آخر.

فرواية عبد الحميد بن هدوقة ريح الجنوب تتشكل بنيتها اللغوية وفق اطارها المكاني الذي حدده الكاتب باحدى قرى الريف الجزائري . هذا الاطار الذي يفرض نوعا من البطء ،وقلة الحركة على سير الاحداث ، وعلى تشكيل الشخصيات ، وتحديد أبعادها . ومن ثم نلاحظ غلبه السرد كاسلوب لنقل أحداث واقع الريف الجزائري . والكاتب وهو يقوم بعملية الانعكاس للواقع الجزائري في مرحلته الاجتماعية ، متخذا من الثورة الوطنية خلفية لأحداث روايته ،لا يكاد يقوم باي انتقاء أو اختيار لما هو موجود في الواقع ،بل يكتفي بما يقع عليه بصره حتى وان كان من الجزئيات التى لا تساهم مساهمة فعالة في عملية انعكاس الواقع ،وتضعف العمل في أماكن كثيرة يقول عبد الحميد بن هدوقة " وكان حينئذ أحد الأحمرة الثلاثة قد توقف عن السرح وأخذ (يغازل) أتانا . وحانت من نفيسة التفاتة فرأت الحمار مستقضبا يستمد"

---

1) غالي شكرى الرواية العربية في رحلة العذاب ،ص: 7 .

لاعتلاء الاتان فحولت بصرها وقالت في نفسها باشمئزاز (يا للفضاعة ! بالمقبرة لكن الفضول الغريزي لدى الفتاة دفعها مرة أخرى الى النظر في هذه الحادثة الغريبة التي تشاهدها لأول مرة في حياتها ... وما أحدثه المنظر في نفسها من شعور ليس يسيرا تصوره على أي حال . غباوة الأحمرة مكنتها من مشاهدة "العملية" من البداية الى النهاية وعرفتها رغما عنها بحقيقة طبيعية "(1) .

ونص كهذا لا يضيف شيئا ذابال للرواية ، ولا يساهم في تطوير الحدث، ولا يساعدنا على فهم الشخصية التي ارتبطت بالنص ، شخصية نفيسة ، ولا حتى على فهم جوّ الريف الاجتماعي . والنص نفسه غير منسجم مع سياق الرواية وطويل أيضا اضافة الى سطحيته وسذاجته فالواقعية ليست نقلا للواقع فاذا كان الواقع هو الأساس ،فانّ الأديب يختار(2)، وابن هدوقة بهذا النص ،ونصوص كثيرة في رواية ريح الجنوب يأخذ المادة من الواقع دون انتقاء أو اختيار لما يخدم فكرته ،ويثري الاسلوب العام للرواية . وأثناء قيام الكاتب بعملية النقل لمختلف أحداث الرواية ،وتوزيعها على شخوصه،نلاحظ أن اللغة الموظفة في هذه الرواية ذات مستويات عديدة ، وأنها كانت تتغير تبعا لطبيعة الشخصيات ،وشرائحها الاجتماعية ، وحالاتها النفسية ،وظروفها المختلفة . فلو تأملنا خيرة احدى شخصيات رواية ريح الجنوب وهي تتحاور مع ابنتها نفيسة عندما عادت من الجزائر في العطلة الصيفية ، لأحسسنا ما في الحوار من حدة وتنويع ،وما لهذا التنويع من دلالة في نقل الكثير من خصائص الشخصيات ،والكشف عن مستوياتها . وابن هدوقة في هذا الحوار المكثف المليئ بالصور المتناقضة يكشف عن الاختلافات الجوهرية بين الشخصيتين،هذه

---

1) ريح الجنوب ، ص: 23 .

2) بليخانوف ،الموقف الأدبي ،عدد خاص بالواقعية ،ص: 74 .

الاختلافات التي تحدد معالم كل شخصية، ومن ثم موقفها من الحياة ككل (1). وبالرغم من أن اللغة الموظفة واحدة الا أن هذه اللغة تختلف من خيرة الأمّ الى نفيسة الابنة، فلغة الأمّ يحددها الوسط الذي تعيش فيه بمحدوديته، وضيق أفقه، وبكل ما يسود هذا الوسط من غيبيات وأفكار قديمة. وتعكس لغتها أيضا أجواء الأسر الاقطاعية وما تتميز به هذه الأسر عادة من النفاق، والغطرسة، والاستبداد بالرأي. فعابد بن القاضي، زوج خيره يعتبرها جزءا من ممتلكاته المادية الأخرى، ويرى أن له حق التصرف فيها شأنها شأن ممتلكاته، كما يحدد لغة الأمّ الوسط الضيق الذي تتحرك فيه وهو وسط محصور بين البيت والمقبرة وبعض البيوت الأخرى، هذه العوامل هي التي حددت نوعية ومستوى لغة خيرة، فجاءت مشحونة بالضعف والتوتر، ومليئة بالألم والحسرة، بل نحس من خلال لغتها بعدم استقلاليتها، وخنوعها وهي تقوم بترديد ما لقنها اياه زوجها على مسامع ابنتها نفيسة. وفي كلمة واحدة لغتها عبارة عن صدى لما يقوله زوجها. وبالرغم من أن نفيسة نشأت في الجو نفسه، الا أنها بفضل ما تلقته من تعليم، وما عرفته اثناء وجودها بالعاصمة، رفضت ذلك الجوّ، وثارت على النمط الحياتي الذي تتحكم فيه الافكار الاقطاعية، مما جعل لغة نفيسة حادة، جافة، ثائرة مشحونه بالألم والسخط على الواقع الذي تعيش فيه، كما جعلها مختلفة عن لغة الأمّ خيرة التي اقتصر دورها في الحياة على الاستماع، والترديد لافكار عابد بن القاضي، وبواسطة هذا التنويع في لغة الحوار استطاع الكاتب الى حدّ ما أن يحقق لهاتين الشخصيتين واقعيتهما اللغوية. وسنحاول من خلال الحوار الذي دار بين نفيسة وامها خيرة ادراك ذلك، يقول ابن هدوقة في هذا الحوار :

---

1) ريح الجنوب، ص : 88 .

"وقالت لها بخشية : في الخريف لن تعودي الى الجزائر فاجابت نفيسة بدهشة وقد هزّ نفسها هذا التصريح المباغت هزّا مؤلما .

ودراستي ؟

حاولت الأم أن تظهر حيادها وقالت :

- ابوك أراد ذلك لن تعودي الى الجزائر ...

- التعلم أمر ثانوي ..."

فقاطعتها نفيسه بسخط مكظوم قائلة :

- التعلم أمر ثانوي ؟ ترى ما هو الشئ الأساسي الذي تريدونه لي ؟

- الشئ الأساسي لمن في سنك هو التفكير في المستقبل "(1).

وتبين الالفاظ الموظفة في الحوار على لسان خيره الأم ما تتميز به هذه الشخصية من ضعف وتردد ،وعدم الثقة في النفس، وخوف، وقد عبرت ألفاظ (بخشية ،حيادها ،ابوك اراد ذلك)،عن الأزمة النفسية التي تعيشها هذه الشخصية ،فهي تردد أفكار زوجها وما لقنها اياه ولا شئ غير ذلك والأمر يختلف بالنسبة لنفيسة لقد هزّ كلام أمها نفسها هزّا، واندهشت، وقاطعت أمها بغضب . فالفاظ (هزّ ،واندهشت والسخط) تعكس الحالة النفسية التي كانت عليها نفيسة ،والجرأة التي واجهت بها كلام أمها ، وما سيترتب على هذا الكلام من آثار . والملاحظة نفسها تصدق بالنسبة الى باقي الشخصيات ،فوقفة متأنية عند شخصية العجوز رحمة احدى شخصيات رواية ريح الجنوب تبين ما في هذه الشخصية من خصوبة ،وعمق ،واستقلالية جعلتها

---

1) ريح الجنوب ،ص: 85 ، 86 .

تختلف عن الشخصيات الأخرى التي كانت تعيش معها في الوسط نفسه ، وتحت ظروف واحده (1). واللغة التى تجرى على لسان رحمة تكشف عن الخصائص التي تتميز بها هذه الشخصية ، وهي لغة تختلف عن لغة نفيسة ، وخيرة ، وهذا بالرغم من أن هذه الأخيرة تعيش في نفس الوسط الذي تعيش فيه العجوز رحمة ، وتصارع نفس الظروف ، وان اختلفت معها في المستوى المادي . وكان لحرفة الفخار التى تمتهنها رحمة ، والاشكال المتنوعة التى ترسمها على ما تصنع من أوان ، اثر على لغة هذه الشخصية ، حيث اكسبتها عمقا وأصالة . وأصبح فنّ الفخار عالم العجوز الـــدى ، يحدد نوعية لغتها التي اتسمت في بعض الفقرات بنوع من التأمل والفلسفة بالرغم من اميتها ، وعدم مغادرتها القرية طوال حياتها . وقد ظهر أثر هذه الحرفة ، التي تضرب بجذورها في تربة الواقع الجزائري ، في تأصيل هذه الشخصية ، وتقريبها من القارئ ، وذلك لما كانت تتمتع به من خصائص شعبية . ولغتها كانت مزيجا من النكتة والمثل ، والعبرة والحكاية . وهي خصائص مستمدة من طول التجربة ومن صناعة الفخار ، الفن الذي كانت ترى من خلاله كل ماضيها ، وماض القرية ، بل وحتى المستقبل . والثراء الذي تميزت به شخصية العجوز رحمه لعب دورا في إثراء لغتها ، وتنويعها وفي إثراء اسلوب الرواية ككل .(2) بالاضافة الى تحديد مستواها المادي والاجتماعي على السواء . تقول العجوز رحمة :

" والاّ ما معنى الحياة ؟ ان الغد الذي انتظره هو الذي يحرك رجلي اليوم عندما احفر الطين لا افكر في الغد القريب ولكن في الغد البعيد ، البعيد . . . لأن التراب يجب أن ييبس ثم يدق ثم يبلّ ثم يبنى أواني . . . ثم بعد ذلك

---

1) ريح الجنوب ، ص : 34 ، 35 .

2) ريح الجنوب ، ص : 130 .

يأتي صقلها ،ثم تبقى أياما لتيبس ثم ترقم وتزخرف ثم توضع في الفرن وليت العمل ينتهي هنا لأن الفرن يعطي لها أحيانا ألوانا وأشكالا غير التي كنت انتظرها ،وحينئذ أجد نفسي مضطرة للاعادة . وهكذا أبدأ وأعيد وأنا سعيدة بذلك لأن نفسي تحدثني أنه لابدّ أن يأتي اليوم الذي اصل فيه الى الاتقان الذي انشده وأجد الصورة المثلى التي ابحث عنها"(1).فحياة رحمة هي هذا الذي تصنعه ،وتضع فيه كل جهدها ومعرفتها ،فالغد هو الذي يحرّك رجلها اليوم لكي تحفر الطين ،وتضعه ييبس فتدقه ثم تبلله وبعد ذلك تصنع منه الأواني وهكذا دواليك حتى تنتهي من صناعة آنية ما . وفي الأخير قد تعجبها وترضى عنها ،وقد لا تعجبها فتعيد صناعتها . انها الحرفة التي تحقق لها وجودها ،وتربطها بواقع القرية ، وتعطي لحياتها نكهة خاصة،وسعادة تبعث الأمل في نفسها لتعمل أكثر فأكثر وهي متأكدة من أنها ستتقن عملها ذات يوم ،ومن خلال النص أيضا نحسّ بانّ حرفة الفخار- وهي جزء من تراثنا الشعبي - تغلغلت في اسلوب رحمة وعمقته (2) ،ودخلت في بناء الشخصية أيضا بالاضافة الى اثرائها اسلوب الرواية العام ،ولو استعرضنا شخصية أخرى من رواية ريح الجنوب شخصية رابح مثلا لاستوقفتنا هذه الشخصية لما تتمتع به من بساطة تبلغ حدّ السذاجة ،ولا رتباطها بواقع الريف الجزائري ،والتطور الطفيف الذي اصابها ،وأثر بطبيعة الحال فياحداث الرواية خاصة في فصولها الأخيرة . وجاء تقديم الشخصية من طرف الكاتب بواسطة السرد ،لكون الشخصية لا تملك عالما زاخرا ،ولا حياة معقدة كما هو الحال بالنسبة الى شخصيات أخرى . وعلى هذا الأساس اتسمت لغة رابح

---

1) ريح الجنوب ، ص : 64 .

2) المرجع نفسه ،ص : 153 .

بخصائص معينة هي في حقيقة الامر حصيلة تجربة افرزها وسطه الاجتماعي ، ومستواه المادي أيضا . والكاتب وهو يقدمه من خلال التعبير الوصفي كان يقوم بتحليل شخصيته ، وتحليل الواقع الذي يعيش فيه ، هذا الواقع الذي فرض عليه نوعا خاصا من التصرف يقول ابن هدوقة : " هناك اشياء كثيرة يمكن أن تخطر في بال من هو مقدم على فعل من هذا النوع ، لكن خواطر رابح لم تكن كثيرة لحسن حظه أو لسوئه . ربما كان عدد الخلايا التي يتركب منها جهازه العقلي ضئيلا جدا ، لأن الحياة التي يحياها ليس فيها جديد فمن دار ابن القاضي الى الجبال المطوقة للقرية حيث ترعى اغنامه ، مساحة ضيقة محدودة الافاق يستوعبها في لحظات ويحيط بها في يسر "(1) ، وقد حاول الكاتب في هذا النص أن يبرر تصرف رابح وهو مقدم على اقتحام بيت نفيسة ، فبالرغم من خطورة المحاولة الا أن رابح لم يفكر في ذلك لانه لم يتعود التفكير في شئ فحياته محصورة بين دار ابن القاضي وكوخ امه والجبال المحيطة بالقرية حيث كان يذهب بغنم عابد بن القاضي ولا شئ غير ذلك ، وهذا الوسط الضيق المحدود يعكس بطبيعة الحال مستوى تفكير رابح البسيط جدّا . والتطور الذي مسّ شخصية رابح عندما تخلى عن مهنة الرعي ، وخدمة عابد بن القاضي ، كان له أثره على فكر رابح ، ولغته معا . وقد وفق الكاتب عندما أخرج هذه الشخصية من عالمها الضيق الى آفاق رحبة ، بحيث لم يعد دوره يقتصر على التذكر والاستماع ، وبدأت مداركه العقلية تشتغل ، وبدأ يحسّ بواقعه ، وظروف حياته الصعبة ، التي جعلت عابد بن القاضي واسرته ينظرون اليه بنظرة فيها كثير من الازدراء والاحتقار .

وفي هذه المرحلة لم يعد الكاتب هو المتحدث على لسان رابح ، والموجه

---

1) ريح الجنوب ، ص : 100 ، 101 .

له ،بل انطاقه في مونولوج داخلي جمله يعبر فيه عن شحناته النفسية، ويستوعب معطيات الواقع المحيط به (1).

والنتيجة التي نستخلصها من استمراض مختلف مستويات اللغة ، وطرق التعبير بها في رواية ريح الجنوب هي هذه الواقعية التي حاول تحقيقها بالنسبة لكثير من شخوصه ،بفضل التنويع في اللغة ،وسيلة الاتصال والربط في العلاقات الاجتماعية . وبعد القراءة المتأنية للرواية نحس بانّ لكل شخصية مستواها اللغوي تقريبا ،الذي يكشف عن مستواها المادي والنفسي والاجتماعي وعن الشريحة الاجتماعية التي تنتمي اليها . هذه المستويات هي التي تشكل للشخصيات عالمها الروائي المستقل ،وتعطي للعمل الأدبي بعده الواقعي ، حتى وان ظلت الواقعية تفتقر الى مقومات أخرى كما ذكرنا سابقا (2).

- 2 -

كما وجدنا المونولوج الداخلي لا يشغل الا حيزا ضيقا من رواية ريح الجنوب ،حيث غلب عليها اسلوب السرد يتخلله الحوار القصير حينا (3) ، والطويل حينا آخر (4)، وذلك حسب المواقف والعلاقات الاجتماعية بين شخوص الرواية ،فكذلك الأمر في رواية نهاية الأمس التي اتخذ الريف اطارا مكانيا

1) ريح الجنوب ، ص : 128 .

2) انظر الصفحة 52 من الفصل الأول .

3) ريح الجنوب ، ص : 195 .

4) المرجع نفسه ،ص : 44 .

لأحداثها أيضا . وقد عكس الكاتب وللمرة الثانية ،عالم الريف بواسطة السرد المصحوب بالحوار أحيانا . ونلاحظ في رواية نهاية الأمس تمحور الأحداث حول شخصية البشير ، معلم القرية ، والشخصية المحركة لاحداث الرواية ، وقد استعان بالسرد خاصة في بداية الرواية عندما حضر المعلّم الى القرية ، وقبل أن يرتبط بعلاقات اجتماعية مع سكانها . وبواسطة السرد قدم لنا الكاتب المعلم البشير . وكان يفسح المجال بين الحين والآخر لماض هذا المعلم الغني بالتجارب والاحداث داخل وخارج البلد . فيحضر ويزاحم الحاضر ، فيحل مكانه في بعض الاحيان ، ولعب اسلوب "الفلاش بك" دورا كبيرا في انارة الماضي ، وبعثه بين الفينة والأخرى ،(1) ماضي المعلم ، وماضي زوجته رقية ، وماضي والده الشيخ حموده .(2) وعن طريق هذه العودة الى الماضي ، واسترجاع ذكرياته ، رسم ابن هدوقة خلفية معظم شخصياته ، ومزج بين زمنين مازالا يتبادلان الأخذ والعطاء . واستعمل الكاتب الحوار في الرواية بعد أن دخل المعلم البشير عالم القرية ، وارتبط بعلاقات كثيرة مع أهلها : الشيخ بوغرارة كبير القرية ، ومعلم القرآن ، وتلاميذ المدرسة ، وعاملة المدرسة العجوز ربيحة الخ ... وقد لعب الحوار دورا في تنشيط الحركة الدرامية في الرواية ، واخراج البشير من المعزله ، بل مكننا من فهم الكثير من سلوك شخوصها . واختلف الحوار من حيث الطول والقصر ، واختلفت لغته أيضا ، وذلك حسب طبيعة الاشخاص الذين يتحاورون بعضهم مع بعض ، ومستواهم الفكري والاجتماعي والمادي . ولنحاول متابعة هذين النوعين من الحوار . يجري الأول بين المعلم البشير وبين بوغرارة ، احدى الشخصيات البارزة في رواية

---

1) نهاية الأمس ، ص : 15 .

2) المرجع نفسه ، ص : 90 ، 91 .

نهاية الأمس . وأما الحوار الثاني فيجري بين المعلم البشير أيضا وبين شيخ القرآن في القرية . يقول بوغرارة في حوار مع المعلم :

-" ان الفقراء لا يستطيعون أن يعملوا شيئا ولو استطاعوا لما بقوا فقراء .

- يستطيعون الكثير ولكنهم لا يعرفون قوتهم .

- قوتهم إ أي قوّة يملكها الفقير ؟ أتعرف كيف امتلك ابن الصخرى هذه البساتين .

- كيف ؟

- في الربيع عندما تطول الأيام ، وتفرغ المخازن والبطون ، وتهون في سبيل الخبزة حتى الحياة ، يأتي الرجل يشترى البرّ أو الشعير دينا من يدينه ؟ هل الفقير مثله ؟ طبعا لا .

- ابن الصخرى ...

- نعم ، ابن الصخرى هو الذي تمتلئ مخازنه بالقمح والشعير يبيع قمحه أو شعيره دينا ، لكن بشرط ...

- ما هو هذا الشرط ؟

- أن يرهن له المدين قطعة أرض أو بستان كضمان لدينه "(1).

اما الحوار الثاني فيجري كما قلنا بين المعلم البشير ، وبين شيخ القرآن يقول المعلم : " هل لك أبناء ؟

- ابني توفى منذ سنوات . وبنت هي الآن باولادها تسكن الجزائر مع زوجها .

---

1) نهاية الأمس ، ص : 110 .

- ألم تذهب الى الجزائر !
- لم يكتب لي ذلك
- سكت برهة كالمفكر في شيء ثم قال :
- الضفدعة قالت " حراق بطني ولا فراق وطني "!
- ضحك البشير ضحكة أسى على حال الرجل :
- لكن الجزائر وطنك .
- لا هذه القرية هي وطني . لا ابدلها بغيرها أبدا .
- لكن ما رأيك لو بنت الحكومة قرية حديثة تتوفر فيها كل المرافق وبها مسجد ؟
- ومن منعها أن تفعل ذلك .
- هل تقبل أنت الارتحال اليها والتعليم بمسجدها ؟
- أنا ... لا . أبدل مسجدا بمسجد ؟ "(1)

وبالرغم من أن الحوار يجرى في كلا الحالتين بين المعلم البشير، وشخص آخر في المرة الاولى الشيخ بوغرارة ، وفي المرة الثانية معلم القرآن، الاّ أن نوعية الحوار تختلف كما تختلف لغته ، ومستواه تبعا لاختلاف الشخصية ، والشريحة الاجتماعية التي تنتمي اليها . فحديث المعلم البشير مع الشيخ بوغرارة جدّي وعميق ، ومتقارب في المستوى ، يمسّ القضايا الجوهرية التي يعيشها الريف الجزائري كقضية الارض ، وسوء توزيع الملكية ، ومشكل الاقطاع . ويظهر النص الاول تقاربا في وجهات النظر بين الشيخ بوغرارة ، والمعلم البشير حول جشع الملاكين ، والطرق التي يستعملها هؤلاء من أجل توسيع ملكيتهم . وبالرغم من من أن الشيخ بوغرارة أميّ ، الا أن ذلك لم يقف عائقا بينهما ، ولم يمنع من

---

1) نهاية الأمس ، ص : 60 ، 61 .

تبادل حديث مع المعلم البشير أبدى فيه الكثير من التفهم لافكاره ،فالشيخ بوغرارة عايش الارض ،والفلاحين ، وعرف الريف أيام الثورة الوطنية والاجتماعية مرحلة التحولات الجذرية ،وهذا أكسبه تجربة طويلة ،وساهم في نضجه الى حد كبير وقد أظهر الحوار الاول مستوى الشخصيتين الثقافي والفكري ،والاجتماعي اذ في الوقت الذي يحاول فيه المعلم البشير تحليل واقع الريف بلغت النظر الى الطاقات الكامنة فيه ،وفي قواه الحية - " يستطيعون الكثير ولكنهم لا يعرفون " نرى الشيخ بوغرارة يعيش مرارة الوضع ،وبؤس الحياة التي يحياها سكان الريف أو بعبارة أخرى يعرف المعلم البشير الفوارق الطبقية ،ويستطيع تحديدها ، بينما الشيخ بوغرارة يحسها انطلاقا من مقارنة حاله وحال بقية الفلاحين بحال ابن الصخرى ،وبقية الملاكين الكبار في الريف ،وان ظل ذلك مجرد احساس لم يستطع تجاوزه . ويتميز الحوار الاول بالطول الذي يسمح بالمناقشة ،وتبادل الرأي ، وكذلك بالعمق .

اما الحوار الثاني الذي دار بين المعلم البشير ،وشيخ القرآن في القرية فيعكس بدوره مستوى الشخصيتين : مستوى شخصية شيخ القرآن وما يتميز به من جهل ،وسطحية ،وضيق أفق ،وبساطة في التفكير عبرت عنها الجمل القصيرة المبتورة ،" لم يكتب لي ذلك " من منعها أن تفعل ذلك والى جانب ذلك يبين الحوار مستوى شخصية المعلم البشير ،وبعبارة أخرى يكشف عن جوانب أخرى من هذه الشخصية فالمعلم البشير كان يحاول في هذا الحوار أن يخرج شيخ القرآن من الدائرة المفرغة التي يدور فيها - القرية المسجد ،المسجد القرية - بحديثه عن القرية الجديدة ،ومرافق الحياة والمسجد الجديد والوطن . وقد وفق الكاتب في ادارة هذا الحوار خاصة فيما يتعلق بشيخ القرآن .والمثل الذي وظفه على لسانه " الضفدعة قالت حراق بطني ولا فراق وطني " والدلالة التي يحملها هذا المثل .

لقد كشف عبد الحميد بن هذوقة بواسطة الحوار عن عوالم شخصياته المختلفة ، وجعلنا لا ندرك الابعاد المادية للشخصية فحسب ، بل كيانها الاجتماعي والنفسي أيضا . وظهر هذا بخاصة في حديثه عن ام الحركي وزوجته . لكن ما يؤخذ عليه وهو يجرى مختلف الحوارات هو تدخله في ثنايا الحوار ، وقطعه لتسلسله مما يحدث الخلل في بنائه(1) .

وما ان نغادر عالم الريف مع روايتي ريح الجنوب ونهاية الامس ، ونفتح أبواب عالم المدينة الواسع في اطار رواية بان الصبح حتى تلفت انتباهنا ملاحظات كثيرة تستدعي الوقوف عندها . وأول ما نلاحظه في رواية بان الصبح هو السرعة في تقديم الاحداث لدرجة أننا لا نكاد نستوعبها ، بالاضافة الى ثراء اللغة باسماء الاماكن ، والشوارع ، والمحطات ، والمقاهي ، وغيرها . ثم كثرة الشخوص ، وحضورهم الفعلي أثناء العملية الابداعية ، ثم توزيع اللغة في مستوى الوصف الخارجي .

- 3 -

واذا كان السرد يلازم الكاتب حتى في رواية بان الصبح لنقل صور كثيرة عن عالم المدينة المزدحم ، الزاخر بالحركة ، المتلاحق الانفاس ، فان الحوار في هذه الرواية يشغل حيزا كبيرا . وبواسطته يتم تقديم معظم شخوص الرواية ، وقد ظل الحوار هو الاسلوب المعبر عن مختلف احداث الرواية .

---

1) نهاية الأمس ، ص : 69 .

ونحس عند قراءة الرواية بانّ الكاتب حافظ على نفس الايقاع من بداية الرواية حتى نهايتها ،حيث يظل الحوار هو الاسلوب البارز في نقل معطيات الواقع الخارجي ،الا أن ما يستوقفنا ونحن نتتبع مختلف انواع الحوار هو لغته ،أو بالاحرى مستويات هذه اللغة وطبيعتها . وبالرغم من أن رواية بان الصبح افرزتها مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر المعاصر ،وهي مرحلة السبعينيات التى شهدت نهضة اقتصادية وثقافية كبيرة جدا كان لها دورها في تحريك الأدب ،حيث اظهرت مناقشات المشروع التمهيدي للميثاق الوطني اختلاف مستويات اللغة، الاختلاف الذي يعكس المستويات الفكرية والمادية لشخوص الرواية ،والأوساط الاجتماعية التى تنتمي اليها (1) ودرجة الوعي عندها . وقد تعددت مستويات الحديث في الرواية ،وتنوع الحوار فيها . واستعراض نماذج من الحوار في رواية بان الصبح يبين هذا الاختلاف الذي يعكس في حقيقة الأمر تناقضات الواقع نفسه في ظل العلاقات الانتاجية الجديدة . فما يجرى على لسان دليلة ،ابنة الشيخ علاوة ،يختلف عمّا يجرى على لسان نصيرة صوناكوم يختلف من حيث مستوى اللغة التعبيري ، ومن حيث طريقة الكلام أيضا ،وبالرغم من التقارب في السن ،وفي المستوى التعليمي ،الاّ أن نظرة كل منهما لكثير من القضايا يختلف عن نظرة الاخرى . واذا أضفنا الى ذلك ما في الحوار من حركة وتلوين وصلنا الى النقطة التي أراد الكاتب ابرازها وهي الكشف عن الشريحة الاجتماعية التي تنتمي اليها كل واحدة منهما ،وهي الشريحة التي تحدد معالم الشخصية في نهاية الأمر ،وتحدد موقعها من الحياة. ونظرة متأنية الى هذا الحوار تبين ذلك تقول نصيرة صوناكوم :

-"في الواقع افراد أسرة واحدة يعيشون أحيانا عيشة المتساكنين الاعداء ،لكن أنا أرى الجزائر من زاوية أخرى .

1) بان الصبح ،ص: 132 ، 133 .

- من أي زاوية
- أنا أرى مجتمعنا أساسا مجتمع رجال ،فالنساء محكوم عليهن بالوقر في بيوتهن . فاذا ما خرجن فللحمام ،أو لبعض الاسواق في الدكاكين
- صحيح لكن علينا تغيير هذا الواقع .
- بماذا نغيره ؟ بقتل الاباء ؟ أو الاخوة ؟ أو الازواج ؟ أو الاحباب؟
- ليس الرجال كلهم سواء . اعداء المرأة في أي مجتمع هم اعداء الطبقات الكادحة .
- قد يكون ذلك وقد لا يكون ،المجتمعات الرأسمالية ليست حليفة للطبقات الكادحة ولكنها ليست عدوا للمرأة على كل حال "(1) . فالواقع الذي

يعكسه الحوار واحد ، لكن نظرة دليلة ،ابنة الشيخ علاوة لهذا الواقع تختلف عن نظرة نصيرة صوناكوم له ،فالاولى تراه اسود قاتما لا يمكن أن تقتحمه امرأة أية امرأة انه مجتمع رجال لا مكان فيه للمرأة ،وهي نظرة احادية الجانب لا تبصر حقيقة الصراعات التي تضطرب فيه ،وقد وضع الكاتب على لسانها ألفاظا حادة عنيفة مشحونة بالغضب (كالاعداء ،القتل ،مجتمع الرجال). ولغتها تحدد مستوى تفكيرها ،وتحدد انتماءها الى الطبقة البرجوازية وما تركته من بصمات على تفكيرها ،فهي تنظر الى المجتمع نفس النظرة الى اسرتها البرجوازية المتناحرة . فافرادها يعيشون عيشة المتساكنين الاعداء ، والمجتمع الذي حكم عليها أن تعيش فيه مجتمع رجال ،والمجتمعات الرأسمالية ليست حليفة للطبقات الكادحة ،ولكنها ليست عدوة للمرأة . اما حديث نصيرة صوناكوم فأكثر هدوءا و عمقا من حديث دليلة ،ونظرتها الى المجتمع ،نظرة

---

1) بان الصبح ،ص: 180 ، 181 .

متكاملة وشمولية ، تحاول فهم الواقع ، ومن ثم تغييره . ومشكلة المرأة في رأيها لا تحلّ بقتل الرجال كما اقترحت دليلة ، انما بالبحث عن جذور المشكلة ، لأنّ اعداءهما هم انفسهم اعداء الطبقة الكادحة ، وتعكس لغتها مستوى تفكيرها ، وتحدد انتماءها الطبقي أيضا .

واستعراض مختلف المستويات اللغوية أثناء مناقشة المشروع التمهيدي للميثاق الوطني يكشف بدوره عن اختلاف وجهات النظر من شخص الى آخر ، وعن اختلاف المستوى الثقافي والاجتماعي والفكرى للمناقشين ، ويبرز التناقض الكبير الموجود في الواقع .

وبالاضافة الى الحوار الذي لعب دورا كبيرا في انارة جوانب كثيرة من عالم المدينة ، وساهم في الكشف عن شخوصها نجد الكاتب يوظف أحيانا المونولوج الداخلي ، هذا التكنيك الذي يلتجيء اليه الكاتب في مناسبات معينة كأن تتأزم نفسية الشخصية ، أو تفقد علاقتها مع العالم الخارجي ، فيصبح المونولوج الداخلي الوسيلة الأكثر فعالية في اعادة التوازن للشخصية ، وفي خلق البديل لها .

وعن طريق المونولوج أحسسنا بما كان يحتدم في نفسية دليلة من سخط وثورة على المجتمع ، اذ حتى اللغة التي كانت تتحدث بها مع نفسها كانت عنيفه حادة ، وغير مهذبة أحيانا .(1) ووظف ابن هدوقة التكنيك نفسه مع الشيخ علاوة ، اذ استطاع بواسطته الكشف عن التناقضات الصارخة التي تعيشها هذه الشخصية ، ومن ثم تعرية الشريحة الاجتماعية التي تنتمي اليها . يقول ابن هدوقة على لسان الشيخ علاوة : " هؤلاء هم أبناء الدهاليز لو كنت

---

1) بان الصبح ، ص : 5 .

أنا السائق الذي وراءه لدفعت بسيارتي علو سيارته فدهكتها "(1) وقد استطاع الكاتب بواسطة المونولوج الداخلي أن يكشف عن اعماق شخصية علاوة ، مبرزا الحقد والكراهية التي يكنها الشيخ علاوة للفئات الشعبية في المجتمع، فهو يتمنى لو كان هو السائق للسيارة لداس السيارة التى امامه وحطمها ، ويكشف النص عن نظرة الشيخ علاوة المحتقرة للناس ، أبناء الدهاليز كما يسميهم، ونحسّ بتحرر الشخصية من الضغوط الخارجية وهي تتحدث مع نفسها ، وقد وظف الكاتب ألفاظا لها دلالتها الخاصة في الكشف عن أعماق شخصية الشيخ علاوة (ابناء الدهاليز ، فدهكتها) ونسجل ملاحظة أخرى ، ونحن بصدد الحديث عن البناء اللغوي في رواية بان الصبح ، واللغة ،وكشفها عن العلاقات الاجتماعية التى تربط بين مختلف الشخصيات وهي تطور مستوى اللغة، ونموها عند كثير من الشخصيات الروائية ، لا سيما الشخصيات النامية منها ، حيث يعتريها الكثير من التبديل والتغيير بحسب ما تتعرض له الشخصية من مشاكل وازمات ، ويمكننا ملاحظة ذلك مع شخصية " نعيمة " في رواية بان الصبح ، ابنة أخ الشيخ علاوة ، حيث كان لعامل الهجرة ، والالتحاق بالجامعة ، وما صادفها من مشاكل مع عمر بن عمها ، ومع الشيخ علاوة نفسه ، أثر كبير في تطوير شخصيتها ، ونضجها ، وفي نمو فكرها ، مما أثر بطبيعة الحال على مستوى لغتها .(2) كما نلاحظ ونحن ندرس الأساليب اللغوية عند ابن هدوقة ، انه بالرغم من كل الجهد المبذول على مستوى الاسلوب بهدف تحقيق الواقعية اللغوية لشخوصه الروائية ، واستنطاقهم بما يتناسب وواقعهم الاجتماعي الصحيح ، وذلك بتوظيف لغة ذات مستويات عديدة ، وبالرغم مما في الحوار

---

1) بان الصبح ، ص : 21 .

2) المرجع نفسه ,ص : 175 .

من جهد من أجل تنويعه وتلوينه ، وجعله اسلوب تعبير عن العلاقات الاجتماعية بين الشخوص ، الا أننا نحس بعدم تخلص الكاتب من الأساليب الكلاسيكية للكتابة، حيث نستثقل أحيانا بعض التعابير ، ونشعر بأن الكاتب يجري وراء اللفظة الغريبة في اللغة ، حتى وان كان المقام يرفضها . يقول ابن هدوقة " ومحو ما كان قدبقي في نفسه من موجدة عليه "(1). ونلاحظ أن كلمة " موجدة عليه " لم تنسجم مع سياق الجملة ، وبقيت غريبة داخل النسيج التعبيري العام . وضمن الكاتب اعماله الروائية الثلاثة اشعارا لكثيرة ظلت فوق السطح ، ولم تتغلغل في البناء اللغوي للروايات مما يعرقل في بعض الاحيان سير الاحداث ونموها ، كالقصة الشعرية الرمزية (2)، التي احتلت صفحات طويلة من رواية بان الصبح ، دون أن تثرى السياق الادبي العام للرواية . وذلك بالرغم من أنه كان بامكان الكاتب ايجاد علاقة عاطفية بين الشخصيتين نعيمة ورضا في رواية بان الصبح ، وجعل القصة الشعرية أحداثا ، وحوارا ، وكلاما واقعيا بين الشخصيتين دون اللجوء الى أجواء الرمز لأن العمل القصصي شئ ، والشعري شئ آخر مختلف عنه ، والجمع بينهما يعطل مسيرة الاحداث وتطورها ، ويضعف النفس الروائي عند الكاتب .

- 4 -

اهتم الكاتب عبد الحميد بن هدوقة كثيرا بالتراث الشعبي الجزائري، وكشف عن كثير من كنوزه الثرية لتأصيل شخصياته ، وربطها بالواقع أكثر، التراث

---

1) ريح الجنوب ، ص : 191 .
2) بان الصبح، من ص: 238 ، الى ص : 250 .

وما يحطه من شعر ،وأغان ،وطقوس دينية ، وحقلات شعبية ،وامثال ونكت، وعادات وتقاليد . فصاحب المقهى الوحيد بالقرية طتقى جميع القرويين ، عندما سمع بنبا وفاة العجوز رحمة قال في حزن : " ايه مسكينة !" ماذا تدى ياتراب من الزينين - يادراق وجوه الاحباب خسارة" (1) . وهو بيت من الشعر الملحون أحسن الكاتب توظيفه ،وعبر به عن حقيقة مشاعر صاحب المقهى وسكان الريف تجاه العجوز رحمة . والعجوز رحمة نفسها كانت لغتها مزيجا من المثل ،والنكتة ،والاغنية . وهذا التوظيف للتراث في رواية اتخذت من الريف اطارا مكانيا لها ساعد كثيرا على تأصيل شخوصها ،وربطهم بأرضية الواقع الريفي، بما اضفى عليهم من نكهة شعبية . اما النماذج التى اختارها الكاتب من التراث فمنها الايجابي الجيد الذي مازال يمارس تأثيره في الوقت الراهن ، ويتمتع بجماله ، وعمقه وايجابيته ، ومنها ما يحمل فكرا اتخلفا قديما ، ويعكس موقفا سلبيا من بعض القضايا الحساسة كهذين البيتين من الشعر الملحون حول موضوع المرأة ،ونظرة القدماء لها . المرأة المقرونة بالخداع والغدر ،والنفاق . ولعل الكاتب بكشفه عن هذه النماذج من التراث يحاول أن يلفت النظر الى ما يسود العقلية الشعبية من تناقضات . يقول : .

"سوق النسا سوق غرار * يا داخلو ردّ بالك
يورولك من الربح قنطار * ويخسروك في راس المال" (2)

ووظف الكاتب في رواية ريح الجنوب حرفة الفخار التي كشفت عما في شخصية العجوز رحمة من ثراء وأصالة ، كذلك في روايته الثانية نهاية الامس . ومادام

---

1) ريح الجنوب ،ص : 164 .

2) المرجع نفسه ،ص: 203 .

الاطار المكاني واحدا بالنسبة للروايتين ،فقد وجدنا حرفة الفخار في الرواية الأخيرة تمتهنها العجوز ربيحة ، وتقتات منها أيضا . وساعد هذا العنصر الكاتب كثيرا على تأصيل شخصية ربيحة ،وربطها بالريف حتى وهي منبوذة من طرف سكانه . كما ساعده على الكشف عن واقعها الاجتماعي ،والنفسي المتوتر. والسؤال الذي يمكن طرحه هنا ، ونحن نتحدث عن فنّ صناعة الفخار كوعاء لذكريات القرية وماضيها وأحداثها هو لماذا ربط هذه الحرفة بعجوزين ؟ أليست لفتة من الكاتب الى ضرورة الاهتمام بهذا التراث الذي بدأ ينقرض مع انقراض الجيل الذي يهتم به ؟ أم أن الكاتب ينبه الى أن التراث هو ثقافة الجيل السابق !

ويمكن أن نشير الى بعض العادات والتقاليد الريفية التي وظفها الكاتب في رواياته ،والتي مازالت تشد سكان الريف بعضهم الى بعض ،وتكشف في الوقت نفسه عن مدى تلاحمهم . وجاء الحديث عن هذه العادات ،والتقاليد بلغة تكاد تكون متفردة بخصائص معينة ،حيث استطاع الكاتب أن يتحسس نكهتها الشعبية . وعادة " الوزيعة " التي لفت الانتباه اليها في رواية نهاية الأمس لا تكشف عن اقتراب الكاتب من منابع العادات التي لا زالت تحتفظ بقيمتها فحسب ،بل عن نوع اللغة التي تستعملها الفئات الشعبية الواسعة فهي لغة أقرب ما تكون الى العامية ،ومع ذلك فهي فصيحة يقول ابن هدوقة: " يا الي يمسيكم بالخير والهناء والعافية ، غدوة راها الوزيعة يا الي يمسيكم بالخير والهناء والعافية ،غدوة راها الوزيعة ، واللى يحب يجرد روحو يجي للقهوة راها الوزيعة ، واللى يحب ولادو يأكلو اللحم يجي للقهوة يُجرد روحو"(1). انها لفتة جميلة من الكاتب الى ما يزخر به الـريف الجزائري من عادات

---

1) نهاية الأمس ، ص : 177 .

مازالت تحتفظ بقيمتها الاقتصادية على السواء ، وتمثل قاسما مشتركا بين الناس عادة تسمح لكل العائلات في الريف من أن تأكل اللحم بمبلغ متواضع . كذلك اللغة التي عبّر بواسطتها عن هذه العادة الريفية الجميلة ، وهي لغة شعبية، بسيطة اعتمد فيها على خاصية التكرار لبعض الجمل من المقطع ، كما تجرى العادة في الأوساط الشعبية كي يصل النداء الى مسامع الناس . ونقل الكاتب كثيرا من اللوحات الفنية لمظاهر مختلفة من الحياة الريفية ، ورسم صورا لبعض الافراح ، والتجمعات القروية كحفل الختان الشعبي الذي جرى بأحد البيوت القروية،(1)
وفي روايته الأخيرة بان الصبح نقل كثيرا من العادات والتقاليد التي تمارسها بعض العائلات في الاعراس ، وفي السهرات الليلية . وبواسطتها كشف عن الشرائح الاجتماعية التي تنتمي اليها هذه الأسر ، كاللوحة التى رسم فيها حفل زفاف ابنة عبد الجليل " دنيا " الحفلة التى سماها " أمسية اندلسية "، وتكشف اللوحة عن الابعاد المختلفة لهذه الأسرة ، وللطبقة البرجوازية يقول ابن هدوقة :
" في نهاية الأمسية أخلي جانب من الباحة ، وضرب سماط يتكون من عدد من الطاولات مفروشة بالحشائش والزهور ، وأوراق الكروم ، وجوّ بالبصل الطري والخبز والمناشف . ثم اقبل حملة الخراف المشوية في موكب تشبثت به الابصار !
كانت الخراف سبعة ، شويت خصيصا لهؤلاء الخلان . ومثلها قدم للنساء . . .
وضع بافواهها ورق الخسّ ونصبت على الخوان كالقطيع المتتابع . . ."(2)

1) نهاية الأمس ، ص : 226 .
2) بان الصبح ، ص : 209 .

الباب الثاني

في أعمال الطاهر وطار

لا نستطيع فهم موضوع الثورة الوطنية عند الكاتب الطاهر وطار ما لم نقتحم معه الازمنة الثلاثة كما فعلنا مع الكاتب عبد الحميد بن هدوقة من قبل بسبب ما بين هذه الازمنة من تداخل وتأثير وتأثر . وقد عايش الطاهر وطار أحداث الثورة الوطنية بكل أعماقه : عايشها ككاتب في وقت كانت فيه الكلمة محاصرة من جميع الجهات ، وانخرط في صفوفها (1) الى جانب فئات الشعب الاخرى ،وتحدث عنها ابان حدوثها في قصص قصيرة(2)،وأفرد لها عملا روائيا بكامله بعد أن انتهت كحركة مسلحة . وجاءت كخلفية ايديولوجية لكثير من رواياته فيما بعد ،مثل الزلزال ،والعشق والموت في الزمن الحراشي .

والسؤال الذي يطرح هنا هو كيف تناول الكاتب أحداث الثورة الوطنية وهل تمكن من تصوير الواقع أثناء هذه المرحلة ؟ ..

وبادئ ذي بدء نلاحظ أن أحداث الثورة الوطنية تفلت من قبضة الماض عن طريق ذكريات أهالي الشهداء ،وهم يصطفون أمام المكتب في انتظار منح شهدائهم ، وبواسطة هذا الدمج للزمنين تبدأ رحلة الكاتب في استرجاع الذكريات وفي انارة جوانب كثيرة من واقع الثورة الوطنية الاجتماعي ،والسياسي ،والاقتصادي

---

1) في استجواب لمجلة اليسار العربي ،قال انه وضع نفسه تحت تصرف الثورة بصفة عطية سنة 1956 ،قام باستجوابه الاستاذ محمود الراشد،1981/2/28عد
2) مجموعة دخان من قلبي ،الطاهر وطار ،صدرت في تونس ،سنة 1962 .

والتاريخي . وتنطلق أحداث رواية " اللاز " من مكتب المنح . وهذه البداية تطرح أكثر من سؤال ، فهل يعني أن الثورة الوطنية أصبحت كغيرها من الحوادث ترقد في سجلات المكاتب والادارات ؟ أم أنها اشارة الى صعوبة الاتصال بين مرحلتين زمنيتين مختلفتين رغم التأثير المتبادل بينهما ؟

يبدأ الكاتب رحلته في غضون الماض ، يتتبع الحالة العامة للبلد : الفقر المعشش في زوايا البيوت ، وأكثر الناس حظا من يعثر على عمل ، وأي عمل مقابل عشرين أو أربعين (دورو) في اليوم يستنزف حتى النخاع ، والاراضي تؤخذ من أصحابها بالقوة لتصبح في حوزة أحد الاعيان ، أو يضيفها معمر الى ممتلكاته ، ويشغل صاحبها عنده مقابل قوت يومه ، وقوت عياله ان كان سخي اليد ، والتجنيد الاجباري ، ومغادرة الشباب للقرى والمدن (1).

---

1) ولد الطاهر وطار عام 1936 في قرية مداوروش بالشرق الجزائري ، بدأ يتعلم اللغة العربية في قسنطينة ، والتحق بعدها بجامعة الزيتونة في تونس انخرط في صفوف الثورة سنة 1956 ، وبقي معها حتى الاستقلال . أسس أول جريدة اسبوعية في الجزائر المستقلة تحت عنوان " الاحرار " وأصدر جريدة أسبوعية أخرى بعنوان " الجماهير ". أشرف على الملحق الثقافي لجريدة الشعب .

صدر له من المؤلفات :

- ثلاث مجموعات قصصية ، دخان من قلبي (1962) ، والطعنات (1971) والشهداء يعودون هذا الاسبوع (1974) .
- وسرحية واحدة ، الهارب (1971) .
- وخمس روايات ، اللاز (1974) ، والزلزال (1974) ، وعرس بغل (1978) والحوات والقصر (1980) ، والعشق والموت في الزمن الحراشي (1980) .

ينتقي الكاتب كثيرا من اللوحات المعبرة عن حالة الناس الاجتماعية، فيتحدث عن همومهم، وعن صراعهم اليومي من أجل لقمة العيش، وعن انسحاقهم تحت عجلة الاستغلال. يقول واصفا حاله " حمو " الاجتماعية المتدهورة :

" يبدؤه عادة حمو، بالتشكي من وضعه العائلي، ومن عمله المرهق في كهف ضيق، وسط الزبل والأدخنة يصارع الفرن ليسخن ماء الحمام يا ابن عمي والله ما هي بخبزة. أربعون (دورو) في اليوم، وأربعة عشر فما مفتوحة الدقيق بعشرين (دورو) للكيلو والزيت باربعين، والصابون بخمسة عشر القالب، وزد (معيشة) كلاب والله "(1).

يصور النص واقع " حمو " الاجتماعي، ومعاناته اليومية، ومن خلاله يتكشف واقع الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها " حمو "، الطبقة الفقيرة المستغلة مقابل أجر زهيد لا يستطيع ملء الأفواه الكثيرة المفتوحة، ويواجه ارتفاع أسعار السلع. وقد كان للالفاظ التي وظفها في هذا النص دلالتها الخاصة في التعبير عن حالة البؤس التي يحياها " حمو " وكل الطبقة الفقيرة آنذاك : (التشكي، الكهف، الزبل، الأدخنة، يصارع) كذلك الدلالة التي يحملها التعبير الشعبي " معيشة كلاب والله " في الكشف عن واقع هذه الطبقة. وتتوالى الصور الملتقطة من زوايا المجتمع. حاول الطاهر وطار من خلالها رصد حركة الواقع الاجتماعي لتلك المرحلة، وتتبع حالة الناس من خلالها. هذه الحالة التي باتت تنذر بالانفجار، وبتغيير الوضعية الموجودة. والرواية مليئة بصور البؤس التي يحياها الناس، والتى انعكست على مشاعرهم، وتصرفاتهم، وتركت بصماتها في ذاكرتهم بعد أن التحقوا بصفوف الثورة.(2)

---

1) اللاز، ص : 26 .
2) المرجع نفسه، ص : 102 .

والكاتب ، وهو يسترجع ذكريات الثورة الوطنية ، ويحاول تركيب الواقع الاجتماعي آنذاك ، لا يتوقف عند ظاهر هذا الواقع ، بل يغوص في أعماقه وأعماق الشخصية متتبعا مختلف الأحاسيس التي تتحرك بداخلها ، وكاشفا عن كثير من التناقضات التي تعيشها ويعيشها الواقع بدوره . فحمو ، الشخصية المدمرة في فرن الحمام ، المسحوقه تحت عجلة الاستغلال ، يدفعه واقعه المرير الى أن يرمي بطفل من صلبه في الفرن ، يقبله ثم يرميه بداخله ، ويتابع عمله الشاق(1). ومن خلال تتبع الكاتب لحياة شخصياته الاجتماعية ، واهتمامه بانتماءاتهم لطبقية، يقوم بدراسة وتحليل الطبقة الفقيرة بجوانبها المختلفة ، فيتحدث عن المهن التى كانت تمارسها من رعي ، وزراعة ، وبيع وشراء(2) وما يصاحب هذه المهن من تنقل ، وعدم استقرار ، وفوضى . ويتحدث عن واقع الطبقة الفقيرة في سنوات الحرب العالمية ، وأعوام المجاعة القاسية .

والى جانب اللوحات الكثيرة التى جسدت آلام وبؤس الطبقة الشعبية في معاناتها اليومية ، يستعرض الكاتب جانبا آخر من جوانب الحياة الاجتماعية لتلك المرحلة . فعن طريق أسرة الشيخ " الربيعي " والد قدور يتم تقديم شريحة اجتماعية أخرى ، والدور الذي لعبته اثناء الثورة الوطنية . والكاتب لا يصف هذه الشريحة من خارجها ، بل يتعمق في فهمها ، محللا مختلف التناقضات التي تمور بداخلها ، فالشيخ " ربيعي " ربّ هذه الاسرة يمتهن التجارة ، ويملك دكانا وبقرة وبعض الغنم ومن ثم فوضعه المادي أحسن بكثير من وضع غيره من ابناء القرية ، وبواسطة هذه الاسْرة يكشف الطاهر وطار عن شريحة البرجوازية الصغيرة أو المتوسطة كما يسميها آخرون ، ومواقفها المختلفة من الثورة. يقول

---

1) اللاز ، ص : 28 .

2) المرجع نفسه ، ص : 194 .

في حوار بين قدور وحمو :

"حدث قدور نفسه ثم تساءل :
- ياحمو ،من تغير منّا ؟
- لا أنا ولا أنت الظروف تغيرت . أنا فقير ،فقير جدا ،أقل من الفقير . .
وأنت متوسط الحال ،بل غني ،دكائكم يعمر شيئا فشيئا ،وأرضكم صرتم تفلحونها وحدكم ،بعد مدّة تشترون شاحنة وبعد مدّة أخرى تشترون جرارا ، وتكبرون ،تكبرون حتى لا يبقى في امكانكم تمييز من تحتكم . . . نحن لا شيئ يربطنا بالماضي ،وأنتم لا شيئ يدفعكم الى المستقبل ،ولم يبق بيننا الا رابط واحد ،هو الحاضر . . ."(1)

من النص يتكشف الفارق بين المستويين حمو الفقير ،وقدور بمستواه المادي المتوسط أو الراقي تجارتهم تتسع ،أرضهم يشرفون عليها بأنفسهم وبامكاناتهم الخاصة . . . ثم مشاريع المستقبل المتعددة . . . واذن لا يجمع بين قدور وحمو غير الحاضر .

ولكي يتم تركيب واقع الثورة الوطنية الاجتماعية ،تناول الكاتب بالحديث طبقة أخرى مارست تأثيرها على الحياة الاجتماعية . ومن خلال حديثه عن هذه الطبقة وتحليل واقعها ،كشف عن كثير من ألوان الاستغلال التي كانت تمارسها ضد الطبقة الفقيرة المحرومة ،وأظهر زيف ونفاق الطبقة البرجوازية، وجشعها ، وصراعاتها الداخلية الحادة . يقول الكاتب على لسان احدى شخصيات رواية : " اللاز " :

" وذاك بتنهداته المتواصلة ،وعبوسه المستمر ،وتساؤله المسترسل لماذا

---

1) اللاز ، ص : 50 .

خلقه الله في البلاد ، ولماذا هو أخ لستة عشرين ذكر لاعمل لهم الآ انتظار الغداء والعشاء والليل والنهار . والدهم رفض أن يتنازل لأي منهم عن المساهمة في العمل في مزرعته خشية أن يسرقوه .. لا ينفك يتضرع الى الله أن يخفف من وطأتهم عليه بأن يحمل الى جنته أو ناره ،كما يشاء ،حتى نصفهم أو ثلاثة أرباعهم .. ويفشي غيظه في زوجاته العديدات ،دون أن يرحم حتى الصغرى التي لم تنجب له سوى أربعة اخوة في دفعتين لم تستغرقا سنتين كاملتين كلما أراد أن يتزوج من جديد ،طلق الكبرى بالثلاث وتركها في زاوية مهملة دون أن يسمح لها بالالتحاق بأبيها أو أحد أقاربها "(1).

والنص يكشف عن واقع الملاكين الكبار آنذاك : في جشعهم ،وفي نفاقهم، وفي عدم استقرارهم ،وفي تخوفهم على مصيرهم ،ومصير أملاكهم ،وهو ما يفسر التناقض الذي بدا على تصرفات هذا الاقطاعي : رغبته الملحة في الانجاب التي كانت تدفعه في كل مرّة الى الزواج من جديد ،وتصرفاته تجاه أبنائه ،وحرمانهم من العمل في مزرعته خوف السرقة . وهو التناقض الذي عرفه الفكر الاقطاعي نفسه في هذه المرحلة . ويكشف النص أيضا عن انحلال وتمزق وضياع أفراد هذه الطبقة .

- 2 -

وبعد أن حلل الكاتب واقع الثورة الوطنية الاجتماعي ،مبرزا خصائص كل طبقة من خلال ممارستها للحياة اليومية ،نجده يلجأ الى رسم الخلفية التاريخية

1) اللاز ، ص: 55 ، 56 .

للمرحلة نفسها ، والظروف العامة التي رافقت الثورة الوطنية : آثار الحرب العالمية على المنظومة الدولية ، والوضع المتفجر في أماكن عديدة من العالم وشبح المجاعة الذي كان يهدد حياة الناس ، وظروف القارة الافريقية التي كانت تتعقد يوما بعد يوم .(1)

والكاتب لا يتناول الثورة الوطنية بمعزل عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد ، بل يراها نتيجة طبيعية لما آلت اليه حياة الناس من سوء وتدهور ومن هذا المنطلق يبدأ في تشكيل بانوراما الثورة الوطنية بتسليط الضوء على فترة زمنية من تاريخها .

تأخذ الثورة الوطنية عند الطاهر وطار منذ البداية معنى التغيير، والتبديل لما هو كائن . وهو يحملها معنى الصراع بين المستغلين/ والمستغلين مهما كانت طبيعتهم ، ثم يتعمق النضال ويأخذ بعدا طبقيا ، ولا ينحصر في نطاق رفض الاحتلال الاجنبي فقط . يقول الكاتب على لسان زيدان :

" يخرج الفرسيون ، يفقر الاغنياء وينعدمون ، ينام جميع الناس على الشبع، نقرأ كلنا ، نتعلم العربية والرومية بما فيها الانجليزية والالمانية والروسية ، يصبح الحاكم من عندنا ، والشانبيط والخوجة والقائد والشرطي منا ، نصير فاهمين نظيفين ، جميلين محترمين ، كالفرنسيس "(2)

من خلال هذا النص يتضح مفهوم الكاتب للثورة ، ورؤاه المستقبلية أيضا . فالنص يبدأ بالجملة الفعلية " يخرج الفرنسيون " تليها جمل فعلية أخرى : " يفقر الاغنياء " ، " ينام جميع الناس على الشبع " . تبدأ الجمل بأفعال

---

1) اللاز ، ص : 25 .
2) المرجع نفسه ، ص : 43 .

المضارع الطيئة بالحركة ، والمبشرة بالمستقبل الاتي ، المستقبل الذي يحمل معه تباشير النصر عندما يخرج الفرنسيون . لكن الكاتب لا يتوقف عند هذه الفكرة : فالجملة تليها جملة " يفقر الاغنياء "، أي أن الثورة ستحرر فئات الشعب من الاستعمار ، وتحررها أيضا من استغلال الاغنياء . وتأتي الجملة الثالثة التي تحمل في مدلولها معنى التحرر الحقيقي كما يراه الكاتب ، التحرر الذي يحقق الشبع لجميع الناس ، وليس لفئة على أخرى . وفي الجمل الفعلية الاخرى يضم الكاتب صوته الى اصوات فئات الشعب الأخرى عندما يستعمل الفعل " نقرأ كلنا "، " نصير فاهمين ". ففي هاتين الجملتين يتوحد الكاتب مع من يكتب لهم ، يعتبر نفسه واحدا من بين ملايين الجزائريين المستغلين ، يريد أن يتحقق النصر كي يتعلم ، ويتطور ، ويتفتح على الثقافات الاخرى شأنه في ذلك شأن بقية الناس .

ومن هذه الزاوية أيضا يستعرض الكاتب تشكيلة المنخرطين في صفوف الثورة ، محاولا ربط واقعهم الاجتماعي والاقتصادي بواقع الثورة نفسه . فيرى أن أغلبية المناضلين فقراء كادحون ، انحدروا من أوساط جد فقيرة في المجتمع (1) وذاقوا مرارة البؤس ، والحرمان ، فكان اقتناعهم بالثورة عميقا وجذريا ، اذ سرعان ما انخرطوا في صفوفها ، وقذفوا بأنفسهم في تيارها الجارف غير آسفين على ما خلفوه من ورائهم . فالثورة الوطنية كانت بالنسبة لهؤلاء المخرج الوحيد من هذه الوضعية المتدنية . وقد تمكن الكاتب وهو يستعرض هذه الشريحة الاجتماعية من الغوص في أعماقها ، وتحليل أحاسيسها ، ومشاعرها وطموحاتها وآلامها وآمالها حتى في أحرج الاوقات التي مرّت بها .

---

1) مجلة الثقافة الجزائرية ، عدد 33 ، سنة 1976 ، مقال للدكتور جودت الركابي : قصة اللاز للطاهر وطار ، ص : 83 .

ونقل الكاتب صورا كثيرة عن واقع الثـ رة الوطنية جسّد فيه جهود ونضال الطبقة الكادحة في كفاحها ضد قوى الاستغلال ، والمحتل الأجنبي ، حيث لعبت كثير من الشخصيات المنحدرة من هذه الأوساط دورا كبيرا في تحريك أحداث الرواية : كاللاز ، وحمو ، وزيدان يقول الكاتب عن قدور :

" ومنذ الغد،بدأ العمل مع حمو .. شراء الأدوية والأحذية ، والمواد الغذائية ، وارسالها الى حيث لا يدري ... وكم ذهل حين رأى حمو الفقير البئيس ، يخرج الملايين من جيبه ، بينما عائلته تتضور جوعا ، ولباسه ممـزق رثّ كالعادة ، بل وعطه الشاق لم يتغير ، شعر بعطف واحترام ، لهذا الصديق العجيب .. وفهم أكثر من قبل ، أن الثورة ، ان هذا العمل الذي يقوم به حمو ، وزيدان ، وكل الفقراء ، وحتى هو أخيرا ، عمل جاد عظيم ، لابدّ أن يغير الأوضاع فعلا كما يقول حمو ... "(1)

ويمضي الكاتب في تعرية واقع الثورة الوطنية ، وتحليل تناقضاته ، فيكشف النقاب عن شريحة اجتماعية أخرى ، ودورها في المعركة ، ومثلث هذه الشريحة أسرة الشيخ "الربيعي" وعن طريق ابنه "قدور" تحدث عن البرجوازية الصغيرة ومواقفها المختلفة من الثورة الوطنية ، هذه المواقف التي تحكم فيها كثيرا المستوى المادي لأفرادها وقد حلل ما اعترى هذه الشريحة من تذبذب في بادئ الأمر عندما كانت تتأرجح بين موقفين : الانخراط والمساهمة الى جانب الفئات الأخرى في تغيير وجه الواقع الجزائري ، أو الحياد والتفرج من بعيد على الثورة، ثم ما يترتب على كل موقف من نتائج . والفرق بين شخصيتي "اللاز" و "قدور" أن الأول اندفع الى الثورة فور اندلاعها بينما الثاني

---

1) اللاز ، ص : 51

تردد ، واحتار بادئ الأمر بين أن يقتنع ا يقوم به حمو ، وزيدان ، ويمضي معهما ، تاركا كل شيء ، وبين أن يلتزم الحياد ويواصل تجارته ومشاريعه ، وغرامياته مع زينة . يقول الكاتب في تحليل نفسية " قدور " وما اعتراها من تردد :

" ويخيل لقدور أنه غائص في الأعماق .. أعماق الأعماق . في بئر عميقة .. ينادي بالانقاذ ، ويمتد له حبلان واحد أبيض يمثل يد ريمون أوجان جون أو الحاج الطاهر .. وآخر أسود ، يد اللاز أو يد حمو أو يد زيدان ... أو يده هو بالذات فيحتار بأيها يتعلق .

الذبح من جهة ، والرصاص من جهة ... امّا وامّا .

ويقرر ببساطة أن يتعلق بالحبلين معا ... الأبيض الأسود . لكنه يظل كما كان ، لا يتحرك ، ينادي بالانقاذ ، وكلما جذب الحبلين انجذبا واستقرا تحت قدميه كورا كورا ..

ويظل المشكل أبدا مطروحا ... بأي الحبلين يمسك ؟ ويتساءل : وماذا لو نبقى هكذا ، كل واحد على حاله ؟

ويأتيه الجواب صارما متحديا هادرا عنيفا كالرعد :

وراس ابن عمي ، فات الحال اما واما الشامي شامي والبغدادي بغدادي ، الذبح من جهة ، والرصاص من جهة "(1) .

بأي الحبلين يتعلق "قدور" ؟ هذا هو السؤال الذي كان يسأله " قدور" وتسأله البرجوازية الصغيرة حينذاك بلحظات حرجة وصعبة في نفس الوقت .

---

1) اللاز ص 46 ، 47 .

أتتعلق بحبل من الحبلين أم تظل كما هي تتفرج ؟ الى أن يرتفع صوت حمو في داخل "قدور" ،صوت الثورة المنيف كالرعد (اما واما) وهو القول الذى حسم المعركة وأخرج "قدور" من دائرة التردد والشكوك . ويكشف النص أيضاً عما تتصف به البرجوازية الصغيرة من " هلا مية وزئبقية في الموقف وبكل مايتركه عليها موقعها الانتاجي من صفات فهي دائما في حالة بحث عن مرساة تستقر عليها "(1).

وعن طريق التحليل لشريحة البرجوازية الصغيرة التي ينتمي اليها "قدور"، وفهم مختلف التناقضات التى تعيشها بين ما اعترى هذه الشريحة من تغيير وتطور ،حيث استطاعت أن تلعب دورها الكامل الى جانب فئات المجتمع الأخرى، وتساهم في صنع الوجه الآخر للبلد .

واستعرض الكاتب ،وهو يقوم بعملية تصوير للواقع الاجتماعي أثناء الثورة الوطنية طبقة اجتماعية أخرى من حيث تأثيرها على البناء الاجتماعي من جهة والدور الذي لعبته اثناء الثورة الوطنية من جهة ثانية . وتضم هذه الطبقة ملاكي الأراضي الكبار ،وكبار التجار .(2) وعن طريق تحليل قاعدتها الاقتصادية، يستعرض مختلف الوسائل التي جمعت بها ثرواتها ،ويكشف عن طرق الاستغلال التى كانت تمارسها على الطبقة الفقيرة ،ثم علاقتها بالاستعمار فيما بعد .

وبعد تعرية الطبقة البرجوازية ،وتحديد مستوياتها المختلفة ،يحدد الكاتب موقف هذه الطبقة من الثورة الوطنية ،ومن الطبقات الأخرى التي كانت خاضعة لها بشكل أو بآخر .

---

1) مقال لعبد الرزاق عيد ،ملحق الثورة الثقافي السورية العدد العاشر 13 / 5 / 1976 . شخصيات اللاز والبعد السيكولوجي .
2) اللاز ، ص: 119 .

ونلاحظ سواء في رواية " اللاز " ،العمل الروائي المخصص للثورة الوطنية، أو رواية " الزلزال " ،التي استعرض فيها أحداث مرحلة زمنية أخرى من مراحل الثورة الوطنية ،وفي روايته الاخيرة ،" العشق والموت في الزمن الحراشي "،أن الكاتب يقرّر تعامل هذه الطبقة مع قوى الاستغلال الاجنبي ،وحتى الفئات التي لم تتعامل مع القوى الاجنبية أبدت تحفظها ازاء الثورة الوطنية . وهذا ما ساعدها على الاثراء والتمتع بكثير من المزايا الاجتماعية التى حرم منها السواد الاعظم من الجزائريين ،ويرى أنها الطبقة الوحيدة التي تملك أراضي فلاحية الى جانب المعمرين ،مما جعلها تمارس هيمنتها واستغلالها للطبقات المحرومة المستغلة مرتين . وهذه احدى اللوحات التى وصف فيها الكاتب بعضا مما كان يحدث بين القوى الحية الصانعة للثورة ، وقوى الاستعمار والعملاء . يقول على لسان أحد الثوار الذي ذبح سبعة أشخاص في ليلة واحدة معظمهم أغنياء ; "كان يردد كلما سألته :

وحق بيت الله الحرام .

اعترف بانه يبلغ عنّا لأننا حفاة عراة ،نعجل بقيام الساعة ، كما قال الرسول الاعظم .. ليس بيننا غني أو حاج .. كيف تريدون أن أرى رعاتي يأمرونني أن أحمل لهم صينية القهوة بنفسي، وأن اشترى لهم عمائم الحرير ، وقشاشيب الصوف . اذبحوني عجلوا ،عجلوا قبل أن تقوم الساعة . قال عليه الصلاة والسلام : تقوم الساعة حين ... ولم يتم الجملة . هويت عليه بقوة ،طار رأسه بعيدا . وبانت العمامة في الظلمة بيضاء ناصعة هتف بجملة ممزقة انتظرت أن يردد الشهادة فلم يفعل لا قبل ولا بعد .. عليه اللعنة .."(1) فالموقف الذي اتخذه هذا الفني من الثورة موقف طبقي واضح ، يرفضهم لأنهم

---

1) اللاز، ص : 151 - 152 .

مختلفون عنه طبقيا ، وثورتهم لا تضم الاغنياء ، وحجاج البلد ، والذبح بالنسبة اليه أهون من أن يرى الواقع من حوله يتغير .

وفي رواية "اللاز" لوحات كثيرة ، مشابهة للوحة السابقة ، عبّر الكاتب من خلالها عن مختلف المواقف التي اتخذتها الطبقة الاقطاعية من الثورة .

وتتوالى الصور المستمدة من واقع الثورة الوطنية ، تناول فيها الكاتب بالحديث بعضا من المعارك التى دارت رحاها بين الثوار ، وبين قوى الاستغلال الاجنبي ، والقوى المتواطئة معها ، حيث أبرز نوعية الصراع الذي أعطى الأمل للطبقات الشعبية ، فحمو الفقير المعروف بحَماسه الكبير للثورة يطمئن ، وترتفع معنوياته وتزيد ثقته في الثورة الوطنية ، عندما يعرف أن أغلب من تذبحهم الثورة اما فرنسيون ، واما اغنياء : اعيان ، وقياد وخوج ، وشنابيط .(1) .

- 3 -

وبعد اعادة تشكيل الواقع الاجتماعي للثورة الوطنية ، وتعرية مختلف الأوساط والغوص في أعماقها ، يكشف الكاتب عن كثير من الخلافات التى كانت تعيشها الثورة الوطنية على مستوى القاعدة ، والقيادة السياسية نفسها . اذ بالرغم من الأمل الكبير الذي كان يدغدغ مشاعر الفئات الشعبية في تغيير واقعها فان هناك من انحرف عن خط مسار الثورة ، والتحق بالسلطات الفرنسية ، أو تعامل

---

1) اللاز ، ص : 41 .

معها سريا بنقل أسرار المناضلين ، ومتابعة تحركاتهم ، ونقلها الى أجهزة المخابرات الفرنسية كما حدث " لبعطوش " ، أحد شخوص رواية " اللاز " هذه الشخصية التي جذ بها بريق النياشين فارتمت في أحضان المستعمر، وراحت تعمل لصالحه . ونالت شخصية " بعطوش " نصيب الأسد من روايتي " اللاز " ورواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " فسلط عليها كثيرا من الاضواء بعد موت " زيدان " في رواية " اللاز " وتابع مسيرتها في الجزء الثاني من اللاز . وهو رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي "، وناقش من خلالها فكرة الخيانة بالنسبة للثورة ، هل هي مسألة نسبية أم مطلقة ؟ وهل يمكن اصلاحها أم لا ؟

تكشف أحداث الجزء الاخير من رواية " اللاز " أن بعطوش " الذى كان آلة في يد المستعمر ، ينفذ بواسطته ما يستطيع من المخططات الجهنمية في القرية ، و" بعطوش " الذي ضاجع خالته ، وقتلها ، وقتل آخرين أيضا - يلتحق بالثورة بعد أن دمرّ الثكنة ، رمز القوى الاستعمارية . وفي رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " يناقش الكاتب في شخصية " بعطوش " فكرة الخيانة، ويرى أن خيانته للثورة لم تكن مطلقة ، لانه لم يكن من ورائها مصالح معينة ، وأن الذي منعه من الخيانة المطلقة هو موقعه الطبقي (1) الذي صحح مساره فيما بعد ، لكن الذي يبدو غريبا في هذا السياق هو جعل مصير كثير من المناضلين الوطنيين في يد " بعطوش " الذي أصبح " يحل ويربط " بعد الاستقلال (2)! فماذا يريد الكاتب من وراء ذلك ؟ أهي ادانة للمرحلة التي تلت الثورة الوطنية ؟ أم هي اشارة الى التناقضات التي أفرزتها المرحلة الجديدة ؟

وتناول الكاتب واقع الثورة الوطنية السياسي بالنقد ، واستعرض مختلف

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 198 .
2) الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام ، الدكتور محمد مصايف ، ص : 49 .

التناقضات الايديولوجية التي عاشتها القيادة السياسية آنذاك ، كذلك الخلافات السياسية التى عرفتها . ويبّن ذلك من خلال بعض شخصيات رواية " اللاز " التي حددت مواقعها الطبقية مواقفها الفكرية . فزيدان مثلا المنحدر من الأوساط الشعبية ، ذو التجربة النضالية الطويلة المؤمن بضرورة التغيير لم يكن ينظر الى القضية من جانبها السياسي فحسب ، بل كان يريد أن تتبنى الصراع الطبقي من البداية ، كان يرى أن التفكير في اخراج المستعمر يجب أن يصاحبه التفكير في تغيير حالة الناس الاجتماعية ، وفي ازالة القهر ، والاستغلال عنهم . و" زيدان " لم يكن يفرق بين قوى الاستغلال الاجنبي ، والقوى الداخلية التي تتعامل معها ، ولا بين النضال الذي يخوضه الشعب من أجل تطهير الوطن وبين ما يقوم به من أجل تغيير واقعه أيضا .

وبالرغم من أن " زيدان " كان يعمل على تعزيز الشعور الوطني عند المناضلين كخطوة في طريق التحرر العام الا أنه كان يتعامل معهم بروح الديمقراطية ، والمسؤولية الجماعية يقول الكاتب على لسان زيدان :

"... المهم في الوقت الراهن أن يقوى ايمانهم بوطنهم ، وحريته ، وعلى مرّ الزمن سيكتشفون بأنفسهم أن الاغنياء ، مثلهم مثل المستعمرين ، أعداء اليوم وسيظلون أعداء ما داموا موجودين ، وحتى اذا قهروا وأحنوا رؤوسهم سرعان ما يسترجعون ويسيطرون على الوضع ..."(1)

"فزيدان " اذن يجعل مسألة تحرير الوطن بداية العمل الثورى الذي من به وبمرور الزمن سيكتشف المناضلون أن أمامهم مهام وطنية أخرى سيدركون أن الأغنياء شأنهم شأن الأعداء الذين يحاربوهم أعداء للوطن ، وللطبقات

---

1) اللاز ، ص : 161 — 162 .

أيضا . ومن ثم فلم يكن الحوار متكافئا (1) بين الشخصيتين اللتين تمثل كل واحدة منهما فكرا ، وموقفا ، ورؤية للثورة الوطنية .

- 4 -

ولم يتناول الكاتب الثورة الوطنية بمعزل عن حركات التحرر العالمية ، فقد حرك أحداثها في اطارها التاريخي الصحيح ، وربط بينها وبين حركات التحرر الأخرى ، وحلل الظروف العامة التى فجرت هذه الثورات ، وقارن بينهما محاولا ايجاد العوامل المشتركة بينها . فتحدث عن الاوضاع المتدهورة في تونس ، والمغرب ، وتحدث عن علاقة الثورة الوطنية بثورات بلدان كثيرة في العالم تعيش الظروف نفسها ، وتحدث عن المصير المشترك لهذه الثورات التي تعمل شعوبها على التحرر من وطأة الاستغلال . وفي حديثه عن علاقة الثورة بحركات التحرر الأخرى كان يحلل معطياتها العامة ، فيرى أن جميع الشعوب بريئة من الحروب ، وبريئة من جرائم القتل والتدمير ، انما المسؤولية تتحملها الأنظمة الاستعمارية التى تدفع بالشعوب الى الحروب والى الموت . يقول :

"لسنا وحدنا نطمح لكل هذا .. هناك أيضا المصريون ، والتونسيون والمغاربة ، وحتى الكفار أيضا .. فيهم من يعاني مثل وضعنا ، ففي الهند الصينية أناس مثلنا ، ولو أن دينهم يختلف عن ديننا .. كان يحكمهم الفرنسيون

1) الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . الدكتور محمد مصايف ، ص : 44 .

فثاروا عليهم وغلبوهم ، وهربت فرنسا منهزمة . ديان بيان فو ، حتى الذين لم يخلقوا بعد يسمعون عنها "(1)

وقارن الكاتب بين الثورة الوطنية الجزائرية ، وثورات أخرى في اطار الرؤية المستقبلية لهذه الثورات . فتحدث عن ثورة الكومونة الفرنسية وقارنها بالثورة الوطنية من جهة ،(2) ومن جهة ثانية قارن بينها وبين الحركة التي تمت في مصر .(3)

والسؤال الذي يطرح نفسه ونحن نتابع مع الكاتب اعادة تشكيل واقع الثورة الوطنية بأبعاده المختلفة هو كيف كان حضور المرأة في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الجزائر ؟

تكشف رواية "اللاز" التى تناول فيها الطاهر وطار أحداث المرحلة الاولى من الثورة الوطنية عن حضور قليل جدا للمرأة ضمن ما قدم من أحداث . وعدا بعض الاشارات السريعة للمرأة عندما كان يرسم صورا عن الحياة الاجتماعية السائدة آنذاك ، فذكر " مريانة " ، المرأة البائسة التى ارتبط ذكرها بولدها " اللاز " ، حيث كان يعرضها يوميا لسخط القرية . وأشار الى أسماء نساء ثلاث ارتبطن بشخصية " حمو " ، كان يجتمع بهن الواحدة بعد الاخرى . وكلما انجبت واحدة منهن ولدا رماه في الفرن . واشارات أخرى هنا وهناك لا تتعدى أن تكون اشارات عابرة . قلت عدا هذا فالكاتب لم يتحدث عن المشاركة الفعلية للمرأة في الثورة الوطنية ، ولم يأخذ بعين الاعتبار نضالها الطويل قبل وأثناء الثورة (4)

1) اللاز ، ص : 44 .
2) اللاز ، ص : 169 .
3) المرجع نفسه ، ص : 201 .
4) - مساهمة المرأة قبل 1954 ، جريدة " الجزائر الجمهورية " تصدر بالفرنسية 1950
- " صورة المرأة اثناء الثورة (1954 - 1962) " السيدة مريم قاض مصطفى .

وقد اعطت رواية " اللاز " أسماء كثير جدا لمناضلين ، انخرطوا في صفوف الثورة ، وضحوا بالكثير من أجلها . لكن الكاتب أهمل الجانب الآخر من المجتمع ، ولم يذكر عن عمل المرأة النضالي الشيئ الكثير ، بالرغم مما كانت تتمتع به هذه الفئة من المجتمع من استعداد للتضحية والعطاء ككل الفئات الاجتماعية الأخرى .

والنص الذي سنسوقه الآن ، وهو من النصوص القليلة جدا في رواية " اللاز " التي تشير الى مشاركة المرأة في الثورة الوطنية . يقول على لسان أحد المناضلين الذي كلف بذبح الخونة : " ..حين يئسنا ، وقررنا الانصراف، تقدمت مني ، وسحبتني من ذراعي الى زاوية الغرفة :

- هل أنتم مجاهدون ؟
- ومن نكون اذن ؟
- اواثق مما تقول ؟
- لماذا ؟

لانّ الحركة أيضا يأتوننا في زيكم لكن مع مطلع النهار دائما .
- أنت ترين أننا في أول الليل .
- قلت ...! ماذا تريدون من زوجي ؟
- أن نذبحه .
- آه اذن انتم مجاهدون حقيقيون لم لم تقل من الأول انكم تريدون ذبحه...؟ اين هو ؟

فوق المدخنة تحت الرماد ، غطاء حديدي لمطمورة ، انه هناك دخل في المساء ، قال ان دقات قلبه تضاعفت ، وانه يشم رائحة كريهة ... يتركني مع سارجان الحركة كلما جاء ، ويخرج في الصباح .. يسألني هل سأنجب له ولدا أم بنتا ..

انه نـذل .

الحـت أن نصاحبها معنـا ،ولما طمأنتها بالعودة ،أخرجت من ثقبة الجـدار ورقـة واعطتنـا نصيبـا من المال .

- اعانـه لله في سبيل الله لاخوتي . ربي ينصـركم ان شاء الله . ان شاء الله"(1)
والنص بالرغم من بساطتـه يبرز الاستعداد الحقيقي الذي كان عند المرأة ايام الثورة الوطنيـة ،المرأة التى ترفض أن تبقى في بيت رجل يخون الثـورة ويتعامل مع الخونـة ،والسلطـات الفرنسيـة ،وترفض أيضا أن يتركها مع سارجان الحركـة ويخرج من البيـت . ولفظـة " نذل " التى وصفت بها زوجها لهـا دلالتها الخاصـة في الكشف عن الحقد والكراهية التى تكنها لزوجها الخائن . وبالرغم مما توحي به اللوحة من صدق وعفـوية ،واستعداد كبير للعمل الا أن الكاتب لم يتمكـن من توظيـف ذلك في الكشـف عن حقيقـة النضال الذي خاضته المرأة في تلك المرحلـة من الثـورة .

- 5 -

ويتناول الطاهر وطار الموضـوع نفسـه في روايتـه الأخيرة ، " العشق والموت في الزمن الحراشي "،التي قال عنها انها الكتاب الثاني "اللاز" . وبالرغـم من كون الروايـة تتناول مرحلة أخرى من الثـورة الوطنيـة ،وترصـد حركـة جيـل

---

1) اللاز ،من صفحـة 152 الى 155 .

آخر أيضا ،الا أنها تتخذ الثورة الوطنية خلفية لاحداثها ،حيث نعثر على كثير من شخصيات رواية "اللاز" الى جانب الشخصيات الجديدة التى افرزتها مرحلة الثورة الوطنية الاجتماعية. وفي الجزء الثاني للاز "،العشق والموت في الزمن الحراشي اسقاطات تاريخية كثيرة أثارت جوانب كثيرة من المرحلة الجديدة : مرحلة البنـــاء الوطني ،والانجازات الضخمة على كل المستويات.

وفي رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي :"تستعيد بعض شخصياتها التي عاشت الثورتين مما كثيرا من ذكريات الثورة الوطنية . وفي هذه الرواية أي الكتاب الثاني من"اللاز " لم يعد دور المرأة يقتصر على الدفاع عن نفسها أو المساهمة ببعض المال كما جاء في رواية "اللاز" الاولى ،العمل الذي رصد سنوات الثورة الوطنية الاولى (1) ،بل راحت تخوض المعارك الحقيقية شأنها شأن الرجل في ذلك ..

"فخوخة "،ابنة صاحب الحمام التي تحدث عن علاقتها بشخصية " حمو" في رواية "اللاز" ،كما تحدث عن أختيها وعلاقتهما بنفس الشخصية ،يعود الى الحديث عنها في الكتاب الثاني من "اللاز" العشق والموت في الزمن الحراشي"، بعد أن أجتاحت الثورة كل شبر من الوطن ،ولم يعد فيه مجال للصمت أو للحياد ، فكانت تدافع عن نفسها، وعن شرفها ،وعن والدها الشيخ . فاستشهدت اختاها بينما نجت هي بأعجوبة لتواصل النضال كممرضة في صفوف الثورة يقول الكاتب:

"كان العسكر ،قد صمموا على الاعتداء على البنات الثلاث ،وكن قد عقدن العزم مع أبيهن الشيخ ،على الدفاع عن الشرف حتى الرمق الاخير. لجأ الشيخ

---

1) ندوة من اعداد م التين ، حول الكاتب والطاهر .وطار ،تناول الرواية بالدراسة محمد سعيدي ،الشعب 19 مارس، 1975 .

- اعتراف للكاتب ،في استجواب اجراه بقطاش ،المجاهد ، 1 ديسمبر، 1974، عدد 746.

الى فأس ، يحملها وهوى بها على رأس عسكري كان يصارع علجية . سقط العسكري مفجوج الرأس . سقط بعده الشيخ بقذفة مطولة من رشاش ، اختطفت مبارة الرشاش حيث كانت واقفة الى جانب العسكري وراحت تطلق النار كما صادف ، تحول بهو المنزل الصغير الى ساحة معركة حامية ، مات فيها خمسة عساكـــــر . واستشهد الشيخ وابنتاه بينما استطاعت خوخة ان تتسلل الى الخارج ، وان تختبئ وسط الزبل في فرن الحمام حتى مطلع النهار ، حيث التحقت بأقاربها في البادية ، ثم بالجبل لتعمل ممرضة في صفوف جيش التحرير ، وفي المنطقـــة التي كان بمطوش قائدا لها"(1) . وتحدث الكاتب كثيرا عن " الجميلا ت " ، ودورهن اثناء الثورة الوطنية ، وربط بينهن ، وبين بطلة رواية " المشـــق والموت في الزمن الحراشي" ، جميلة الطالبة الجامعية المتطوعة . ، وكان يرى أن جميلة الثورة الوطنية الاجتماعية ما هي الا امتداد " لجميلة بوحيرد "و" جميلة بوباشا " ، وباقي الجميلات . بل وحتى للبطلات الاخريات اللواتي لعبن دورهـــن التاريخي قبل الثورة (2) .

ورسم الكاتب صورا كثيرة ، جسد فيها بشاعة الاستعمار ، ووحشيتـــه ، ومطارساته القمعية ، ومن جهة أخرى تحدث عن صمود الجماهير ، وثباتهـــا ، وتحملها لشتى ألوان العذاب . ورسم الكاتب بعناية في هذه اللوحات المناضل الجزائري ، المؤمن بعدالة قضيته . وتحدث عنه بواقعية دون أن يسقط فـــي المثالية أو التهويل وهو يستعرض نضاله من أجل تغيير واقعه ، فنحس من خـلال هذه اللوحات بانسانية المناضل الجزائري ، ونتحسس مواطن القوة والضعف فيه ، ونتابع فترات اليأس والأمل . والصورة التى رسمها " لبمطوش" ، وهو يضاجع خالته بأمر من الضابط ، أو التى هشم فيها جسدها بالفأس (3) ، أو تلك التى قتل فيها

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 95 .
2) المرجع نفسه ، ص : 78 ، 79 .
3) اللاز ، ص : 191 .

البقرة وهي تعاني من آلام الوضع ،أو التي قتلت فيها "مريانة" والدة اللاز(1) قلت هذه الصور العديدة تكوّن في حقيقة الأمر لوحة واحدة جسد فيهما الكاتب بشاعة الاستعمار وحقده ولا انسانيته .

لوحة أخرى عبر من خلالها الكاتب عن صمود وثبات المناضل الجزائري اثناء الثورة الوطنية ،ومعاناته الداخلية . فاللاز الذي كان أهالي القرية يشكون في تصرفاته بادئ الأمر ،ويرون أنه يعمل مع الثكنة ،وينقل أسرار الثورة الى الضباط الفرنسيين ،يلقى عليه القبض ،ويعذب ،ولا يكشف عن اسرار الثورة يقول الكاتب :

" وعندما ولج القاعة ،وباغتته الظلمة فكر... منذ القي علي القبض وأنا أشعر بأنني هنا .. في هذه القاعة بداية ونهاية كل شئ . ما أن انيرت الأضواء حتى جردوه من الثياب ،وأوثقوه بأسلاك نحاسية ،وقذفوا به فوق منضدة خشبية ثبتت على سطحها مسامير حادة ،وانهمكوا يجلدونه ... هذه العملية الأولى ، ان لم أعترف أثناءها ،تلتها مباشرة العملية الثانية ... الغطس في الماء مع الكهرباء . وان لم أعترف أثناءها ،جاءت العملية الشاقة اقتلاع الاظافر .

تلوى متألما ،وزأر في أعماقه :

- أي ... أي

وخيل اليه أن ما يؤلمه أكثر هو اقتلاع الاظافر ،تصور هذه العملية البشعة، وحاول أن يصمت ،وأغمض عينيه وأجهد نفسه ليفكر في أمر آخر .. أي أمر"(2) انه مشهد من مشاهد كثيرة تملأ الرواية ،تجسد همجية الاستعمار ، وتمطى

---

1) اللاز ، ص: 136 .
2) المرجع نفسه ، ص: 78 ، 79 .

فكرة عن أساليب تعذيبه الوحشية : الغطس في الماء مع الكهرباء ، اقتلاع الأظافر وغيرها كثير .

- 6 -

وأخيرا يمكننا القول بانّ رواية " اللاز " تنطلق من الحاضر ، وتنتهي بالحاضر ، ويمر الماضي من خلال هذا الحاضر على شكل ذكريات ، وأحداث يعيد الكاتب تركيبها . والسؤال الذي نطرحه هنا هو كيف تعامل الكاتب مع معطيات الثورة الوطنية ؟ وكيف عكس صورة واقع الثورة الوطنية ؟
فالكاتب وهو يعكس واقع الثورة الوطنية لم يكن يرسم الواقع رسما فوتوغرافيا ، متتبعا كل جزيئات هذا الواقع ، ولم يكن حديثه عنها مجرد انطباعات عابرة لمرحلة انتهت . ولم يقع أيضا في حمى الهذيان الحماسي وهو يستعيد احداثها ، ويحاول ربط بعضها ببعض ، محاولا اضافة ما يمكن اضافته لخلق ابطال مثاليين صنعوا ملحمة الثورة . فالكاتب في رواية " اللاز " يتعامل مع الواقع بموضوعية ، محاولا اعادة تشكيله بكل أبعاده التاريخية ، والاجتماعية والسياسية . ومن ثم فلم يرسم أحداثها من الخارج مكتفيا بما يطفو على السطح فقد بدأ التفكير في كتابة رواية " اللاز " سنة 1958 ، ولم تبدأ عطية الكتابة حتى سنة 1965 لتستغرق سبع سنوات كاملة (1) . ونلاحظ أن الكاتب على الرغم من كونه بدأ التفكير في كتابة الرواية في غضون الثورة ، الاّ أنه لم يكتبها حتى انتهت فترة المواجهة المسلحة . ومدة كهذه جعلت الكاتب يلمّ بجوانب

---

1) الطاهر وطار ، في مقدمة رواية اللاز ، ص : 7 - 8 .

الموضوع المختلفة ، ويتناول بالتحليل والنقد ونظرة فيها كثير من الجرأة والموضوعية .

وتحدث الكاتب عن الثورة الوطنية من داخلها (1)، حيث عكس أهم التناقضات التي تضطرم في المجتمع سواء على مستوى القاعدة أو على مستوى القيادة ، وتناول أحداث الثورة بالفرز ، والمقارنة ، ووصف المجتمع ككل من خلال تحليل شرائحه ، والغوص في أعماق الواقع والكشف عن تعقيداته ، ومحاولة تقديمه بكل ما يزخر به من حركة . أما البطولة في رواية " اللاز " فليست فردية . انما يقوم بها الشعب بكامله ، الشعب الذي رمز له بشخصية " اللاز " الشخصية القوية ، المندفعة الجريئة ، المغوية ، التي قال انها كالبحر. لا انك الشعب برمته ، الشعب المطلق ، بكل المفاهيم "(2)

وطرح الكاتب موضوع الثورة طرحا مغايرا لطرح الكتاب الذين تناولوا الموضوع نفسه (3)، من حيث الجرأة في معالجة الاحداث ، والتحليل لمعطيات المرحلة ، ومن حيث استشفاف المستقبل بتقديم الفئات التي كانت تعمل من أجل تحرير الوطن وصنع مستقبل أفضل . وقد تمكن عن طريق الواقعية الاشتراكية من رصد حركة الواقع ، وتحليله ، واظهار القوة الحقيقية الكامنة في المجتمع ، والتي كانت وقود الثورة الدائم ، وبفضل تناوله لفترة هامة من تاريخ الثورة الوطنية ، وفهمها فهما متطورا .

Revolution du 24 Août au 30 Août I984 - Propos recuillis (1 par Serge Goffar P 34-63 N°282.

2) اللاز ، ص : 164 .

3) انظر الصفحة 32 من البحث .

للوطن حريته .

وهناك نقطة أخرى تجدر الاشارة اليها وهي أن المتصفح للانتاج القصصي الجزائري يلاحظ أن معظم هذه الاعمال - بغضّ النظر عن اللغة المعبر بها - تتخذ من الريف اطارا مكانيا لها . وحتى الاعمال التي احتضنت المدينة أحداثها فان القرية دائمة الحضور في ذهنية الكتاب ، ولعل مردّ ذلك الى عوامل اجتماعية ونفسية ، حيث أن الكثير منهم من أصل ريفي ظل يتمسك بالقرية وبالارض حتى بعد أن غادرها الى المدينة .

والطاهر وطار الذي خصّ الثورة الوطنية برواية كاملة نجده في الاعمال التي تلت " اللاز " يتناول مرحلة أخرى من تاريخ الثورة الجزائرية كان قد مهد لها من قبل في عطله المكرس للثورة الوطنية . وقد ظهرت رواية "الزلزال" بعد صدور ميثاق الثورة الزراعية بسنتين (1)، وبعد ظهور رواية عبد الحميد بن هدوقة "ريح الجنوب" التى تناولت الموضوع نفسه . وفي رواية الزلزال" يوظف الكاتب موضوع الارض ، ومن خلاله يقيم الجسر بين مرحلتي الثورة الوطنية والاجتماعية . والارض في هذه الرواية مرتبطة بالاقطاع ، والاقطاع مرتبط بالاحتلال الأجنبي . وفي شخصية " بوالارواح " تتجسد فكرة الاستغلال المتولدة بطبيعة الحال عن الاقطاع . ونرى في هذه الرواية حركة مجتمع بكامله ، مجتمع يتغير نتيجة تغير النظام القديم للعلاقات الانتاجية . ونحس هذه الحركة وهذا التغيير عندما تصطدم الصورة الجديدة الملتقطة من واقع قسنطينة المعاصر ، بنقيضها الموجود في ذهنية " بوالارواح " الرافضة لكل جديد . فالزلزال اذن لا ترسم فئة اجتماعية معينة ، ولا تقدم صراعا كالذي نجده في الروايات العربية التى تحدثت عن الاقطاع في الخمسينات .(2) انها تقدم

1) ظهر ميثاق الثورة الزراعية سنة 1972 .
2) عبد الرحمن الشرقاوي "برواية الارض" ويوسف ادريس بروايته الحرام .

فالحلقة الاولى اذن بدأها والد الجدّ، لمته ذريته . فجدّ " بوالارواح " كان في عظمة والده، حيث ورث النياشين ،والزعامة ،والارض،وأضاف اليها نياشين أخرى، وأوسمة لمحاربة أهل القبيلة،وساعدة الاستعمار على اخضاعهم، بل واقتسام الأرض معهم . كذلك والد بوالارواح الذي ألبس البرنس عندما عاد من حرب الشام،وعين " قايدا" على قومه ،واحتفظ بالارض(1) فملكية الأرض كما رأينا مرتبطة بالخيانة،وبالتناول،والتواطؤ مع قوى الاستغلال . وفيما يتعلق بملكية " بوالارواح " نفسه فجزء ورثه ء اشتراه،وبعض ممتلكاته تنازل له بعض افراد عائلته عنها،وبعضها حصل عليها مقابل التواطؤ مع قوى الاستغلال،ناهيك عما جمعه عن طريق التحايل على أصحابه كما فعل مع عبد القادر " الفرابلي " اثناء الثورة الوطنية ،الذي استلف منه مبلغ مال،فطلب مقابل ذلك أن يرهن له أرضه،عندما جاءت السنة عجفاء ولم يسدد المبلغ استعان باهل الربط والحل ،واخرجه من أرضه وهو يبكي حسرة.(2)

يحاول الطاهر وطار في رواية الزلزال تجميد الاقطاع ،وتعريته ،وذلك بالكشف عن علاقته مع قوى الاستغلال الاجنبية،وارتباطه بالعملاء ،فالشيخ بوالارواح عندما يصادف في تجواله عبر شوارع قسنطينة أحد أصدقائه القدماء " نينو " ينكشف لنا على حقيقته في هذا اللقاء كما ينكشف التآمر الذي كان يتم بين بعض الاغنياء : من ملاكين وتجار وأعيان،وبين جهاز المخابرات الفرنسية، الامر الذي ولد ردود فعل عنيفة على مستوى الجماهير الشعبية التى كانت تنتقم لكل ما يحدث يقول/ نينو: " أنا يا سيدي عبد المجيد بوالارواح أحسست بالزلزال ،يوم كان الرعاة والحفاة والعراة يدخلون من الريف والقرى ليقتلوا الاسياد هنا ويخرجوا يومذاك أحسست بالزلزال الحقيقي ،ايه كم آغا وكم باش آغا،

---

1) الزلزال ، ص : 172، 173.
2) المرجع نفسه ،ص : 60 ، 61 .

وكم قائد ، وكم ضابط مات على يد راعي أغنام أو حماس أو حطاب أو فحام أمام هذا المطعم "(1) . فالربط بين الاقطاع والاستعمار يلغي المسافة بين الزمنين في رواية الزلزال ، ويكشف عن كثير من المواقف المتشابهة بين المرحلتين فالذين وقفوا بالأمس في وجه الثورة الوطنية ، ودعموا الاستعمار ، وامتلكوا الأراضي الكثيرة ، واحتقروا الفئات الدنيا من المجتمع ، هم الذين يقفون اليوم بعنف ضد كل تطور ويحاولون الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة . وقد ورد في اللاز ، الرواية التى تناولت الثورة الوطنية ، ذكر الكثير من الاقطاعيين ، والتجار الكبار الذين زاد ثراؤهم ، وكثرت ممتلكاتهم نتيجة تواطؤهم وتعاملهم مع السلطات الفرنسية من جهة ، واستغلالهم للفقراء الذين كانوا يعملون بالارض من جهة ثانية . (2) وهذا ما يفسر اندفاع هذه الفئة العفوي ، والتحاقها بصفوف الثورة .

وينقل الكاتب هذه اللوحات من واقع الثورة الوطنية بالرغم من كون الرواية تتناول مرحلة أخرى من مراحل الثورة ، وذلك حتى يتمكن من تعرية الاقطاع الذي يضرب بجذوره في الحقبة السابقة ، ولكونه مرتبطا بحكم مصالحه بقوى الاستغلال الاجنبية التى تضمن بقاءه .

رواية "الزلزال" لا تقدم صراعا بين طبقتين كما هو منتظر من عمل وظف الاقطاع طبقة تملك الأرض ، ووسائل الانتاج ، وطبقة لا تملك شيئا . بل الأحداث نفسها لا يحتضنها الريف كما وجدنا في رواية " ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة أو اعمال أخرى تناولت الموضوع نفسه . في "الزلزال" يصطحب الكاتب بطله "الشيخ بوالارواح" في رحلة البحث : البحث عن الأقارب الذين انقطع عنهم

---

1) الزلزال ، ص : 29 .
2) انظر الصفحة 108 من البحث

طويلا .وفي الوقت الذي يحمل فيه الكاتب عدسته ، ويبدأ عملية الالتقاط تكون ذاكرة الشيخ " بوالارواح " تطفح بشتى الصور : عن ماض قسنطينة وعن ذكريات مرحلة أخرى، عاشها البطل ، وعاشها الكاتب بدوره . فالرواية من هذا المنظور تقدم صورتين لا صورة : واحدة : صورة عن واقع قسنطينة اثناء الثورة الوطنية ، وصورة عن واقع الثورة الوطنية الاجتماعية بها .ونتساءل ونحن نقرأ رواية "الزلزال " لماذا مدينة قسنطينة والكاتب يتناول الاقطاع الذي يتغلغل عادة في الريف؟واجيب أحداث الرواية عن هذا السؤال : فقسنطينة مدينة لكنها تقع في منطقة تعتمد على الفلاحة ، وهي بحكم موقعها تخطط لكل شئ يحدث حولها . وبطل الرواية " بوالارواح " الذي يملك الاراضي الشاسعة في الريف كان يقطن دوما بالمدينة في البداية قسنطينة ، وبعدها بالعاصمة بعدما عاد من تونس . فالاقطاع اذن لا يوجد في القرى فحسب بل يتغلغل في المدن كذلك ، ويختفي وراء واجهات مختلفة .وتتمحور الرواية حول الشخصية .واحدة هي محرك الاحداث كلها ، ولولا العوالم الزاخرة التي تحيط بهذه الشخصية لشعرنا بالملل ونحن نقرأ الرواية .
فالكاتب بدل أن يضع مقابل الشيخ " بوالارواح " شخصيات أخرى من فئات مختلفة يتصارع معها ، يضع مجتمعا بكامله : مجتمعا ديناميكيا ، دائم الحركة، والتغير ، وباصطدام صورة المجتمع الحاضر ، بصورة المجتمع الموجودة في ذاكرة الشيخ "بوالارواح " يبدأ الصراع يحتدم في رواية "الزلزال ".

ويبدأ احساس " بوالارواح " بالتغيير منذ الصفحات الاولى من رواية "الزلزال "، فالصورة الثابتة في ذهنه عن قسنطينة بدأت تهتز . يقول :
" قسنطينة الحقيقية انتهت أقول : زلزلت زلزالها لم يبق من أصلها أحد كما كان . أين قسنطينة بالباي وبالفلفون وبن جلول وبن شيكو وبن كراره ؟ زلزلت زلزالها زلزلت زلزالها وحل محلها قسنطينة بوفنارة وبوالشمير وبولفول وبوطمين وبوكل

والنبـاتـات "(1)

وتتوالى اللوحـات التى تلتقطهـا عدسـة الكاتب من واقـع قسنطينة ، واقـع المرحلة الوطنيـة الاجتماعيـة ، وبالرغم من كون الكاتب لا يضـع الشيخ " بوالأرواح " ومن ورائه طبقته ، وجها لوجـه أمام الفئـة التى تتناقض مصالحها ومصالحه ، وتجنبا في كامل الروايـة صراعـا من هذا النوع ، الاّ أن الصـور التي يلتقطهـا من زوايـــا قسنطينـة المختلفـة تعطينـا فكـرة عن واقـع المدينـة ، وما تعيشـه من تناقضـــات اجتماعيـة . فالبطالـة دفعـت بأفـواج القرويين الى المدينـة بحثا عن الاستقـــرار المادي(2) والهجـرة من المدينـة الى الريـف ولدت كثيرا من المشاكل الاجتماعية ، كظهـور فئـة الطفيليـين الذين أصبحـوا يعيشـون عالـة على الآخرين في المدن ومشاكل السكن (3) ، ونقص المواد الغذائيـة . ونقل الكاتب عددا من اللوحـــات تصور بؤس كثير من الفئات الاجتماعيـة ومعاناتها اليوميـة . يقـول : " كنـــت عندها المغبونـة ، يومهـا . كانت الشمس ساطعة ولكنها لم تكن في حـرارة شمس اليوم . طفلهـا السابـع على ظهرها . تركه أبـوه في الشهـر الرابع وذهب الـى فرنسـا ـ وعد أن يرسـل النقـود حالما يصل ، لكن لم يفعل حتى ذلك الوقت.

لعله لم يكـن يشتغـل بعـد .

قلـت لك ... كانت المغبونـة ، تشـد ولدها على ظهرها بخرقـة ، وكنت أحمـل على ظهرى ولدهـا السادس الذي لم يكن يمشي بعد .
المنجـل في يدهـا ، وصدارة باشيـة في صدرها ونحن في أرض . الحاج بولعبايز. قاطعهـا لعمل الصيـف بصـاع قمـح ، وصاعي شعير ، ومائتي دورو .

---

1) الزلزال ، ص : 28 .
2) نفـس المرجـع ، ص : 100 .
3) المرجـع نفســه ، ص : 128 .

الولد نائم على ظهرها ، والعرق يتصبب من كامل بدنها ، نفسها يصعد وينزل ، والمنجل يروح ويجيء في يدها اليمنى بينما يدها اليسرى تلتقف سنابل القمح . كانت قد تقدمت صف الحصادين بعدة خطوات وفجأة صرخت : آه يايمة الحنانة يتتم أطفالي ، ركضت وركض الرجال والنساء نحوها واذا بالزرقة تصعد من رجلها اليمنى الحافية حتى ركبتها حتى سرتها ، حتى أتت على كامل بدنها .

المغبونة شاطها عفريت كافر .

" شلطنا " عالجنا لكن ما أن حل المساء حتى لفظت المغبونة ، نفسها الأخير ، وبقي السبحة يجرون خلفي - نانة يانانة "(1)

يصور الكاتب من خلال هذه اللوحة المستمدة من الواقع معاناة الفئات الفقيرة التى تشتغل بالأرض ، وبخاصة الموسميين منهم ، والحوار الدائر بين المرأتين الذي التقطته أذننا بوالارواح يحكي قصة عائلة من بين عائلات كثيرة تعيش الوضع نفسه ، يشتغل الأب في أرض أحد الملاكين ، يستغل حتى النخاع ، يضطر الى الهجرة ، يعد ببعث النقود ، تمتصه الغربة وبطول الانتظار ، وتشتغل الأم في مكان زوجها ، قد يقبلها الملاك بصورة دائمة ، ويشغل حتى أطفالها وقد تعمل لفترة معينة تعاني ما تعانيه . وقد تنتهي كما انتهت هذه المرأة، تاركة الأولاد لنفس المصير ، والصورة كما نلاحظ جد" أليمة ، ومعبرة عن قساوة الحياة التى عاشتها الفئات الشعبية سابقا . وهناك لوحة أخرى ينقلها الكاتب عن مزبلة " بولفرايس " وما يجري في هذه المزبلة من أحداث يفرضها واقع فئات كثيره من المجتمع .(2)

وتتوالى الصور مضيئة تارة ، ومعتمة أخرى ، صامتة أو ناطقة، مرة يلتقطها

---

1) الزلزال ، ص : 36 ، 37 .

2) المرجع نفسه ، ص : 67 ، 68 .

" بوالا رواح " ببصره ، ومرات تفرض نفسها على سمعه . يحاول الكاتب من خلالها اثارة جوانب عديدة من واقع المرحلة الوطنية الاجتماعية في ظل علاقات انتاجية جديدة ، وما صاحب هذه المرحلة من تحول مسّ جميع مرافق الحياة.

وتتوزع أحداث رواية " الزلزال " على مستويين ، يعكس الأول واقع قسنطينة المتجدد المتطور ، ويرسم الثاني من خلال شخصية بوالا رواح الاقطاع وما يصاحبه من ركود وجمود وتعفن وبالمقارنة بين هذين المستويين نستنتج أن مجتمعا متطورا ديناميكيا كالذي رصدت حركته رواية "الزلزال " لم يعد يقبل أفكارا كأفكار الشيخ "بوالا رواح " الواقفة في طريق تطوره . ومن ثم فالحركة في الرواية عكسية اذ في الوقت الذي يسير فيه المجتمع الى الأمام يتقهقر ويتراجع الاقطاع الى الوراء ، ولا يستطيع مواصلة السير .

والاقطاع في رواية "الزلزال " لا يعني ملكية الأرض فحسب ، بل يرتبط سواء عند وطار أو عند عبد الحميد بن هدوقة من قبله ، بقضايا كثيرة أخرى ، انه موقف من الحياة نفسها ." فبوالا رواح " في "الزلزال " ، و"عابد بن القاضي ، في " ريح الجنوب " ، لا يقفان عند حدود ملكية الأرض ، ووسائل الانتاج ، بل ان فكرة الامتلاك عندهما تشمل حتى الانسان ، ألم نر من قبل في انتاج عبد الحميد بن هدوقة كيف تتحول المرأة الى أداة ؟ وكيف تنمحي معالم شخصيتها ؟ وكيف تصبح جزءا من ممتلكات زوجها الاقطاعي ، يقرر مصيرها في مكانها ؟(1) انه الموقف نفسه يقفه بوالا رواح من المرأة ! يتزوج بوالا رواح ليهجر امرأته السابقة ، ويتركها لوالده يضمها الى حريمه ، ثم يقتلها عندما تحاول وضع حدّ لطيشه . يعود بوالا رواح من سفره ليلعب اللعبة نفسها

---

1) انظر الصفحة 48 من البحث .

مع زوجة أبيه الصغرى ، بعد أن يهجر الوالد جميع النساء . ويتزوج بوالا رواح في نهاية المطاف بيهودية (1) عندما ييأس من انجاب الاطفال . وعن طريق هذه الامثلة يقدم وطار ، كما فعل ابن هدوقة من قبل ، صورة للمرأة عند الاقطاعي عندما تنمحي كل مقومات شخصيتها و "تقدم قربانا لآلهة الاقطاع الجائرة اللانسانية "(2)

فبوالا رواح كما ترسمه رواية " الزلزال " يرفض أن تكون المرأة انسانا ، ويرفض أن يكون لها وجود مستقل ، ويقف بعنف ضدّ حريتها ، وضد حرية الآخرين مستغلا من جهة مركزه الاجتماعي كملاك كبير ، يشغل عددا من الفلاحين في أرضه ويعتبرهم جزءا من ملكيته ، ومن جهة ثانية وظيفته كمدير ثانوية يحس بامتلاكها حتى وهي من القطاع العام .

وعندما سمع بمشروع الثورة الزراعية ، وبفكرة تأميم أراضيه ، أسرع لاهثا الى قسنطينة ، ليسبق الاحداث ، وكي تبقى الأمور كما كانت عليه ، ولا تفلت من يده . لقد تحرك من العاصمة من موقع قوة : مدير ثانوية ، وملاك كبير ، وبدأ رحلة البحث عن اقاربه من موقع قوّة أيضا : بوالا رواح الذي يملك الكثير وتخضع له العائلة ، والاقارب وو . . . لقد ثار " بوالا رواح " على مشروع الثورة الزراعية لأنه سيقلب الأمور رأسا على عقب سيأمم أراضيه ، ومن ثم يقلص نفوذه ، وسيحرر من كانوا خاضعين له بصورة أو بأخرى . لكن رحلة البحث التى قام بها في قسنطينة ، والتغير الذي حدث لاقاربه (3) ، بفضل ديمقراطية التعليم واتاحة الفرص لجميع الناس ، والتصنيع الذي فتح مجالات واسعة أمام الناس ، جعلت بوالا رواح الذي انطلق من موقع قوّة في بداية الرواية يتقهقر ويتراجع أمام زحف القوى الحية التى كانت تصنع مستقبلها .

---

1) الزلزال ، ص : 184 ، 185 .
2) مجلة آمال ، السنة العاشرة ، العدد 53 ، مقال بعنوان " سمات الاقطاعي . في رواية الزلزال " بقلم مخلوف عامر .
3) الزلزال ، ص : 208 .

ينهي الطاهر وطار رواية " الزلزال " التي تناول فيها واقع الجزائر في المرحلة الوطنية الاجتماعية نهاية فيها كثير من التفاؤل . فبوالارواح الاقطاعي الذي يقف ضد مشروع الثورة الزراعية ، ويحاول عرقلته بالتحايل عليه ، ويرفض أن تتصنع البلاد ، وتتوقف عمليات الهجرة الى الخارج ، ويثور على ديمقراطية التعليم التى تتيح الفرصة لابن الفلاح كي يتعلم ويجلس جنبا الى جنب مع أبناء الاغنياء ، وأعيان البلد . وبوالارواح الذي يقف بعنف ضدّ حركة التطور ، يحاول الانتحار بعد أن فشل في تحقيق مسماه ، وأصوات الاطفال والشهداء ، وعمال ماشا ، وسكان مزبلة بولفرايس والسويقة تتردد في أذنيه (1) فتقهقر " بوالارواح " في نهاية الرواية هو تقهقر الفكر الاقطاعي ، وتراجعه أمام الافكار الجديدة التي تولدت عن المرحلة الوطنية الاجتماعية . والنهاية لم تكن مفاجئة للقارئ ، لأن الكاتب مهد لها من قبل عندما رفض بوالارواح مشروع الثورة الزراعية ، ومشاريع التطور الأخرى . واستطاع الكاتب أن يرسم بعناية شخصية " بوالارواح "، الشخصية المعبرة عن فكرة ، وموقف معين من الحياة ومن خلالها عبر عما في الاقطاع من ركود ، وتعفن ، وأنانية ، وعن كون المرحلة التي تجتازها الجزائر لا يمكن أن تقبل أفكارا كهذه ، ومن ثم كان مصير " بوالارواح " الانهيار بعد أن فقد كل ما كان يتشبث به .

يعكس وطار في رواية " الزلزال " واقع المرحلة الوطنية الاجتماعية ، ويتناول هذا الواقع بالتحليل مبرزا كثيرا من التناقضات الموجودة ، لكن المتأمل للصور التى التقطتها عدسته ، والموزعة على صفحات رواية " الزلزال " يحس بنقص فيها ، اذ بالرغم من كون الرواية توظف الاقطاع ، الا أن الفئة المعنية بالأمر تكاد تكون غائبة . فالكاتب تحدث عن المستغل وأغفل المستغَل ، ماعدا

---

1) الزلزال ، ص : 213 .

بعض الصور القليلة جدا التي تصف واقع الفلاحين في معاناتهم اليومية. مع العلم بان الرواية نشرت في سنة 1974 أي بعد صدور ميثاق الثورة الزراعية . ولو اهتم الكاتب بواقع هذه الفئة ، وتحدث عن مشاكلها ،لكانت اللوحة المرسومة أكثر وضوحا . وحتى مشروع الثورة الزراعية رأينا كيف كان وقعه على الاقطاعيين ،ولم نعرف كيف استقبلته جموع الفلاحين ،ولا الآمال التي كانت تدغدغ أحاسيسهم في هذه الفترة المهمة من تاريخ الجزائر ؟

وكان باستطاعته وضع الطبقة المستغلة في مواجهة بوالارواح الاقطاعي حتى يمتحن صلابتها ،ويعرف مدى وعيها بمشاكلها وحتى النهاية التى انتهى اليها بوالارواح بالرغم من أنها طبيعية في رواية كهذه ،حيث حدث الانهيار بعد ان اصطدمت افكاره ،وما فيها من تعفن وقدم بأفكار جديدة تحلم بالغد الافضل لم تقنعنا . وكان بامكان هذه النهاية أن تقنعنا أكثر لو أنها جاءت على يد الطبقة المحرومة التى تعاني من وطأة الاستغلال .

ونلاحظ أن عبد الحميد بن هدوقة في رواية ريح الجنوب التى كتبها قبل صدور ميثاق الثورة الزراعية ،وقبل كتابة رواية الزلزال تحدث فيها عن مشاكل عمال الأرض من خلال شخصية رابح وأشار الى نمو الوعي عند هذه الطبقة ،عندما رفض رابح العمل عند الاقطاعي ابن القاضي حتى وان كان ذلك الطرح سطحيا الى حدّ كبير(1) . بينما وطار لم يتناول واقع هذه الفئة على حدة ولم يتعمق في فهم مشاكلها أيضا في رواية الزلزال ، وكان تركيزه على بوالارواح . وبوالارواح في رواية الزلزال رمز الاقطاع .

---

1) انظر الصفحة 40 من البحث .

- 2 -

يتناول الطاهر وطار في روايته الأخيرة" العشق والموت في الزمن الحراشي" المرحلة الوطنية الاجتماعية ، موظفا الأرض كما في رواية الزلزال وتعتبر هذه الرواية مكملة لرواية اللاز بالرغم من أنها تتناول مرحلة أخرى من مراحل الثورة الجزائرية فالاحداث تستمر ، والشخصيات التى حركت الجزء الأول عادت لتظهر في الجزء الثاني منه كشخصية اللاز، وعمه حمو ، والشيخ ربيعي ، وخوخة زوجة حمو ، ومطوش ، الى جانب شخصيات أخرى أفرزتها المرحلة الجديدة الا أن القارئ لرواية العشق والموت في الزمن الحراشي يحس بقربها الشديد من رواية الزلزال أيضا ، ويمكن الربط بينهما على مستوى الأحداث . فالزلزال مهدت نظريا للثورة الزراعية ، ورسمت صورة الاقطاع وهو يتهاوى أمام زحف الثورة القوي ، وجست نبض الملاكين الكبار عندما سمعوا بمشروع الثورة الزراعية، بينما تناولت رواية العشق والموت في الزمن الحراشي ، مرحلة زمنية متقدمة حيث كشفت أحداثها عن كثير من المشاكل التي صاحبت عملية تأميم الأراضي ، والاطاحة بنظام الانتاج القديم . والمتتبع لاحداث الرواية يحسّ بمتابعة الكاتب الميدانية لمختلف مراحل الثورة الزراعية ، وحضوره الى جانب الشخصيات الروائية الأخرى في عملية الابداع الفني ، يظهر أحيانا باسمه ، وأحيانا يستعير أسماء أخرى "براهما "(1) و "نيرودا"(2) وغيرهما . والسؤال الذي نطرحه ونحن

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 49 .
2) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

نتناول هذه الرواية هو كيف تمت عملية انعكاس الواقع ، والكاتب حاضر الى جانب شخصيات الرواية الاخرين ؟

لقد استقى الطاهر وطار مادة رواية العشق والموت في الزمن الحراشي من الواقع الجزائري المعاصر ، ومن تتبعه الميداني لمراحل تطبيق الثورة الزراعية. ومن ثم كان حضوره أثناء العملية الابداعية الى جانب الشخصيات الأخرى . وبالرغم من كون الرواية تركز على مرحلة السبعينيات : المرحلة التي شهدت الثورات الثلاث الكبرى والتحولات الاقتصادية الكثيرة الا أن الكاتب أقام الجسر بين المرحلتين ، وربط بين واقع الجزائر المعاصر ، وواقع الثورة الوطنية كما فعل من قبل في رواية " الزلزال " ، لكن الطريقة التي وظف بها أحداث الثورة الوطنية تختلف بين العملين . ففي رواية " الزلزال " تروى بعض أحداث الثورة من طرف الشيخ " بوالارواح " عبر مونولوج داخلي متقطع ، يستعيد فيه ذكرياته ، وذكريات طبقته التي كانت تحاول عرقلة الثورة بالتعامل مع السلطات الاجنبية ، في حين يربط الكاتب بين المرحلتين السالفتي الذكر من خلال شخصية" بوالا رواح " وموقفيه المتشابهين .

ويقدم وطار الثورة الوطنية في رواية"العشق والموت في الزمن الحراشي" بطريقتين : الاولى بواسطة المذكرات ، والوثائق الموروثة عن الثورة ،(1) ، كمذكرات " شباح المكي الاوراسي " ، والثانية من خلال ذكريات الشخصيات التي عاشت الثورة الوطنية ، وتعيش مرحلة الثورة الاجتماعية " كحمو " المناضل السابق في الثورة ، و " بعطوش " ، و " خوخة " ، والشيخ " الربيعي "(2) وغيرهم . وذكر كثيرا من التفاصيل المتعلقة بأحداث الثورة ، وتحدث عن مشاركة المناضلين

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص 120 الى ص : 128 .

2) المرجع نفسه ، ص : 96 ، 97 .

المماليين (1) .

ويحاول وطار في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " رسم صورة ديناميكية لواقع الجزائر المعاصر في ظل العلاقات الانتاجية الجديدة. فعنوان الرواية نفسه له أكثر من دلالة . وتعبير الزمن الحراشي مستمد من "سوق الحراش "، أين تلعب البرجوازية لعبتها بالسوق الموازية للسوق المحلية وكشف الكاتب في هذه الرواية عن كثير من التناقضات الاجتماعية التي اجتازتها المرحلة الاجتماعية، وصوّر الصراع الايديولوجي الدائر بين القوى التقدمية التي تعمل من أجل تحسين مستوى حياة الناس، وبين القوى المعرقلة لحركة التقدم التي تشهدها البلاد وجعل مفجر الصراع الايديولوجي في الرواية قضية تأميم الأراضي الفلاحية و تجميد الفكر الاقطاعي ، وبين من خلال لجان التطوع ، التي كانت تخرج الى الأرياف لشرح ميثاق الثورة الزراعية للفلاحين ، العراقيل التي كانت تواجه تطبيقه ، والقوى التي كانت تقف من وراء كل ذلك ، وتعمل على أن يظل الريف كما كان بعيدا عن حركة التطور التي تشهدها المناطق الأخرى ونقل بعض اللوحات التي تصور بؤس ومعاناة الفلاحين في حياتهم اليومية. يقول على لسان أحد الطلبة المتطوعين : " تعشي أولا يا جميلة .

- لقد تعشيت مع الشريف في دار عمّي عبد القاء
- هنيئا لك لقد كرهنا المقرونة ...
- لم نأكل شيئا ذا أهمية ،كالعادة كسكسي بالماء الساخن والملح .
- المستفيدون لم يتقاضوا المنح منذ ثلاثة أشهر .
- الكلاب هذا أحسن أسلوب لتخريب الثورة الزراعية التجويع ، الكلاب حتى الانسانية منعدمة فيهم "(2) .

---

1) أخذ من استجواب لمجلة اليسار العربي .
2) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 69 .

ويشغل الصراع الايديولوجي بين الطلبة حيزا كبيرا من رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي "، الصراع الذي أداره بين أفواج الطلبة الذين يخرجون الى الريف لمساعدة الفلاحين، وبين عناصر أخرى من الطلبة تخرج بدورها الى الريف، وتحركها قوى رجعية برجوازية تستعمل الدين لضرب المكاسب الثورية. وكشف عن علاقة هذه المجموعة من الطلبة التي تختفي وراء الدين بعناصر في الحزب، وفي أجهزة ادارية متعددة تمدها بالمون.(1) ورسم لوحات معبرة عن حملات التطوع التي كانت تنطلق من الجامعات صوب الأرياف الجزائرية، أين كان يلتقي الطلاب بجموع الفلاحين. واستعان الكاتب في تصوير واقع المرحلة الوطنية الاجتماعية بالتحليل لمعطيات الواقع، وبالفرز على أساس طبقي وقارن بين ما يجري في مرحلة الانجازات الاقتصادية والاجتماعية الكثيرة وما كان يجري أثناء الثورة الوطنية، عندما تكاثفت جهود القوى الحية، وقررت الحصول على حقها في تقرير مصيرها المشترك. ورأى أن ما تقوم به " جميلة " و " ثريا " و " فاطنة "، الطالبات المتطوعات، هو امتداد لما قامت به " جميلة بحيرد "، و " بوباشة " وغيرهن، وأن القوى المعرقلة لحركة التاريخ اليوم، والمتمثلة في مصطفى وابراهيم، ما هي الا امتداد للقوى الرجعية التي كانت تتعامل مع السلطات الاجنبية، وتعمل على تدمير الثورة، وتحطيمها من الداخل. وقارن بين القوى التي تقف اليوم في وجه الاشتراكية والقوى التي حاربت التقدميين بالأمس(2) وتحدث في روايته الأخيرة العشق والموت في الزمن الحراشي عن التفاوت الطبقي الموجود في المجتمع، وعن معاناة الطبقات الشعبية المحرومة، ووصف الاحياء الفقيرة التي تقطنها هذه الفئة من المجتمع، والحياة البئيسة التي تحياها. يقول: " واصل طريقه الى الاعلى، نحو الحي القصديري، الذي نبت قبل

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي، ص: 159، 160.
2) المرجع نفسه، ص: 142.

الاستقلال بصفة فوضوية ،وتضاعف بمده مكتسبا الى جانب صفة القصديرية صفات أخرى .فهو بالاضافة الى انه عرف ،دورا حجرية ،واغطية قرميدية وبعض الابنية الترابية ،عرف أو بالاصح عاش قضايا معقدة أكسبته نموتا كثيرة أهمها حي شيكاغو ،وحي طانجة ،وحي الهنود الحمر . شق أكوام قمامات ومجارى مياه نتنة ،وأحمرة وأبقارا وأغناما ودجاجا ،وأطفالا يلعبون ،وبنات ا يغنين،وعجائز يتبادلن أخبار وأسرار الحياة".(1)

وقد كشف النص السابق عن مستوى حياة الفئات الشعبية التى تعيش على هامش المجتمع ،ومحرومة من خيرات كثيرة تنعم بها فئات أخرى من المجتمع ونلاحظ أن وطار وهو يصف الحي القصديري ،لا يقدمه جامدا في حالة سكون، بل من خلال ما يعج به من حركة ،وضجيج ،وحيوية ،وما يقع فيه من حوادث ومشادات ومشاكل أعطته أسماء كثيرة كشيكاغو وغيرها ،ومن ثم اكتسبت الصورة التي وصف بها الحي صفة الواقعية ،وعبرت أكثر عن الشريحة الاجتماعية التي تقطن بهذا الحي .

وتحدث من جهة أخرى عن التناقض الموجود في المجتمع ،وعن التوزيع غير العادل للاراضي الزراعية ،حيث كانت معظم الأراضي المنتجة ملكية لتجار كبار ،أو أطباء ،أو محامين ،أو موظفين سامين في الدولة ،يقطنون المدن ، ويشرفون على الأرض من بعيد ،بينما يتولى الفلاحون خدمتها مقابل قوتهم، وقوت عيالهم . كما تحدث عن رغبة هؤلاء الملاكين في أن تظل الأموركما كانت عليه ، يموت الفلاح ليخلفه ابنه ،وبعده حفيده ،ويبقى الريف كما كان ،تعشش به الأمراض والاوبئة وعرضة للتخلف والجهل .(2)

---

1) المشق والموت في الزمن الحراشي ،ص : 94 .
2) المرجع نفسه ، ص : 104 .

وفي الرواية صور عديدة فضح فيها الكاتب البرجوازية والقوى التي تتحالف معها ، وما يوجد في هذه الأوساط من نفاق ، وانتهازية ، وبخاصة تلك اللوحات التي نقلها من " سوق الحراش " حيث تقيم البرجوازية السوق الموازية /للسوق المحلية فترتفع الاثمان ، وتنخفض دون ضابط ، ويفقد الانسان خصائصه بشكل أو بآخر (1).

واهتم الطاهر وطار في هذه الرواية بقضية المرأة ضمن ما تناول من قضايا ، المرأة من خلال الدور الذي تلعبه في المجتمع . ونجد في الرواية شخصيات نسائية كثيرة ساهمت في تطوير الأحداث ، بالاضافة الى ذكر سلسلة من " الجميلات " : "جميلة بوحيرد ، وبوباشا ، وبوعزة " ، استعاد بواسطتهن بعض الصور المشرقة من كفاح المرأة أثناء الثورة الوطنية ، الأمر الذي فاته في رواية " اللاز " ، وهو العمل الذي عكس فيه واقع الثورة الوطنية بأبعاده المختلفة .

وقارن الطاهر وطار في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " بين عمل المرأة في الماضي عندما رفضت فكرة الاستعمار ، وعملت الى جانب الرجل من أجل تحرير الوطن ، وبين عملها اليوم من أجل مهام أخرى ، وقال ان أهمية جميلة في المرحلة الوطنية الاجتماعية أصعب من مهمة جميلة أثناء الثورة الوطنية بسبب الظروف الصعبة التي تناضل فيها المرأة اليوم ، والواقع المتناقض الذي تقتحمه . يقول :

" ظروف جميلة الثورة الوطنية الديمقراطية أصعب من ظروف جميلة الثورة الوطنية "(2) .

لقد قدمت رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " شخصية الطالبة

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 49 .

2) من استجواب لمجلة اليسار العربي .

الجامعية الرافضة للاستقلال بكل أشكاله ." فجميلة " ناضلت على جبهات متعددة ،ثارت على أهلها ،وحاربت العادات السيئة التى كانت تتحكم في عقليات الكثير من الناس ، ورفضت الزوج الذي اختارته لها العائلة . وبعد أن تمكنت من تحرير نفسها ، التحقت بالجامعة للمساهمة في تحرير غيرها (1) . وجميلة التى انضمت الى لجان التطوع ،ووقفت بعنف في وجه الافكار الاقطاعية التى كانت تعمل على أن تبقى المرأة مثلها مثل الفلاح تحت وطأة الاستغلال هي نموذج المرأة المتجذرة في الواقع ،والبديل الذي يقدمه الطاهر وطار (2) . ويمكن أيضا مقارنتها بشخصية " نصيرة صوناكوم " التي أفرزتها رواية عبد الحميد بن هدوقة " بان الصبح " مع اختلاف في الطرح طبعا .

وقبل أن ننهي الحديث عن رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " لابدّ من أن نسأل أنفسنا ونسأل الكاتب عن الطريقة التى عكس بها واقع المرحلة الوطنية الاجتماعية ؟ وللاجابة عن هذا السؤال لابدّ من الاشارة الى المرحلة الزمنية التى حاول الطاهر وطار تغطيتها ،ونقصد بذلك فترة السبعينيات . هذه الفترة التى شاهدت تحولا جذريا مسّ جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية . ونلاحظ أن الطاهر وطار في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " عكس واقع البرجوازية الصغيرة فقط ،وأهمل الشرائح الاجتماعية الأخرى . وبالرغم من أن أحداث الرواية تدور حول موضوع معين هو الثورة الزراعية ،الا أن الكاتب أغفل ذكر الفئة المعنية بالأمر بالدرجة الأولى ،ولم يعكس واقعها . كما ينبغي . وتحدث عن الصراع الايديولوجي الذي كان بين انصار الثورة الزراعية من الطلبة وبين أعدائها ممن تحركهم قوى برجوازية . ولم يكشف عمّا كان يدور

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 34 .

2) المرجع نفسه ، ص : 52 .

في أوساط الفلاحين عندما بدأت عملية تأميم الأراضي ، والاطاحة بالملاكين الكبار ، وكأن مصير الثورة الزراعية ، ومصير الاشتراكية بيد هؤلاء المتطوعين ! وكان بامكانه أيضا أن يتناول واقعهم الاجتماعي ، لا سيما وأن عمل المتطوعات لم يكن يقتصر على شرح قوانين الثورة الزراعية فحسب ، بل تعداه الى زيارة أكواخ الفلاحين والتحدث مع عائلاتهم والعمل جنبا الى جنب معهم .

ونشير في الاخير الى أن الكاتب ينهي روايته " العشق والموت في الزمن الحراشي " نهاية فيها كثير من التفاؤل كما رأينا من قبل في رواية الزلزال ، اذ يستيقظ اللاز ، بعد أن عاش طويلا خارج الواقع ، محررا في عوالم كثيرة . أما مصطفى فيفرّ هاربا . ومصطفى كما نعلم في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " هو رمز القوى المعرقلة لحركة التطور (1) ويسمع في الوقت نفسه من المذياع اعفاء مسؤول جهاز الحزب من مهامه . وتنتهي رواية العشق والموت في الزمن الحراشي " بسقوط الافكار الاقطاعية ، ويفضح نوايا القوى المعرقلة للتطور كما حدث في رواية الزلزال . ووطار في هذه الرواية يعمق رؤيته للواقع ، ويكشف عن الصراع الايديولوجي القائم بين القوى المتصارعة . لكن هذا الصراع يظل على مستوى البرجوازية الصغيرة . هذه الطبقة التي اهتم بها أكثر من غيرها في كل أعماله الروائية .

وأخيرا يمكننا القول بانّ رواية العشق والموت في الزمن الحراشي تنتمي الى الواقعية الاشتراكية ، لأنّ الكاتب استعان باداة التحليل بغية الكشف عن العلاقات المتشابكة بين الافراد كظواهر لحركة المجتمع (2) . واعتمد على الانسان كمحرك أول لأيّ عمل يحدث ، والدافع لحركة التطور . ولم يتناول

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 214 .

2) المرجع نفسه ، ص : 199 .

الفرد بمعزل عن الجماعة ،بل من خلال علاقته بالاخرين ، وحاول في الرواية ابراز العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع . وحتى الظواهر الاجتماعية التى حاول رصدها في رواية العشق والموت في الزمن الحراشي ،أو رواية الزلزال قبلهما تخضع لهذه الجدلية ، وبناء على هذا فالبطولة في رواية اللاز الأولى ورواية العشق والموت في الزمن الحراشي ،اللاز الثانية هي بطولة جماعية، لأنّ الجماعة هي التى تصنع الاحداث ،وتعمل على تغيير واقعها ، وتحلم بالمستقبل الافضل أيضا ،فنجد شخصية اللاز في الرواية الأولى " اللاز " تمثل الفرد والجماعة معا . اذ أنها في كلا العملين ترمز الى الشعب برمته. وفي الجزء الثاني من اللاز نجد الجماعة هي التي تحرك الأحداث . وما جميلة التى برزت أكثر الا واحدة من هذه المجموعة التى كانت تعمل متكافئة من أجل دفع حركة التقدم الى الأمام .

وما يجعلنا نضع رواية العشق والموت في الزمن الحراشي ،ورواية الزلزال ضمن الواقعية الاشتراكية هو المنظور المستقبلي الذي يحدد خط سير الاحداث حتى نهاية الرواية . وقد لعب هذا المنظور دوراهاما في رواية الزلزال من حيث توجيهه مجرى الأحداث ،ورسم الخط العام الذي سارت عليه الشخصية المحورية ،ومن حولها صورة المجتمع في مجموعه في ظل العلاقات الانتاجية الجديدة ،وفي رسم نهاية الرواية أيضا . هذه النهاية التى لم تكن منفصلة عن سياق الرواية العام . ويلعب المنظور المستقبلي في رواية العشق والموت في الزمن الحراشي دورا بارزا في انتقاء الشخصيات المعبرة عن قضايا معينة وأخيرا في النهاية السيئة التي آلت اليها بعض الشخصيات التى رمز بها للقوى المعرقلة لحركة التطور ،بينما ظهر التفاؤل بالمستقبل على وجوه الشخصيات الأخرى الحاملة للافكار التقدمية بالرغم مما يسود المرحلة من تناقضات يقول الكاتب " غير فخور بالماضي لانّني أعرف جيدا أنه كان ممكنا جدا أن يكون أحسن .

وغير قانع بالحاضر لأنني أعرف من تناقضاته ما يثير القشعريرة في النفس . . .انها مشاعر البرجوازية الصغيرة تلازمني في الحين الذي يلازمني ،الايمان الاعمى . الايمان الجنوني بالمستقبل "(1) .

- 3 -

يرى بعض النقاد أن العمل الأدبي يكتسب صفة الواقعية عندما يتعمق الكاتب في فهم واقعه ،ولا يتوقف عند حدود هذا الواقع ، بل يعتبره جزءا من واقع أكبر عالمي يتأثر به ويؤثر فيه ،(2)وطالب بعض منظري الواقعية بضرورة اهتمام الكاتب بالمسائل التى يطرحها العصر ،والتي تقلق وتشغل الانسانية جمعاء ، وألا يتوقف عند الحوادث ،والمشاكل التي تمس شعبه ،ووطنه فقط(3) والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : الى أي مدى استوعب الكاتب هموم الواقع المعاصر ؟ وهل تناول الواقع الجزائري ضمن واقع أشمل ؟ ولكي نجيب عن هذين السؤالين يجدر بنا أن نتناول أعماله الروائية مجتمعة ،ونحاول ايجاد القاسم المشترك بينها . ونشير في البداية الا أن رواية اللاز ،باكورة أعماله الروائية التي تناول فيها الثورة الوطنية الجزائرية ،لم يتناول أحداثها بمعزل عمّا يجرى في الكون ،فقد ربط بينها وبين حركات التحرر التى تشهدها مناطق كثيرة من العالم ،وتحدث عنها كحلقة من حلقات الكفاح الذي يخوضه المغرب العربي من أجل التحرر ثم في اطار افريقيا وهي تواجه انواع الاستغلال

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ،ص : 146 - 147 .

2) محمود أمين العالم ،وعبد العظيم انيس ،في الثقافة المصرية ،ص : 9

3) فلاديمير اليتش لينين ،من كتاب ،موجز تاريخ النظريات الجمالية،تعريب باسم السقا ،ص : 448 ،449 .

البشعة . وتحدث أيضا عن حركات التحرر في آسيا ، وعن عظمة الثورة الفيتنامية[1]، وخص الثورة المصرية بصفحات كثيرة . ومن هنا يمكننا القول أن الكاتب في رواية اللاز ينتقل من الخاص الى العام ، عندما يضع الثورة الجزائرية ضمن حركات التحرر العالمية وفي اطارها التاريخي الصحيح . وعندما حلل فكرة الاستعمار قرنها بالاستغلال ، والسيطرة ، ورأى ذلك من طبيعة النظام الرأسمالي ، وسياسة التوسع التي ينتهجها ، ونلاحظ أن الكاتب ، وهو يتناول الواقع الجزائري ابان الثورة الوطنية ، لم يقتصر على معطيات هذا الواقع ، بل تناوله ضمن واقع أشمل ، ووفق ما يطرحه العصر من مشاكل . أما رواية الزلزال فبالرغم من كونها تتناول واقعا محليا ، وتتمتع بنكهة خاصة بها ، وتعالج فترة زمنية معينة ، يحركها موضوع الاصلاح الزراعي ، فان الكاتب استطاع أن يجعل من هذه المدينة ، ومن مجتمعها المحلي الجزائر باكملها ، بل افريقيا كلها ، ودولا كثيرة من العالم الثالث التي تعتمد على الزراعة ، الشيء الذي جعل الدارس عبد الأمير الحبيب يقول عن رواية الزلزال : "لقد نجح "وطار" بشكل موفق في قوة رؤيته الى الموضوع الذي تناوله . . الثورة . . بناء الثورة . . والثورة المضادة . . . وأعطى لروايته أبعادا شمولية يستطيع قارئ "الزلزال" أن يسحب هذه الابعاد بالاتجاه الذي يراه مناسبا للأرض الثورية التي يتحرك فوقها و"الزلزال" أخيرا رواية العالم الثالث . . رواية الوطن العربي . . رواية جزائرية صميمية . . قالت أشياء كثيرة بفرح عن الثورة والمستقبل "(2) .

وللكاتب عملا ن روائيان آخران هما " عرس بغل " والحوات والقصر حيث يمتزج فيهما الواقع الخاص بالعام امتزاجا كبيرا ، ويتحرر الكاتب من قبضتي الزمان

---

1) اللاز ، ص : 45 .

2) الزلزال صوت جزائر التحولات في عالم الرواية العربية المعاصرة بقلم عبد الأمير الحبيب ، جريدة الشعب ، 24 جوان 1974 .

والمكان لينطلق الى رحاب واسعة . ففي " عرس بغل " تجرى الأحداث في " ماخور " يحوم حوله وحول ما فيه عدد كبير من الاشخاص يبذلون قصارى جهدهم كي يصلوا اليه . انها مجموعة من الانتهازيين والطفيليين الذين يعيشون عالة على المجتمع . وفي الرواية بحث للتاريخ العربي الاسلامي ، وانارة للجوانب الايجابية فيه ، لقد تحدث عن ثورة القرامطة ، وثورة الزنوج ، وانتفاضات أخرى كانت تهدد الانظمة البرجوازية القديمة . ومن خلال هذا التوظيف يتناول الطاهر وطار الواقع العربي المعاصر ، وما يعيشه من تناقضات . والماخور هو رمز للانظمة العربية الفاسدة ، ورمز للواقع العربي المتعفن المنقسم على نفسه ونجد في الرواية مجموعة من الشخصيات التى كانت تتردد على الماخور ، وتتناحر فيما بينها كشخصية " حمود الجيد وكا " و " خاتم النبوة " وهم رمز للطبقة الطفيلية الانتهازية التى تعيش عالة على الآخرين . وتبرز شخصية " الحاج كيان " أكثر من غيرها في رواية " عرس بغل " ، شخصية غارقة في تأملاتها ، تعيش بين الحين والآخر مرارة الواقع المحسوس عندما تحتك بعو شخصيات الماخور . وعبر رحلة " الحاج كيان " نحو الاعماق (1) يربط الكاتب بين ما العالم العربي الاسلامي ، وحاضره ، يستعرض الأوضاع المتشابهة بين الفترتين : الانقسامات الداخلية ، والتناحر على السلطة ، والاستغلال بمختلف أشكاله . لكن ذلك يبقى على مستوى شخصية "الحاج كيان " في أوقات انفراده بنفسه . يقول : " هؤلاء ليسوا شيمه على ما يبدو يا مولاي . انهم أنغال افريقيا الذين يعملون في السباخ .

وما يريد الزنوج

يدعون يا مولاي ، أن الاسلام غير مطبق

وما يمنعكم من تطبيق الاسلام . مروا العالم كله أن يطبق الاسلام .

انهم يستنكفون عن العمل في الأرض يامولاي

---

1) عرس بغل ، ص : 60 .

مروا أسيادكم بجلدهم . وأنت يا صاحب الخزينة .
مولاي الخراج يتمشر . والجباة يضيمون الطريق بين بغداد وسامرا ، ويدكم فوق هذا وذاك أطول يا مولاي .
وأمي ماذا تقول ؟
أم مولاي ،على ما بلغني ،في حوزتها مليون وثمانمائة ألف دينار . وعدّه حمولات من الجواهر والحلي ."(1)

لوحة تتحدث عن الاستغلال ،وعن التفاوت الطبقي ، والانظمة الحاكمة المتعفنة قديما ،وهي الظواهر التى تكرر نفسها في ظروف متشابهة ،يقابل الكاتب بين هذه الصور التراثية ،وبين صور مستمدة من الواقع المعاصر من "الماخـــور"، كالتناحر بين خاتم النبوة ،وحمود الجيدوكا ،والحاج كيان والمنابية . الاستغلال الذي تتعرض له "الوهرانية ،وحياة النفوس"، وعلجية"، فهن " جزء من بضاعة كبيرة تباع بالتقسيط من كدس ينقص ويكبر "(2) . وأنهي الكاتب الرواية بنهاية تشبه كثيرا النهايات البوليسية ، حيث وقعت مشادات ،ومحاولة سطو على المنابية ومن معها يوم العرس . وتدخل " الحاج كيان " لانقاذ الماخور ومن فيه .وبالرغم من كون التشاؤم يخيم على جوّ الرواية الى حد اعتبار الواقع المعاصر ،وما يعيشه من تمزق ،وانحلال ، وتعفن ماخورا ، الا أن الكاتب استطاع في نهاية الرواية بفضل تدخل الحاج كيان لانقاذ الماخور وافشال مخطط خاتم النبوة - أن يعطى بعض الأمل في اصلاحه . ويبقى " الحاج كيان " بالرغم من وعيه التام بما في الواقع المعاصر من تناقضات ،ومن تناحر ،مشدودا الى الماض بحكم ثقافته دون أن يتمكن من تجاوز ذلك .

---

1) عرس بغل ، ص : 159 .
2) المرجع نفسه ،ص : 152 .

أما رواية " الحوات والقصر " فتختلف عن باقي روايات الطاهر وطار الاخرى، فهي لا تتقيد ببيئة محلية ،ولا بحدود جغرافية واضحة ،ولا تتناول فترة زمنية معينة ،ولا تتناول موضوعا آنيا ،فهي رواية تحاول التحرر من قبضة الزمان بمفهومه الضيق ،لتستوعب الحياة بشموليتها . والطاهر وطار الذي عودنا في أعماله الروائية الاخرى بتصوير الواقع المادي الملموس ،ورصد حركته ،نجده في رواية " الحوات والقصر " يتجاوز الواقع المادي الى نوع من التجريد . والرواية مشبعة بالرمز والايحاء ،تشع فيها الاجواء الاسطورية ، والحكايات الشعبية المليئة بالمغامرات . فالسمكة التي اصطادها بطل الرواية " علي الحوات " ليست كالاسماك المادية ،" يقال انها عندما وصلت أمامه ،تحدثت اليه .
يقال انها أعطته بعض أوامر قبل أن تغوص في الماء باحثة عن الصنارة .
يقال انها لم تلفظ شيئا انما ظلت تذهب وتجئ وكلما كانت أمامه وثبت الى فوق وحدقت فيه مليا ...
لا ،يقال انها سمكة مسحورة ،حملتها جنيات من نهر الأبكار ورمتها في وادينا بعد ان أعطتها التوصيات اللازمة لمساعدة علي الحوات "(1) .

وتركز الرواية على الانسان بصفته محورا للكون ،الانسان الطيب ،الخير، البرئ ،ذي القلب المفعم بالحب والولاء .

وتجرى أحداث رواية " الحوات والقصر " في قصر وسبع قرى منتشرة هنا وهناك . ومن خلال " علي الحوات " وسمكته التي قرر اهداءها لجلالة الملك بعد نجاته من الموت ، يكشف الطاهر وطار عن الهوة العميقة التي تفصل القصر عن القرى السبع . ولولا الفرسان الملثمون الذين يظهرون بين الحين والآخر في قرية من القرى كوسيلة من وسائل العنف والتغلغل بين الرعايا

---

1) الحوات والقصر ،ص : 26 ، 27 .

لما شعر أحد بوجود القصر[1] والقصر في هذه الرواية هو رمز لكل الأنظمة الفاسدة المتعفنة في العالم ، القائمة على أكتاف للصوص والمجرمين . ومما يؤكد ذلك المفاجأة التي وقعت " لعلي الحوات " عندما تمكن من الوصول الى القصر ، فهو لم يشاهد الملك كما كان يتوقع ، انما سمع أصواتا ، وتلقى أوامر كانت صادرة من اخوته الثلاثة المجرمين ، سعد وجابر ومسعود ، الاخوة الذين قاموا بكباشر واجرموا ، وسرقوا وقتلوا ، وفي الأخير أصبحوا يمثلون القصر الذي قصده بطل الرواية على الحوات ، القصر المنفصل عن السلطة يقول رئيس قرية الاعداء : " القصريا على الحوات يأكل أيامه ، انه ينهشها يوما فيوما حتى يفرغ منها فيبقى بلا زمان ، لقد سيطرت عليهم الذات فغرقوا في عشقها . والذات عندهم يا على الحوات تعنى الحيوانية المتوحشة ، النهش فالنهش ثم لا شيئ غير النهش القصر اقيم في البدء على مطاردة اللصوص ثم تحول شيئا فشيئا حتى صار وكرا لهم ينطلقون منه للنهش ثم يعودون . كان القصر مصدرا لأمن الرعية فتحول الى مصدر رعب وذعر "[2]

ويضع الطاهر وطار مقابل القصر القرى السبع ، تتشابه ست منها ، وتختلف عنها السابعة ، وان كان لكل قرية ميزتها الخاصة بها . وترمز القرى الست الى مجتمعات العالم المتخلفة ، وما يسودها من فوضى ، وجهل ، واضطراب ولا مبالاة عبر عنه بفقدان الرجولة ، والبصر ، والهيجان الجنسي عند الاناث . ووسط الظلام المخيم على القرى الست أظهر الكاتب بوادر أمل في المشروع الذى تقدم به لشيخ لجلالة الملك كي تتحول المملكة الى جنة[3] وفي الشاب الذي اكتشف الدواء المعيد للرجولة[4] ، ثم في المجموعة المسماة بانصار الظلام ، التي كانت تتابع رحلة على الحوات عن كثب ، وتعمل في الخفاء .

-ALGERIE ACTUALITE, Ahmed BEN ALAM, ~~N°767, semaine du 26 Juin~~ au 2 Juillet, 1980, p.30.

1980 ، ص : 30 .

2) الحوات والقصر ، ص : 114 .

3) المرجع نفسه ، ص : 42 ، 43 .

4) المرجع نفسه ، ص : 88 .

أما القرية المختلفة عن باقي القرى نهي قرية الأعداء السابعة في الترتيب انه المكان الوحيد الذي شدّ بال علي الحوات ،ولفت انتباهه تنظيم اجتماعي محكم ،واستقرار مادي ،والكل في صحة جيدة : النظافة ، والهدوء ،والاحترام المتبادل . بالاضافة الى كل ذلك التطور العلمي الهائل . انها القرية التي توصلت الى اكتشاف مرآة تجعل الشمس دائمة الحضور في القرية ،كما اكتسب أهلها الوعي السياسي ،وادراك اسرار الحياة ،وممارسة الديمقراطية فيما بينهم اضافة الى معرفتهم الدقيقة لأسرار القصر ،وللفساد المتفشي فيه . والقرية السابعة هي البديل الذي يضعه وطار في رواية الحوات والقصر . والعلاقة التي كانت قائمة بين أنصار الظلام ،والقرية السابعة هي التي ساعدت على فضح القصر ،وكشف عيوبه .

وتنتهي رواية الحوات والقصر بسقوط القصر والقصر في الرواية هو رمز للاستغلال ،والقمع ،واللاديمقراطية . وهي نهاية تكشف عن الخطر الذي كان يمثله على الحوات على القصر حتى وهو الرجل المحايد البعيد عن اثارة أي شغب في القرى ،فهو رمز للخير وللعدالة التي كانت تبحث عنها كل القرى التي مرّ بها ،بينما كان القصر يرمز للشر ،وكانت الحركة في الرواية عكسية ،اذ في الوقت الذي سار فيه القصر نحو نهايته ،وخرابه ،واصل على الحوات الخير، الطيب ،بحثه عن الديمقراطية والعدالة ،تحيط به رعايا المملكة جميعها .

وفي الرواية يمتزج الواقع المحلي ،بواقع أكبر منه ،وتصبح الجزائر قرية من قرى الرواية السبع ،وجزءا من واقع عالمي يحاول الكاتب رصد حركته في هذه الرواية . ونجد فيها رؤيا مستقبلية واضحة ،وتفاؤلا بالخير بالرغم من صوت الفجيعة الذي خيم عليها .

حاول الطاهر وطار من خلال ابداعه الروائي ، رصد حركة الواقع الجزائري عبر أزمنته المختلفة ، وتكشف القراءة المتأنية للروايات أن الكاتب في كل رواية ينظر للواقع من زاوية معينة ، وأن رواياته مجتمعة تشكل لوحة متكاملة للواقع الجزائري ، وما اعتراه من تغيير في مراحله المختلفة .

بيد أننا اذا تناولنا كل عمل على حدة ، لاحظنا التفرد والخصوصية اللذين تتمتع بهما كل رواية من روايات الطاهر وطار ، وأن الشكل الذي صب فيه مادة هذا العمل الروائي يختلف عن الشكل الذي صب فيه مادة العمل الروائي الآخر ، اذ يوظف في كل رواية تقنيات روائية معينة تحمل المضامين الجديدة التي يطرحها دون أن يجره ذلك الى الشكلية . واذا أضفنا الى ذلك بعض التصريحات التي أكد فيها ضرورة تعدد الأشكال كما تتعدد المضامين ، و "أن الشكل هو التمظهر الذي تتبلور فيه الشحنة العاطفية والحجم الذي يتخذه المضمون لنفسه بكل ابعاده "(1)، وجب النظر الى الشكل من خلال المضمون الذي يحتويه ، وليس كفاية في حد ذاته . ومادمنا قد تعرضنا في الفصول السابقة الى المضامين والقضايا التي عالجها الطاهر وطار ، وتتبعنا عملية تصوير الواقع ، يجدر بنا الآن أن نتحدث عن الادوات الفنية الموظفة في هذه الاعمال

---

1) استجواب لمجلة اليسار العربي ، ص : 9 .

الابداعية ،بالرغم من صعوبة الفصل بينها بين ما يتحدث عنه الأديب من قضايا .

ومادامت الشخصية هي محور العمل الادبي ،وهي العنصر المحرك للأحداث ،والمغير لحركة التاريخ ، رأينا أن نبدأ بالحديث عن هذا العنصر قبل غيره . وبادئ ذي بدء نلاحظ اهتمام الكاتب في عملية اختيار شخصياته بالموقع الطبقي لها ،(1) وكثيرا ما ترمز الشخصية الى طبقة اجتماعية بكاملها حيث تعبر من خلال تصرفاتها اليومية ، وعلاقاتها الاجتماعية بغيرها ، ومشاكلها الخاصة ،عن هموم وتطلعات الطبقة التي تنتمي اليها . ويظهر هذا الاهتمام منذ عمله الروائي الأول . اذ كشفت الشخصيات الموظفة في رواية " اللاز " عن المنبت الطبقي لها ،ودور المنبت في تصرفات الشخصيات وفي تطلعاتها ، وفي تحديد بعدها الايديولوجي . والمتمعن في تشكيلة المناضلين الذين انخرطوا في صفوف الثورة منذ الوهلة الأولى يلاحظ أن معظم هؤلاء المناضلين ان لم يكن كلهم من الطبقات الدنيا في المجتمع (2) ، وقد حرص الكاتب على ابراز هذا الجانب ،وسواء تناولنا الشخصيات البارزة كثيرا في الرواية "كزيدان"، أو الشخصيات الأقل بروزا كحمو ،ورمضان وغيرهم ،فهم من الطبقة الكادحة التي عانت بؤس الاستغلال ،والفقر ،وارتمت في أحضان الثورة بكل عفوية منذ البداية . ومن بين الشخصيات التي اهتم الكاتب بتصويرها في رواية "اللاز" شخصية " زيدان " المناضل الشوري ،وبالرغم من كون هذه الشخصية تبدو جاهزة ، على عكس الشخصيات الكثيرة الأخرى التي تزخر بها رواية " اللاز " فالكاتب لم يعط كل شئ عنها منذ البداية ،ولم يقدمها لنا دفعة واحدة ،فهي سر من أسرار

---

1) عبد الرزاق عبيد ،شخصيات اللاز ،ملحق الثورة الثقافي السورية .

2) اللاز ، ص : 106 .

مرحلة زمنية من الثورة ،تنكشف للقارئ كا لما توغل في قراءة الرواية .وكشف الكاتب عن الواقع الاجتماعي لشخصية " زيدان " ،الذي خرج من قريته فقيرا أميا ،تاركا عائلته لأخيه "حمو" الذي كان يشتغل عند صاحب الحمام ،وعاد من الخارج وهو على حاله ،لينخرط في صفوف الثورة ،ويصبح قائدا من قادتها بعد أن تدرب في فرنسا وفي موسكو. فزيدان الذي لعب دورا كبيرا في رواية اللاز ، وساهم في تكوين عدد من المناضلين ،ودعم صفوف الثورة ،ليس الا واحدا من المنسحقين تحت عجلة الاستغلال والفقر أيام الثورة الوطنية . ومن ثم فهو لا يرى الثورة مجرد حمل للسلاح ،ومواجهة مع العدو ،انها بالنسبة اليه عملية تغيير للواقع الفاسد ،ولو أن المرحلة التى يعيشها ،وتعيشها الثورة نفسها ،تتطلب منه البدء بتعزيز روح الوطنية ،وتعميقها في نفوس المناضلين (1). كذلك تشكيلة المناضلين نفسها (عمال ،فلاحين ،بطالين .) تجعل من الصعب البدء بتوعيتهم ،وتكوينهم الأيديولوجي يقول : " ظل رمضان يكرر ،وهو ينظر باعجاب الى زيدان الذي أطرق .. لو كانوا كلهم عمالا ، لو كانت الاغلبية ،أو حتى النصف من العمال ، لكانت المهمة سهلة ،لكنت أعرف كيف اخاطبهم ،كيف اقتحم قلوبهم وعقولهم .. أما وهم خليط من التجار والعاطلين والمزارعين والعسكريين المحترفين في الجيش الفرنسي ،ذوي الرتب والنياشين ، فلن يتصوروا أبدا ما أريد أن يتصوروه .. انك تكذب على نفسك .. نعم انني اتهرب من مواجهة الحقيقة .. في الصين لم تكن الاغلبية من العمال كانت من هذا النوع .. هنالك كانت القيادة تحمل ايديولوجية العمال . وهنا .. آه .. القيادة أيضا من هذا المزيج .."(2)

وتعرض الكاتب من خلال شخصية " زيدان " ،أحد قادة الحركة

---

1) اللاز ، ص : 161 .
2) المرجع نفسه ،والصفحة نفسها .

في بنائها الكثير من التناقضات : يشرب كبرا ولا يسكر ، يخالط المناضلين والجنود الفرنسيين على السواء ،(1) ولد لا يعرف له أب ولا أصل ، ولم يترك له صديقا في القرية ، شرير بلغ دخوله السجن 30 مرّة في الشهر،(2) وهي الشخصية الفنية بالمفاجآت ، المستعدة للانفجار في أية لحظة .

وتعد شخصية اللاز من الشخصيات النامية في الرواية ، وبامكان القارئ متابعة التطور الذي يحدث لها من خلال مختلف الأحداث التي امتلأت بها الرواية . يلجأ الكاتب في البداية الى تعرية الواقع الاجتماعي لشخصية اللاز بحيث برزت عدة مشاكل أفرزها واقعه الاجتماعي المتدهور . يعيش في كوخ مريانة امّه التى تعيش بدورها أزمة فقر حادة . لقد خرج الى الحياة وهو يجهل من يكون أباه ، وتجاهله أهل القرية ، واحتقروا امه ، فتجاهلهم بدوره ، ورفضهم بعنف ولعل النص الذي نسوقه الآن يكشف عما تعيشه شخصية "اللاز" من تمزق ، وانقسام ، وتحد . يقول : " هذا اللقيط الذي لا تتذكر حتى أمّه ، من هو أبوه وكأنما التقطته من الرماد مثل الدجاجة ... برز الى الحياة يحمل كل الشرور .. كان في صباه لا يفارق أبواب وباحات المدارس يضرب هذا ، ويخطف محفظة ذاك ، ويهدد الآخر ان لم يسرق له النقود من متجر أبيه ، أو الطعام من مطبخ أمه . حتى اذا جاء يوم الأحد بادر ،الى الملعب شاهرا خنجره في وجوه الصغار حتى ينزلوا عند ارادته ويكتروه منه ، تارة بدورو لكل لاعب ، وتاره يشتط ، فيطلب عشرة .. لم يكن يجدي معه ، لا تدخل الآباء ولا تدخل ،" الشانبيط " ، بل الويل كل الويل لمن يتجرأ ويبلغ عنه أباه أو أخاه ..

---

1) اللاز ، ص : 14 ، 15 .
2) المرجع نفسه ، ص : 13 .

مكابر، معاند، وقح، متعنت، لا ينهي في معركة وان استمرت عدّة أيام يضربه المرء حتى يعتقد انه قتله لكن ما ان يبتعد عنه، حتى ينهض ويسرع الى الحجارة أو يرتمي على خصمه "(1).

فالعنف والبلبلة، والفوضى، والتمزق، والانقسام والشرور التى كان يحملها "اللاز" ليست طبعا فيه، انها وليدة المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، ونتيجة طبيعية للاحباطات النفسية التى عاشها.

وقد أثارت العلاقة التى كانت تربطه مع الضابط الفرنسي أسئلة كثيرة لدى سكان القرية الذين كانوا يتساءلون عن نوع العلاقة بينهما ؟ وأثرها على مجريات الأحداث في القرية. وشخصية "اللاز" شخصية متأزمة وضع فيها الطاهر وطار هموم ومعاناة الطبقة الكادحة المستعدة للانفجار في أية لحظة. أما التحول الذي طرأ على شخصية "اللاز" فيعود الى أمرين:
أولا الثورة التى انخرط فيها فحولته، وحققت له توازنه، وثانيا اعتراف "زيدان" المناضل الثوري الذي طالما أعجب اللاز بشخصيته، وبأفكاره، ومبادئه بأبوته له، بعدما كانت كل القرية تسميه اللقيط.

فالثورة اذن في رواية "اللاز" عميقة ومتجذرة، تحولت بسببها شخصيات كثيرة في الرواية، حيث أعادت لها اعتبارها، وأعطت لها مكانتها في المجتمع، وحررتها من كثير من الضغوط الخارجية كما هو الشأن مع شخصية اللاز، وقدور، وحمو.

لقد رسم الطاهر وطار شخصية "اللاز" بعناية، اهتم بأبعادها المختلفة

---

1) اللاز، ص: 12.

غاص في أعماقها الداخلية ،تحدث عن كثير من الصراعات التي تعيشها وكشف عن مواطن القوة والضعف فيها ،خاصة عندما كانت سياط العذاب مسلطة عليه . وتعد الصور التي وصف فيها اللاز . وهو بين التردد والقبول ،والرفض لمساومات الضابط الفرنسي وأعوانه ،من أجمل الصور التي رسمها الكاتب في الرواية . (1)

ويرمز اللاز في الرواية الى الشعب الجزائري (2) ،بكل ما فيه من عفوية وصدق ،واندفاع ،وتحد ، وعناد ،هذا الشعب الذي طهرته الثورة ،خلقها فخلقته بدورها ،وكانت خلاصة الوحيد بعد أن تدهورت أحواله . لكن اللاز بعد أن توطدت علاقته " بزيدان " ،أحد مناضلي الثورة ،واعترف له بانه والده ،يفقده بعد أن نفذت الجبهة حكم الاعدام فيه وفي رفاقه الاربعة على مرأى من ابنه " اللاز " ،وعندما يعدم " زيدان " يقف اللاز مشدوها ، ثم يهوي على الارض . وهي نهاية الجزء الاول من اللاز ، الروابة التى وضع لها الكاتب خاتمة درامية كما نلاحظ بالرغم من كون شخصية زيدان تتمتع بطاقات هائلة ،وتتحرك بعفوية كبيرة ،وساهمت في تحريك أحداث الرواية . اما بالنسبة لشخصية اللاز في الرواية الثانية التي عنوانها "العشق والموت في الزمن الحراشي "،فهي ليست شخصية واضحة المعالم كما في الجزء الاول . انها فكرة أو حالة أكثر منها شخصية . فاللاز في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي " حاضر بجسده بقشابيته " المزيقة " بالأحمر وملامحه القديمة الوجه المستدير المائل الى البيوضة ،والانف المريض القصير ، والشفتان الفليظتان ،والعينان البنيتان الواسعتان (3) . الا أنه غائب روحيا ،

1) اللاز ، ص : 80 ، 81 .
2) المرجع نفسه ، 164 .
3) المرجع نفسه ، 220 .

يعيش في حالة لا وعي تام ، يبحر في عوالم كثيرة ، يقف منتصبا مركزا بصره في ناحية ما ، ويظل كذلك ساعات ، أو يردد الجملة التى قالها يوم ذبحوا والده أمامه ، واغمي عليه " ما يبقى في الواد غير حجاره " وهي كلمة السر أثناء الثورة. وقد نسج الخيال الشعبي هالة من الاساطير حول شخصية " اللاز "، وغيبوبته، فهو ولى من أولياء الله ، وهو سيدنا الكبير ، واهب الاطفال للعواقر ، وروح جميع الصالحين ، يزوره المساكين ، وتتبرك به النساء ، ويحترمه الجميع . يقول : " انحنت واحدة ، وراحت تزحف نحو جذع الشجره ، تمددت فوق التراب ، وبدت كما لو أنها تقبل الارض أو شيئا ما كان على الارض ، وراحت تئن بصوت متهدج كالجريحة :

يا سيدنا اللاز . ياولد سيدي عبد القادر. جئت أقصد جاهك ، وعزك ورحمتك . جئت من بلاد بعيده ياولي الله ، وياروح جميع الصالحين ! اعدني الى فلذات كبدي . رابحة وصفية وسليمة ومباركة وخدوج ، انهن صغيرات . الواحدة منهن على رأس الاخرى . الكبرى لا تتجاوز السبع سنوات . كنت استعجل الانجاب ، لعل الله يرزقني بذكر ، فيطمئن قلبي وقلبه . لكن في كل مرة كنت ألد طفلة وكان يبتعد عني أكثر ، صبرت للسب والشتم والضرب والرفس من طرف أبيه وامه واخواته . لكن ياسيدي اللاز ، ياحبيب الضعفاء والمساكين ، كيف لى أن أصبر على فراق ست فلذات كبدي ياسيدي الحنان "(1).

والسؤال الذي يطرح ونحن نتحدث عن شخصية اللاز في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " هو لم قضي كل هذه المدة في غيبوبة ؟ وماذا يقصد الكاتب من وراء ذلك ؟

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص: 84 .

ينتهي الجزء الثاني من اللاز بيقظة خصبة اللاز بعد أن رأي الدماء تنزف من ذراع جميلة ، وهو نفس المشهد الذي اغمي عليه على اثره ، يوم سالت الدماء غزيرة من قفا والده . فهل يعني ذلك يقظة الشعب نفسه في تلك المرحلة ؟ قد يكون ذلك . لكن هل نفهم من تلك الرواية أن الشعب ظل سنين طويلة بعد الاستقلال في حالة غيبوبة لا يعي ما حوله ؟ قد يكون ممكنا أيضا الا أن ما نلاحظه من خلال الروايتين معا ، وعبر رحلة اللاز الطويلة ، هو أن شخصية اللاز في الجزء الأول أقوى بكثير من شخصية اللاز في رواية العشق والموت في الزمن الحراشي ، وأكثر غني ، وعمقا . اذ في الوقت الذي وضع فيه الطاهر وطار " لاز " الجزء الأول في صميم الاحداث ، يعيش الثورة حتى الأعماق ، ويساهم بفعالية الى جانب الفئات الأخرى من أجل التغيير ، نجده في الجزء الثاني يعيش على هامش الاحداث بالرغم من كل ما يجرى حوله ، لقد وضعه خارج التحولات التي تجرى داخل المجتمع .

ونجد الى جانب شخصية " اللاز " التي احتلت مكانة كبيرة في الرواية شخصيات أخرى ، من أوساط مختلفة ، ساهمت في اثراء العمل . وبالرغم من كونها شخصيات ثانوية ، اذا ما قورنت بشخصيتي زيدان واللاز ، الا أن الكاتب اهتم بهذه الشخصيات أيضا ، وأعطاها حقها في الحضور ، والعمل الى جانب زيدان واللاز ، ومكنها من أن تلعب دورها المنوط بها في خلفية أحداث الرواية ، خاصة اذا كان الأمر يتعلق بالثورة ، والثورة كما يصفها وطار عمل تصنعه الجماعة وليس الفرد .

ومن بين هذه الشخصيات " حمو " أخ زيدان ، وقد كشف الطاهر وطار عن واقعه الاجتماعي كما فعل من قبل مع زيدان . واللاز ، هذا الواقع الذي

ساهم في صنع شخصية " حمو " فهو يشتغل عند صاحب حمام يستغله طول اليوم مقابل اربعين " دورو " يطعم بها اسرته ، وتحدث عن علاقته ببنات المعلم الثلاثة دايخة ، وخوخة ، ومبروكة ،(1) وعن التحاقه بالثورة بالرغم مما كان يشغله في القرية . لقد رأي فيها مخرجه من واقعه المرير . يقول الكاتب على لسان حمو : " حمو يرى ان الوضع الذي أصبح عليه الناس من فقر وبؤس ، وعري وجهل ، ومرض ، وظلم ، وجور ، يجبرهم على العمل من أجل التخلص منه . وهذا العمل ليس سوى الثورة ، ليس سوى التمرد على الاسياد على كل شئ على هؤلاء الاسياد الذين - كما يقول أخوه زيدان - لم يفهموا ، ولا يريدون أن يفهموا الاّ أمرا واحدا ، هو مصلحتهم .. مصلحتهم التى تتعارض مع مصالح جميع الناس ..."(2)

وشخصية " حمو " كما نرى بسيطة ، ذات بعد واحد ، ولا تملك ثراء كبيرا ، بالرغم من تجذرها في تربة الواقع ، وتعبيرها عن الطبقة الفقيرة التي تنتمي اليها . والكاتب لم يطورها كما فعل مع شخصية " اللاز " بل ظلت كما هي حتى بعد الاستقلال دون أن يحدث لها تغيير يذكر . والشخصية بهذا المستوى في الجزئين مقبولة لكن ما نعتبره مبالغا فيه هو لجوء هذه الشخصية في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " الى بعطوش ليبحث لها عن عمل .

وهناك شخصية أخرى تنتمي لنفس الطبقة التي ينتمي اليها حمو وزيدان ، واللاز ، الطبقة الشعبية بكل روافدها ، وهي شخصية " بعطوش " الذي

---

1) اللاز ، ص : 26 .

2) المرجع نفسه ، ص : 48 ، 49 .

كان يمتهن الرعي قبل التحاقه بالشكنة العسكرية . وبرزت شخصية "بمطوش" في نهاية رواية " اللاز " الأولى . وكانت من بين الشخصيات التى وظفها الكاتب في المطين معا . واذا كانت شخصيات مثل اللاز وزيدان وحمو وغيرهم يرون في الثورة خلاصهم من البؤس ،فان بمطوش تحرك في الاتجاه المعاكس للثورة . واهتم الكاتب كثيرا بهذه الشخصية ،وتحدث عن التناقضات التى تعيشها ،وكشف من خلالها عن بشاعة الاستعمار ، وتعفنه ، وممارساته اللانسانية ونقل لوحات كثيرة جسد فيها حقد الاستعمار ،وتشويهه لمعالم الانسانية في الفرد . وذلك من خلال شخصية " بمطوش " التى تعبر عن هذا المسخ أصدق تعبير . وربط الطاهر وطار بين التحول الذي حدث لشخصية بمطوش وبين واقعه الطبقي ،واعتبر خيانته نسبية وليست مطلقة لأنه ليس من ورائها مصلحة شخصية . ومن ثم فقد أخطأ ،واستطاع أن يصحح خطأه بالالتحاق بصفوف الثورة . يقول الكاتب عن بمطوش : " بمطوش لم يخن ،ليدافع عن عقاراته أو تجارته أو أسهمه في البنوك والشركات كان كواحد من الآلاف من الناس يومها يرزح تحت ضغط كابوس الاسياد . كان عبدا لضعفه ،المنبعث من ضعف المجتمع كله ،وكانت في أعماقه بقايا من الحنين والتوق الى انسانيته الى الحرية فما أن بلغ الاسياد حدّ المس بتلك البقايا ، حتى ثارت ثائرته واستعاد كل ما فقده ولو لم يكن المجتمع يومها في حالة تمرد شامل عن الوضع لما وجد بمطوش الشجاعة في التمرد بدوره لقد تنور ضميره بالاشعاع الذي كان المجتمع يرسله ...

الموقع الطبقي لبمطوش ،هو الذي يمنع من الخيانة المطلقة أو التردي النهائي واولئك الذين يخونون من أجل مصالحهم الطبقية ،مندفعين من موقع واحد من الاستعمار ! أولئك فقط الذين يمكن أن ينحدروا الى ما لا نهاية له . مصالحهم هي ضمائرهم "(1) .

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ،ص : 198 .

ويؤكد النص الانتماء الطبقي لشخصية بمطوش، هذا الانتماء الذي صحح مساره، ومنعه من التردي النهائي، وأظهر من ناحية أخرى تأثير المجتمع في الافراد، المجتمع الذي كان ساعتها في حاله مخاض وتمرد .

- 2 -

واشتملت رواية اللاز بالاضافة الى الشخصيات الكثيرة المنحدرة من أوساط شعبية على شخصية أخرى لعبت دورا بارزا في الرواية، وهي شخصية قدور ابن الشيخ الربيعي، وقد رمز بواسطتها الى الطبقة المتوسطة التى لم تكن تعيش بؤس وشقاء الطبقة الكادحة التى ينتمي اليها اللاز، وزيدان وحمو وغيرهم . ومن ثم عندما اندلعت الثورة التحق بها الآخرون بينما تردد قدور في بداية الأمر، وفكر فيما سيربحه أو يخسره عندما يلتحق بالثورة،(1)، لكن عنفوان الثورة، وقوتها لم تمهله كثيرا اذا انتهى الى قرار الالتحاق وتدعيم صفوف الثورة حتى استشهد بين يدي اللاز (2). ورسم الكاتب هذه الشخصية بعناية مهتما بأبعادها المختلفة، فتحدث عن علاقته بأمه ووالده، واستعرض قصة الحب التى كانت تجمعه بزينة الفتاة التى كانت تستحوذ على مشاعره ، وكشف عن مواطن القوة والضعف في نفسية قدور عندما تعلق الأمر بانخراطه في الثورة، ثم علاقته باصدقائه، ورفاق السلاح بعد أن انخرط في الثورة، مما حقق للشخصية واقعيتها وربطها بسياق الرواية العام . ونلاحظ من خلال

---

1) اللاز، ص: 49 .

2) اللاز ص: 276 .

استمراض معظم شخصيات رواية اللاز المكرسة للثورة الوطنية ،أن الكاتب انتقى معظم شخصياته من الأوساط الشعبية باستثناء قليل منها انحدر من وسط البرجوازية الصغيرة . وهذا يعني أن الطبقة الفقيرة كانت أكثر الطبقات معاناة ،بصفتها تكوّن الاغلبية الساحقة من الشعب ،كما أن الكاتب في هذا العمل المكر . للثورة الوطنية ركز على البطولة الجماعية ،اذ بالرغم من بروز شخصيات كاللاز ،أو زيدان فرضت نفسها بقوّة في العمل ،الا أن ما كانوا يقومون به من عمليات نضالية كان في اطار جماعي منسق ،ومخطط له .

- 3 -

في رواية الزلزال تتغير مادة العمل الأدبي ، وتتغير المرحلة الزمنية التي يرصدها الكاتب،وبيئة العمل، والقضايا التي يتناولها الكاتب ، فيتغير تكنيك الرواية بدوره كي يستطيع حمل المضامين الجديدة . والطاهر وطار الذي حاول من خلال شخصيات "اللاز" الكثيرة ابرازما في العمل الجماعي المنسق من قوة وصلابة، وتوصل الى أن ثورة في مثل عظمة ثورة التحرير الجزائرية لا يمكن أن يخلقها الا العمل الجماعي الموحد الذي تعاون اللاز ، وزيدان ، وحمو ، وقدور على صنعه، نجده في رواية " الزلزال " يعمد الى عزل الشخصية عن محيطها الاجتماعي بل حتى الاسلوب الذي وظفه فيها اسلوب المونولوج الداخلي - ساهم في عزلها أكثر فأكثر عن العالم الخارجي الذي تتحرك فيه الاشياء والناس .

فرواية " الزلزال " رواية الشخصية الواحدة التي تتكشف فيها الاحداث، والازمنة ، ويتداخل فيها الذاتي والموضوعي ، ويتحرك الجميع في خط تصاعدي

وتتحدد أبعاد شخصية " عبد المجيد بوالارواح " من خلال المونولوج الداخلـــي ، الاسلوب الذي يمنح الشخصية حريتها الكاملة ،فتعبر عن نفسها بنفسها دون تدخل الكاتب في ثنايا الحديث أو في توجيه الشخصية . وعبر رحلة "بوالارواح" الى قسنطينة وبحثه عن أقاربه تتضح جوانب الشخصية المختلفة ، وينكشـــف المنبت الطبقي لها . المنبت الذي حدد كل سلوكات الشخصية ،فنعرف أنه ينحدر من سلالة اقطاعية ، وينتمي لأسرة تملك المال ، والحياة والنفوذ . يقول :

" أبي كان عظيما . رئيس قبيلته وزعيم قومه . عندما كان الفرنسيون يدفعون بمطارق من حديد أبواب منطقتنا كانت قبيلتنا تقاتل ببسالة ترد الغزو مـــن البحر ، وتصد الهجوم من البر كانت قبيلتنا محصنة ، منطقتنا منيعة ومكافحونا بواسل .

أرسلوا الى أبي خفية : نعطيك الأرض نتركك زعيما على قبيلتك افتـــح لنا الباب ولك الأمان وافراد أسرتك .

قال أبي لمكافحي القبيلة : بدل أن ندافع نهجم . لكن اياكم أن تبدأوا بالضرب قبل أن أعطيكم الاشارة ، ارسل أبي الى الفرنسيين يعلمهم : اعطيكم المكافحين واعطوني الباقي .

خرج أبي برجاله وعندما وجدوا أنفسهم في الكمين قال لهم أبي : "لا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة"

سلموا والله ولي الأمر من قبل ومن بعد .

فتح أبي الباب

دخل الفرنسيون المنطقة قتلوا كل قادر على حمل السلاح ، وحبلوا النســـاء، وعلقوا لأبي النياشين وأعلنوه زعيما . وأعطوه أرضا كبيرة كل الأرض" (1) .

---

1) الزلزال ، ص : 171 ، 172 .

يكشف النص من جهة عن الأصل الاقطاعي لشخصية " بوالارواح "، ومن جهة أخرى عن علاقة هذه الاسرة ، ومن ورائها كل الطبقة الاقطاعية التي تنتمي اليها بالاستعمار حيث كان ثمن الأرض التي سلمت له أرواح أبرياء القبيلة وكشف بواسطة المونولوج الداخل عن واقعه الاجتماعي اثناء الثورة الوطنية سفره الى تونس ، توسيع ملكيته للأرض ، علاقته بأعيان البلد ووجهائها ، تعامله مع السلطات الفرنسية حيث امتزجت هذه الصور بصور من واقعه الاجتماعي الحاضر لترسم بانوراما لشخصية " بوالا رواح "، مدير الثانوية في الحاضر، ومالك الأراضي الكثيرة ، وصاحب النفوذ الواسع .

والعزلة التي وضع فيها وطار بطله " بوالا رواح " ناتجة عن فكره الاقطاعي الذي يرفض التقدم ، ويقف ضد حركة التطور التي يعيشها المجتمع ، وقد جعله عقيما لا ينجب ، ولا يخلف نسلا بعده بالرغم من تعدد زوجاته ، ليظهر موقفه الجامد من الحياة ، وتعفنه الذي سينتهي لا محاله ولن يستمر بعده. (1)

وتعتبر شخصية " بوالا رواح " جامده ، وغير متطورة ، ومتوقفة عن النمو ، وهي شخصية سلبية بالرغم من أنها الشخصية الرئيسية في رواية " الزلزال "، أو كما أسماها الكاتب نفسه " البطل المضاد "(2) . وكتابة رواية تحركها شخصية واحدة ، وتسير هذه الشخصية في الخط المعاكس لحركة التطور التي يعيشها المجتمع صعب جدا ، وبامكانه اضعاف النفس الروائي في الرواية وتقليل الحركة فيها . وقد حاول الكاتب التخلص من ذلك بواسطة الشخصيات الأخرى التي وضعها في خلفية الأحداث ، والتي سافر " بوالا رواح " الى قسنطينة بحثا عنها . ونلاحظ أن هذه الشخصيات لم تأخذ حيزا في الواقع مثل الشخصية

---

1) الزلزال آخر رغبة في ذاكرة الماضي ، عادل أديب آغا ، جريدة الثورة السورية، 1975 .

2) استجواب لمجلة اليسار العربي .

المحورية الا أننا استطعنـــــــا معرفتها من خلال العلاقة التي تربطها بالشيخ "بوالارواح". فعمار صهر الشيخ بوالارواح الذي طرده في الماضي عندما طلب منه النقود استشهد مع ابن نينو بوشاية من هذا الأخير، وعيسى بن خالته الذي كان زاهدا في الزاوية أصبح شيوعيا ينظم النقابات، والطاهر النشال الذي كان يسرق، ويسكر ويعربد في رحبة الجمال تحول الى مهرب للأسلحة وبعد الاستقلال اصبح ضابطا ساميا الخ ... ونلاحظ أن التحول مس الشخصيات جميعها، التي جاء "بوالارواح" بحثا عنها بغية توزيع أراضيه عليها. وتمثل هذه المجموعة عينة من المجتمع الجزائري، الذي مس التحول جميع جوانبه في ظل العلاقات الانتاجية الجديدة. فالمونولوج الداخلي كشف عمّا تعيشه الشخصية من تمزق، وانفصام، وعزلة بسبب الموقف الجامد الذي يقفه من الناس ومن الحياة. وبوالارواح الذي يريد أن يظل الريف على حاله (1)، وأن تبقى المدينة يسكنها الاخيار، (2) وأن يظل يحتفظ بملكية الأرض. عندما بدأت هذه الصور تتحرك في ذهنه، وقف بعنف في وجه التطور، فرفض المجتمع الجديد ورفضه المجتمع بدوره، وسار كل واحد في خط معاكس لخط الآخر. اذ في الوقت الذي يواصل فيه المجتمع زحفه الى الأمام، تقهقر الشيخ "بوالارواح"، وتراجع الى الوراء، وانتهى الى محاولة الانتحار بعد أن اتسعت الهوّة بينه، وبين المجتمع الجديد.

- 4 -

تشكل رواية العشق والموت في الزمن الحراشي " الجانب التطبيقي لرواية

---

1) الزلزال ، ص : 85 .

2) المرجع نفسه ، ص : 28 .

" الزلزال "، فقد عالج الطاهر وطار في رواية " الزلزال " موضوع الأرض من خلال شخصية "بوالارواح " الاقطاعية عند صدور ميثاق الثورة الزراعية ، والرواية تسجل ردود فعل الطبقة الاقطاعية قبل الشروع في عملية تأميم الأراضي ، ومن ثم وظف فيها الكاتب شخصية واحدة ، تعبر عن فكرة ، وعن موقف معين من الحياة أما في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " فقد تناول موضوع الأرض نفسه لكن بطريقة مختلفة عن " الزلزال "، فهذه الرواية لا تجس نبض الاقطاعي من بعيد ، انما تضعه وجها لوجه مع عملية تأميم الأراضي الزراعية . ورواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " لا يقوم بناؤها على الشخصية الواحدة ، بل تقتضي القضايا المطروحة فيها وجود شخصيات كثيرة تتقاسم الأدوار ، وتساهم في تطوير حدث الرواية بتعميق نضالها . والشخصيات الموجودة في هذه الرواية كثيرة ، بعضها نعرفه من خلال رواية " اللاز " الأولى كشخصية اللاز ، وحمو ، وبعطوش ، والشيخ ربيعي ، وخوخة ، وهذه الشخصيات في مجملها تكوّن الجيل السابق الذي صنع الثورة الوطنية ، أو بكلمة أخرى ، الماضي الذي ما يزال مستمرا في الحاضر . وبعضها تمثل الجيل الحاضر وما يحمل هذا الجيل من تناقضات هي نفسها التناقضات الموجودة في الواقع ، والتى افرزتها المرحلة الوطنية الاجتماعية .

والشخصيات في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " تتحرك في اطار جماعي ، وتعمل داخل أفواج (1) . ويقدم الكاتب منذ البداية شخصياته ضمن مجموعة تنقلها سيارة " الاندروفير " الى احدى القرى الجزائرية في حملة تتطوع طلابي . ويضم الفوج مجموعة من الطالبات الجامعيات - جميلة ، ثريا ، دليلة ، فاطنة ، اليامنة ، وفي الريف يلتقي فوج

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 6 .

المتطوعات بأفواج أخرى لطلبة متطوعين ،(1) فتظهر شخصيات على مسرح الأحداث - الشريف ،ابراهيم ،بوزيد ،مصطفى ؛ فالرواية كما نرى غنية بالاحداث، وغنية بالشخصيات أيضا ،والصراع الدائر بين مختلف الشخصيات صراع ايديولوجي بالدرجة الاولى : بين من يناصر الثورة الزراعية ،ويؤمن بتغيير الريف ومن يحاول عرقلة كل عمل من شأنه دفع حركة التطور الى الامام . ويعمد الكاتب الى تعرية ،الواقع الاجتماعي لمختلف شخصيات الرواية ،وعلاقة هذا الواقع بالافكار التى تعتنقها كل شخصية ،وبالمبادئ التي تدافع عنها ،واذا كانت روايات مثل " اللاز " و " الزلزال " ،و " الحوات والقصر " تفتقر للعنصر النسائي تماما ،أو تظهر المرأة في أماكن قليلة ،فانّ رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي " زاخرة بالشخصيات النسائية التي تدخل في صميم الاحداث لا في هامشها . وقد برزت شخصيات كثيرة اعتني الكاتب بتشكيلها ،"فجميلة من الشخصيات التى لعبت دورا مهما في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " طالبة جامعية ،مثقفة ،واعية بمشاكل واقعها ،ومؤمنة بضرورة تغيير الواقع الفاسد ،وبناء المستقبل الذي تحلم به الفئات الشعبية . يقول الكاتب :" انك يا جميلة منتصرة . قهرت الظروف والمحيط والذات انعتقت تماما . تماما . حتى بلغت حد النضال من أجل اعتاق غيرك ،اعتاق الجزائر من هيمنة الاقطاع وتسلط الاستغلاليين .

اعتاق الانسان الجزائري من الاستغلال والظلم والعسف . مناضلة انك مناضلة مناضلة رفيقة يا جميلة ،واحدة من نخبة قليلة لها الشجاعة الكافية لترفع عقيرتها بلا تردد ولا خوف ولا خجل "(2) .

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ،ص : 39 .
2) المرجع نفسه ، ص : 33 ، 34 .

وتحدث الكاتب عن واقع جميلة الاجتاعي ، وحلل ظروفها العائلية الــتى كانت ستخلق منها امرأة ككل النساء ، يزوجها والدها بشرى ، يضمن لها السعادة المادية ، ولعائلتها الجاه والنفوذ . ثارت على هذا الوضع ، وتمردت على واقعها ، وتشبثت بدراستها ، واستطاعت أن تتحرر من الأفكار الرجعية المحافظة الــتي كانت تهيمن على وسطها العائلي . ومع جميلة كانت تناضل شخصيات أخــرى كثيرة استطاعت أن تثورعلى واقعها ، وأن تخرج بعد ذلك الى الريــــف لمساعدة غيرها على التحرر ، واستعرض من خلال الشخصيات النسائية المشاكــل التي تعيشها الطالبة الجامعية أثناء وبعد التخرج ، والصراع الذي تخوضــــه ضد الافكار التى تحاول عرقلة تحررها ، وتحدث عن مشاكل المرأة غير المتعلمة وأعطى صورا كثيرة للتخلف الذي مازالت تعيشه المرأة في مناطق كثيرة من خلال النساء اللواتي كن يذهبن الى " اللاز " ويعتبرنه وليا من الاوليــــاء الصالحين ، وطلب مساعدته في الانجاب لمن لا تنجب ، وفي الزواج لمن لــم تتزوج وغير ذلك .(1)

- 5 -

وقام الكاتب بعملية فرز للطلبة المتطوعين من خلال ما يقومون به فــي الارياف ، وربط بين ما يحدث اليوم ، وما حدث أثناء الثورة الوطنية . بين ما يقوم به مصطفى ، وعلوان ومنسق القسمة ، وما قام به زيدان واللاز أثنــاء الثورة الوطنية ، وبين ما قامت به قوى أخرى معرقلة آنذاك . وكشف عن علاقة بعض العناصر المندسة بين صفوف الطلبة المتطوعين المكونة " لحزب اللــه "

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 89 .

ببعض المسؤولين في الحزب ،وأغنياء الطبقة ن تجار وموظفين ، ممن ينطلقون في عدائهم للثورة الزراعية من مصالح مادية بحتة ،متسترين بالدين لخدمة مواقعهم الطبقية يقول مصطفى :

" هل حرم الله الكسب ؟ هل أمر الله بأخذ أرزاق الناس بالباطل ؟ ألم يقل سبحانه وتعالى وفضلنا بعضكم على بعض في الرزق درجات . . . ؟ صدق الله العظيم . أمن الحق أن تفقد المرأة ما ميزها الله به وتدوس على الشرف، والرجولة والكرامة والامومة والاخوة وتخرج الى الشارع دابة ضائعة ،عرضة للنهش والافتراس . الرجال قوامون على النساء الرجال قوامون على النساء صدق الله العظيم .

اننا في غير الحق . ولقد صبرنا على غير الحق ولكن أي صبر يتحدث عنه عز وجلّ ؟"(1) .

ويكشف النص عن الافكار التى كانت تحملها الجماعات المناهضة للتطوع وعن المواقع الطبقية التى كانوا يدافعون عنها ،هذه الافكار التى تعمل على أن يظل الريف كما كان يقتسمه الملاكون الكبار، وتبقى المرأة في البيت ، يستغلها الرجل أبشع استغلال ،شأنها شأن الأجير الذي يشغله في الأرض . وقد حاول الطاهر وطار من خلال هذه الرواية اعطاء فكرة عن الصراع الايديولوجي الذي أفرزته هذه المرحلة الزمنية من التاريخ الجزائري ،أوكما أسماه الزمن الحراشي وما فيه من تناقضات .(2)

وتنتهي الرواية ،بانتصار الافكار التقدمية التى كانت تحمل جميلة والشريف وعناصر كثيرة من الطلبة على انجاحها ،وينضم بعض زملاء مصطفى ممن

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 110 .
2) المرجع نفسه ، ص : 55 .

انحدروا من اوساط شعبية بالطلبة المتطوعين الحقيقيين الذين كانوا يناصرون الافكار الاشتراكية الا أن الكاتب لم يمهد لهذا الانتقال المفاجئ لبعض الطلبة الذين غيروا بسرعة أفكارهم والتحقوا بالعناصر التي كانوا يتصارعون معهـــا في بداية الرواية .(1)

ونلاحظ ونحن نتناول شخصيات رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " أن الرواية تعكس الصراع الموجود في وسط البرجوازية الصغيرة ،لكنها لا تنقـل حقيقة الصراع الاجتماعي ،عندما تتجاهل الطبقة الأكثر انسحاقا في المجتمع الطبقة الكادحة التي جاءت الثورة الزراعية من أجل تغيير واقعها . وسـواء في رواية الزلزال التي تناولت موضوع الأرض ، وقضية الاقطاع،أو في روايـة العشق والموت في الزمن الحراشي التي تابعت عمليات تأميم الأراضي ،وتطبيق مراحل الثورة الزراعية ، وهدم معاقل الاقطاع ،لم يكشف الكاتب عن واقـع عمال الأرض ولم يوظف ضمن شخصياته شخصيات تعمل بالأرض، وتعكـس بصدق واقع الريف الجزائري ، وهموم الفلاحين .

- 6 -

تعتبر رواية عرس بغل التي تجري أحداثها في ماخور حافلة بالشخصيات النسائية . فبالاضافة الي العنابية صاحبة الماخور ،نجد نساء أخريات تشغلهن عندها كحياة النفوس ،وعلجية ،والوهرانية ... واذا كانت الشخصيات النسائيـة الموظفة في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " ،ممن تعلمن وناضلن مـن

1) الاعرج واسيني ، اللاز ، جميلة والآخرون يقتحمون الواقع الحراشي بجـرأة، الجمهورية ، 6 سبتمبر 1979 .

أجل حريتهن ،ثم خرجن متطوعات للأرياف . فان النساء في رواية "عرس بغل" يتواجدن في ماخور ،واذا كان الماخور يرمز للواقع الحاضر وما فيه من تعفن وفساد ،فان النساء اللواتي يشتغلن فيه هن بعض ضحاياه . في رواية "عرس بغل" نجد المرأة تنسحق داخل المجتمع الذي لا يرحم (1.) ويعمد الكاتب الى تحليل الشخصية ،والغوص في أعماقها بالاضافة الى تحليل واقعها الاجتماعي الذي رمى بها الى هذا الماخور ،ويكشف الكاتب من خلال التحليل النفسي لشخصياته عمّا تحس به الشخصية من تمزق وألم ،ورفض ،وما تعيشه من احباطات نفسية "فحياة النفوس" احدى الشخصيات البارزة في الرواية كانت تشتغل في الماخور. وحتى ان كانت تتظاهر بالرضا والراحة أحيانا فانها في قرارة نفسها غير ذلك تماما ،فهي عندما تلقت صفعة شعرت باهانة كبيرة ،وراحت تستعيد الذكريات المريرة التى دفنتها في اعماقها . يقول الكاتب :

"قبل اليوم كانت تستعذب الضرب . كانت تجد فيه لذة غريبة ، لاتجدها وهي بين أحضان أي رجل ،تستفز باباي البوكسور أو خاتم بعده ،حتى تنال صفعة أو أكثر لكن اليوم ،وقد جاءت صفعة مجانية ،شعرت باهانة شديدة، وباحتقار كبير تذكرت أباها الذي سافر الى فرنسا ولم يعد ،وأخاها المشلول الرجلين الذي يميل امها وزوجها . تذكرت الليلة التى طلبتها امها وامرتها بالنوم في فراشها .

لماذا ؟

قدر الله يا بنيتي .

ما معني هذا

اما أن تفعلي واما أن يهجرنا

---

1) عرس بغل ،ص : 52 .

- هذا كلام كبير يا أمي . ليهجرنا ولتلحقه اللعنة سيموت جوعا ان هجرنا .
- لا يا بنيتي ،لا أطيق . لا أريد أن يهجرني رجل ثان بعد أن هجرني أبوك .....
- غادرتهم . طفت هنا وهناك . القي القبض علي مرة أولى ، فثانية، فثالثة بعدها اضطرتني الشرطة الى الامتهان أو الى الذهاب الى السجن . قضيت شهرين بالجلفة ،ثم جئت أتي بي باباي البوكسور.

مسكين وراح يحبني تراه أين يكون "(1)

وتقدم الرواية الماخور ،والنساء اللواتي يشتغلن فيه والمجموعة التي تستفيد مما فيه . واذا انطلقنا من الفكرة التى توحي بها الرواية وهي أن الواقع المعاصر عبارة عن ماخور ،وان النساء اللواتي بداخله رمز للطبقات المستغلة في ظل الانظمة المتعفنة يبقى السؤال من المستفيد من الماخور ؟ ويكشف السؤال عن مجموعة أخرى من الشخصيات التي وظفها الكاتب في رواية عرس بغل ،فنجد شخصية العنابية صاحبة الماخور ،وهي امرأة غنية جدا ، ويحوم حولها مجموعة من الاشخاص : الحاج كيان ، وحمود الجيدوكا ، وخاتم النبوة. وترمز شخصية العنابية الى طبقة البرجوازية غير المنتجة ،المتطفلة على المجتمع ،والتي تعيش من عرق الآخرين ،وقد اهتم الكاتب برسم هذه الشخصية - الرمز - ،وانارة جوانبها المختلفة ،وتحديد ابعادها أيضا . فكشف عن واقعها الاجتماعي ،وعن العلاقات التى تربطها بنساء الماخور ، وبزبائنها ، واصدقائها . وغاص في أعماقها محللا مختلف مشاعرها ،وأحاسيسها (2)، وطموحاتها

---

1) عرس بغل ، ص : 115 ، 116 .

2) المرجع نفسه ، ص : 117 .

ومن الشخصيات البارزة في الرواية شخصية الحاج كيان ، الشخصية التي تعبر عن الواقع واللاواقع معا . تعيش الحاضر بكل تناقضاته ، وتعيش الماضي من خلال بعض الاسقاطات التاريخية ثورة القرامطة ، ثورة الزنوج ، وأحداث تاريخية أخرى . ونلاحظ أنها الشخصية الوحيدة في رواية عرس بغل ، التي تغيب عن الواقع ، وتقطع صلتها بالناس ، وترحل الى عوالم كثيرة ، ثم تعود مرة أخرى الى الواقع لتعيشه حتى الاعماق (1) .

ونجد الى جانب شخصية الحاج كيان شخصيتي حمود الجيدوكا وخاتم النبوة ، اللذين كانا يحومان حول الماخور ، ويخططان للاستيلاء على ما فيه ، وهذا بالرغم من التظاهر بصداقة صاحبته العنابية . وترمز هاتان الشخصيتان للطبقة الانتهازية في المجتمع ، الطبقة الى تتحين الفرص من أجل أن تحقق أغراضها . وعندما ينطلق عرس العنابية تحاولان الاستيلاء على الماخور . في اللحظة التى يتدخل فيها الحاج كيان لانقاذ الماخور ومن فيه . وهي نهاية متفائلة الى حد ما كما نرى بالرغم من جو القتامة الذي غلف أجواء الرواية (2) .

- 7 -

تتمحور أحداث روايتي الزلزال ، والحوات والقصر ، حول شخصية واحدة وان كانت وكل رواية تنفرد بتكنيكها الخاص الذي تمليه طبيعة المرحلة ، ونوعية الاحداث التى يتناولها الكاتب في هذه الرواية أو تلك .

---

1) عرس بغل ، ص : 96 .
2) المرجع نفسه ، ص : 207 .

ففي رواية " الزلزال " استطعنا تحديد أبعاد شخصية " بوالارواح " ، وطبيعته ، وآراءه ، وموقفه من الحياة ، حيث اتصفت هذه الشخصية بالجمود ، والتعفن ، والسلبية في علاقاتها مع غيرها . وهي شخصية نمطية لم تتغير طوال الرواية بالرغم من رياح التغيير التى هبت على كافة المناطق ، ومست جميع الشرائح في المجتمع . لكن الأمر يختلف بالنسبة لشخصية " علي الحوات" في رواية " الحوات والقصر " ، فهي تنفرد بصفات كثيرة تميزها عن باقي شخوص الطاهر وطار . ومنذ البداية يحدد الكاتب مهنة بطله ، فهو حوات يصطاد السمك من النهر ، يأكل جزءا منه ، ويوزع الباقي على أهل قريته(1)، دون أن يبيع منه شيئا ، وبواسطة هذه المهنة "يكشف الكاتب عن الواقع الاجتماعي " لعلي الحوات ".

وهو أخ لثلاثة اخوة " سعد ، وجابر ، ومسعود " تمردوا على واقعهم بطريقتهم الخاصة ، وراحوا يسرقون ، وينهبون ، ويفحشون (2) ، بينما اختار هو مهنة متواضعة تضمن له قوت يومه ، وتبعده عن الطريق الذي سار فيه اخوته وتتميز شخصية "علي الحوات " بالعفوية ، والبساطة ، والصدق ، وتتمتع بارادة وصبر كبيرين . ونلاحظ أن الكاتب لم يحدد البعد الايديولوجي "لعلي الحوات"، كما درج مع شخصياته الأخرى ايجابية كانت أم سلبية . فهي شخصية بدون ايديولوجية ان صح التعبير . ومع ذلك فهي تتمتع بكثير من الصفات الانسانية النبيلة : الخير ، والطيبة ، والوفاء ، والولاء ، والتفاني في العمل ، والكرم .(3) وبواسطة هذه الصفات استطاع الكاتب أن يخلق من " علي الحوات " شخصية قوية محبوبة ، قريبة من قلوب جميع سكان القرى التى مر بها . وهي شخصية

---

1) الحوات والقصر ، ص : 18 .

2) المرجع نفسه ، ص : 19 ، 20 ، 21 .

3) المرجع نفسه ، ص : 17 .

خطيرة بالنسبة الى القصر بالرغم من كونها تحمل هدية لجلالة الملك بعد نجاته من الحادث المروع . والخطر ناتج من كون القصر كله شرورا . و "علي الحوات " يتميز بالطيبة والخير . وقد أحدث ظهور "على الحوات" تغييرا كبيرا في المملكة ،تحركت القرى السبع ، واستعادت كل قرية ما فقدته خلال السنين الماضية ،وشعر القصر بالخطر ، بالرغم من أن"على الحوات"لم يقصد شيئا مما حدث ،ولم يساهم في احداث التغيير بصفة مباشرة . لقد حمل سمكته الجميلة ،وطاف بالقرى السبع في اتجاه القصر ليقدم هديته ، وكل الهدايا التي تنوى الرعية تقديمها لجلالة الملك : يقول وطار على لسان "على الحوات ": "سأصل هذه المرة الى جلالته ،يا عزيزتي . لقد عرفت كيف يختصر الطريق لن اضطر هذه المرة لا الى . انتظار طويل ،ولا الى استنطاقات مطولة ، أو الى غسل أسناني بالملح والنخالة .

في المرة الاولى ،طلبت من أهل القرى السبع تقديم هدية لجلالته فرفضوا ، وسيمينونني هذه المرة بأسرع ما يمكن .

من حسن حظي أنني لم أبق وحدي ،وأن ورائي أناسا كثيرين من ضمنهم أهل قرية الاعداء ،وأنصار الظلام ، وقريتكم وغير ذلك أ شعر أنني تضخمت سبع مرات ،ولم أبق على الحوات القديم "(1)

ويكشف النص عن التطور الذي حدث للرعية ،ولعلى الحوات أيضا حيث لم يبق على الحوات القديم المحايد ،لقد تضخم سبع مرات ،وأصبحت كل الرعية تقف الى جانبه ،واستطاع أن يحدث تغييرا جذريا في المملكة دون أن يعمل من أجل ذلك التغيير ،كما تفعل الشخصية الايجابية عادة ،حيث تكون الأمور

---

1) الحوات والقصر ، ص : 160 ، 161 .

واضحة عندها منذ البداية .

لكن هل يمكن اعتبار شخصية " على الحوات " ايجابية بعد كل ما حدث بسببها ؟

للاجابة عن هذا السؤال نشير الى أن شخصية " على الحوات " بطبعها الخير وعفويتها وولائها حتى وهي لا تملك فكرا معينا ،ولا تكوينا سياسيا واضحا ،استطاعت أن تفهم الكثير ،وأن تؤثر بسلوكاتها الخيرة على محيطها وايجابيته ناتجة من كون تأثيره على بيئته أكبر بكثير من تأثيرها عليه.(1)

ويمكن اعتبار شخصية " على الحوات " ايجابية لانه يمثل الارادة البشرية المصممة . في البداية اصطاد سمكته الجميلة بكلتا يديه ،وعندما قطعت يده اليمنى قرر أن يصطاد باليد الثانية .وهكذا الى أن تصل سمكته الى صاحب الجلالة .يقول :" سأصطاد بيد واحدة ،سأنذر لجلالته أجمل سمكة اصطادها اذا كانت الاولى أفلتت فان السمكة الثانية لن تفلت من الشص وان أفلتت فالى الثالثة فالي غيرها .

هذا هو شعار الحواتين يا أصدقاء ،وسأتبع العمل حسب هذا الشعار، مدفوعا بما يفيض به قلبي الممتلئ خيرا ومحبة ،نحن الحواتين ،لا نبعد كثيرا عن المتصوفين . القاسم المشترك بيننا هو الصبر .

تغوصون فنغوص .
تتعمقون فنتعمق .
تتطلعون فنتطلع

---

1) كروسو فركود ويل ،عن أحمد ابراهيم الهواري ،نقد الرواية في الادب العربي الحديث في مصر ،ص : 254 .

اذا كان هناك فرق بيننا ،فهو الحزن والصمود ،ففي حين تسلكون طريق الحزن نسلك نحن طريق الصمود "(1)

وتظهر ايجابيته في اصراره ،وثباته ، وصموده وهي الصفات التى أثر بها على القرى السبع فتحولت بدورها ،وسارت من ورائه .

---

1) الحوات والقصر ، ص: 136 ، 137 .

يوظف الطاهر وطار في رواياته تقنيات متعددة تمليها طبيعة الموضوع المتناول في كل مرة ، ونوعية الاحداث ، وبيئتها الزمانية والمكانية . ففي رواية " اللاز " ،أولى اعمال الكاتب الروائية ، فرضت طبيعة موضوع الثورة الوطنية الذي تناوله تقنيات معينة قد لا تصلح لموضوع آخر عند الكاتب نفسه ، وكانت الأدوات الفنية الموظفة في هذه الرواية من لغة ، وحوار ، وصور تخدم المضامين الفكرية والاجتماعية والسياسية العويصة التي طارحها .

ونجد في رواية اللاز أسلوب السرد ، والمونولوج الداخلي ، والفلاش بك معا ، واذا عرفنا أن الرواية تسجل أحداث فترة معينة من تاريخ الثورة الوطنية ، وتعيد تركيب واقع هذه المرحلة السياسي والاجتماعي ، وأنها لم تظهر أثناء الثورة الوطنية ولا بعدها مباشرة ، بل انتظرت حتى السبعينيات لتخرج مع أعمال روائية أخرى سلط فيها الكاتب الاضواء على مراحل متقدمة من مسيرة الثورة ، أدركنا سبب وجود هذه الأساليب جنبا الى جنب في رواية واحدة ، وتعاونها في رسم بانوراما عن الثورة الوطنية . فموضوع الثورة الوطنية الذي تناوله الكاتب في رواية " اللاز " يتطلب تقنيات من هذا النوع ، ان لم نقل يفرضها فرضا لتسجيل الأحداث التي تمليها الذاكرة حينا ، ويمليها الواقع أحيانا أخرى كذلك طبيعة الموضوع نفسه الذي يتعامل مع التاريخ بشكل أو بآخر . وبواسطة

السرد نقل الكاتب كثيرا من الصور عن الثورة الوطنية : مشاهد عن بشاعة الاستعمار وممارساته اللا انسانية ، ومشاهد عن تدهور حياة الناس الاجتماعية وعن طريق " الفلاش بك " يعود الكاتب من حين لآخر الى الوراء لاسترجاع حوادث من الماضي ، أو للكشف عن ماضي بعض الشخصيات في الرواية. يقول الكاتب على لسان زيدان : " واللاز.. ؟ آه ابن خطيئتي وزناي . . . وجدنا أنفسنا في الغابة كآدم وحواء ، وحيدين ، ولم يكن في وسعنا الا أن نبيت ملتصقين .. كان الفصل خريفا وكان الصقيع ينزل بعد الظهر فأنجبناك .. شرارة طائشة ، ولعنة صارخة "(1).

وينكشف النص السابق عن مرحلة من أهم مراحل" زيدان " احدى الشخصيات الرئيسية في رواية اللاز ، وتظهر أهميتها أيضا في ازالة الغموض عن شخصية اللاز الذي ولد من مريانة وزيدان في ظروف جد صعبة وحرجة واعادة الاعتبار له بعد أن اعترف زيدان بأنه ولده .

وشخصيات رواية اللاز لا تنكشف للقارئ دفعة واحدة ، بل يعمد الكاتب وبوسائل فنية مختلفة ، الى اخفاء كثير من الأسرار الهامة في حياة شخصياته ، ثم يبدأ في الكشف عنها شيئا فشيئا حتى تنتهي الرواية. وقد لعب " الفلاش بك " دورا كبيرا في استعادة الكاتب لأحداث الماضي ، وفي استعادة الشخصيات لذكريات كثيرة ساهمت في تطوير الحدث. وبالاضافة الى السرد الذي يملأ صفحات من رواية اللاز، وتكنيك "الفلاش بك " الذي استعاد من خلاله أجزاء كثيرة من ماضي الثورة ، وماضي الشخصيات ، الذي كان جزءا لا يتجزأ منها .

---

1) اللاز ، ص : 164 .

يلجأ الكاتب الى استعمال الحوار بنوعيه الخارجي والداخلي ، الحوار الذي هو ضرورة تفرضها أحداث الرواية ، والخط التصاعدي لها : حوار خارجي بين شخصيات كثيرة في الرواية،(1) وحوار داخلي صامت تجرية بعض الشخصيات مع نفسها في مواقف معينة تختلى فيها بنفسها (2) . واستعمال الحوار في رواية تتناول موضوع الثورة هو أكثر من ضرورة فنية . فقد بين بواسطته نوع العلاقات التي كانت قائمة بين الناس في حياتهم اليومية من جهة ، وطبيعة العلاقات بين المناضلين في صفوف الثورة من جهة ثانية . وعن طريق الحوار أيضا كشف الكاتب عما في الاستعمار من فساد وتعفن ، وذلك من خلال الحوار الكثير الذي أجراه الكاتب بين اللاز والضابط الفرنسي في بداية الأمر . ثم بين بعطوش والضابط الفرنسي بعد ذلك . واستعمل الكاتب الحوار عند تحليله للمواقف الايديولوجية لبعض القادة والمسؤولين في الثورة ، وللخلافات التي كانت قائمة بينهم ، يقول : " اتخذ القرار في شأنكم بالنسبة لزيدان لابد من تبرؤه من العقيدة، وانسلاخه من الحزب واعلان انضمامه الى الجبهة . . بالنسبة لكم أنتم ، التبرؤ أيضا والدخول في الاسلام .

- لكم الخيار في أن تجيبوني فورا أو أن تجيبوني فيما بعد .
- هذا جنون
- كيف يفكر هؤلاء الناس ؟
- ما معنى كفاحكم اذن ؟
- ردد ثلاثة أوروبيين ، وفضل رابع الصمت ، بينما استرق القبطان الاسباني نظرة الى زيدان كأنما يحيل عنه القضية بينما عقد هذا أصابع يديه ، وقال بالفرنسية أيضا :

1) اللاز ، ص : 48 .
2) المرجع نفسه ، ص : 97 .

- واذا لم تتم الاستجابة لهذه الطلبات فهل هناك حلّ آخر ؟
- آه نعم ،الذبح ! ...
- وهل يمكن أن تصدقونا بسهولة اذا أعلنا لكم عن استجابتنا لرغباتكم؟
- تكتبون بيانا تدينون فيه مواقف احرابكم لنتولى ارساله الى الصحافة العالمية . نعم نصدقكم بسهولة ولم لا ؟
- هكذا اذن

علق القبطان الاسباني في حين قال زيدان :

- الذبح للخونة وللمضادين للثورة ،أما نحن ... أما نحن بأي عنوان تذبح .
- لسنا في مجال مناقشة يا زيدان أمامنا أمر يجب أن ننفذه جميعا"(1) .

وقد مكن الحوار الكاتب من ابراز أفكار وآراء الاشخاص المتحاورين في الثورة، وفي الاحزاب التى ينتمون اليها ،وكشف عن عمق القضية المطروحة للمناقشة وعن مستوى الشخصيات أيضا .

واستعمل الكاتب الحوار الخارجي في مواضع أخرى ،ومع شخصيات ثانوية، كشف من خلاله عن نوع العلاقات الاجتماعية بين الشخصيات وعن مستواهم الاقتصادي والاجتماعي كالحوار الذي كان يدور بين "حمو" و قدور(2)، أو بين قدور وأمه(3) . وتتميز بالكثير من البساطة والعفوية والصدق .

ووظف الكاتب الى جانب الحوار الخارجي في رواية " اللاز " المونولوج الداخلي ، حيث تتحدث بعض شخصيات الرواية مع نفسها ،ولجأ الى المونولوج

---

1) اللاز ،ص : 221 - 222 .
2) المرجع نفسه ،ص : 29 - 30 .
3) المرجع نفسه ،ص : 34 .

الداخلي في حالات خاصة جدا ، وهو قليا بالنسبة الى الحوار الخارجي الذي يملأ صفحات كثيرة من الرواية ، واستعمله خاصة مع شخصيتي " زيدان "و" اللاز " الشخصيتين الأكثر ثراء وعمقا في الرواية . وكشف "المونولوج الداخلي " الذي استعمله الكاتب مع شخصية ، " زيدان " عمّا في هذه الشخصية من عمق ووضوح وعن طريق هذا الحوار تتحرر شخصية " زيدان " من كل الضغوط الخارجية ، وتتحدث عن كثير من الاسرار التى لا تستطيع البوح بها . وكشف حوار زيدان مع نفسه عن ثقافته الكبيرة ، واطلاعه الواسع ، ورؤاه الواضحة . واستطاع الكاتب عن طريق " المونولوج الداخلي " الكشف عن أعماق شخصية " زيدان " وعن مختلف المشاعر التى يحملها . وعن موقفه من رفاقه المناضلين ، وتحليل مختلف مواقفهم ، وآرائهم وتصرفاتهم .(1)

والأمر نفسه يصدق علي شخصية " اللاز "، التي استطعنا من خلال مونولوجها الداخلي " معرفة الجوانب الخفية فيها ، والتي لم يكن يظهر منها الا القساوة ، والطيش والعربدة . وتعتبر الصور التى قدمها الكاتب بواسطة " المونولوج الداخلي " لشخصية " اللاز " عندما كانت تتعرض لاشد ألوان العذاب على يد السلطات الفرنسية من أروع الصور التى رسمها الكاتب في هذه الرواية ، حيث أظهر الحوار الداخلي حقيقة النفس البشرية وما يعتريها من ضعف وقوة ، وخوف وتناقض في بعض الاحيان .(2)

- 3 -

أما فيما يتعلق باللغة الموظفة في رواية " اللاز " فنحس بانّ طبيعة

1) اللاز ، ص : 160 .

2) المرجع نفسه ، ص : 85 ، 86 .

الموضوع المتناول هي التي حددت القوالب اللغوية المستعملة . فموضوع الثورة الوطنية في رواية اللاز ، وموقفه الجرئ من بعض أحداث الماضي ،أثرا بطبيعة الحال على المستوى العام للغة الرواية التي كانت عنيفة قاسية في أماكن ،ورقيقة شفافة في أماكن أخرى من الرواية . ونلاحظ أن لغة رواية " اللاز " تتوزع على مستويات الوصف الخارجي ،فالكاتب عندما عكس واقع الثورة الوطنية قام بنقل صور عن أبعاد هذا الواقع المادية ،وتكشف اللغة الموظفة في رواية اللاز عن المستوى الاجتماعي ،والثقافي والاقتصادي لكل شخصية من شخصيات الرواية ومن ثم يمكن تحديد عدة مستويات لغوية في رواية اللاز .

فمع شخصية " حمو " يوظف الكاتب لغة بسيطة ،هي لغة الأوساط الشعبية ، التي تنتمي اليها هذه الشخصية ،بكل ما فيها من بساطة ،وعفوية وتكشف اللغة الموظفة مع شخصية "حمو" عن كثير من كنوز التراث (1)خاصة الأمثال الشعبية التي هي جزء لا يتجزأ من لغة الحديث اليومي لهذه الأوساط، ومظهر من مظاهر ثقافتها . وقد حقق الكاتب . بفضل هذه اللغة واقعية هذه الشخصية ،وذلك بتعبيرها عن أبعادها المختلفة . واستطاعت هذه اللغة أيضا أن تعبر وبعمق عن واقع الطبقة الاجتماعية التي أفرزت شخصية حمو.(2)

وفي الرواية مستويات لغوية أخرى لعبت دورا في تنويع واثراء حوارها ويظهر الفارق في مستويات اللغة في رواية اللاز حتى بين الشخصيات التي تنتمي الى طبقة واحدة ،وتعمل من أجل أهداف واحدة .

فمع شخصية " زيدان " تبرز تعابير لغوية مختلفة ،ويظهر مستوى لغوي آخر في الرواية ،بالرغم من أن الشخصية تنتمي الى الطبقة نفسها التي ينتمي

---

1) اللاز ، ص : 30 .
2) المرجع نفسه ،ص : 42 .

اليها " حمو " و " اللا ز " وشخصيات أخرى

فشخصية " زيدان " بالاضافة الى تجذرها في الواقع تحمل رؤى مستقبلية واضحة ، وتحاول فهم تناقضات الواقع ، ومن ثم كانت اللغة متميزة ، تعتمد على التأمل ، والتحليل ، والمقارنة ، وكانت لغة قوية عميقة تكشف عن مستوى شخصية " زيدان " الفكرى والثقافي ، وعن وعيه السياسي ، والايديولوجي . وتبرز اللغة الموظفة مع شخصية " زيدان " عما في هذه الشخصية من عمق ، وتميز ونضج على عكس الشخصيات الاخرى التى كانت تتطور بالتدريج . وحتى المقاطع التي وظف فيها الكاتب مع شخصية " زيدان " لغة فلسفية مغلفة بالرمز أحيانا أبانت مناقشات هذا الأخير لبعض القضايا الفكرية ، وتحليله لبعض الأعمال الأدبية التى قرأها أو لقضايا سياسية عامة أفرزتها الثورة الوطنية . وهي المناقشات التى أجراها مع نفسه من خلال مونولوجات داخلية وجد بعض الدارسين لغتها لغة مفتعلة بالنسبة الى شخصية زيدان الفلاح البسيط (1). لكن عندما نتتبع خط تطور الشخصية : خروجها من القرية ، وسفرها الى فرنسا ، وتعلمها القراءة والكتابة ، واحتكاكها بالاوساط الثقافية في فرنسا (2)، وسفرها الى موسكو ، ثم عودتها بعد أن اندلعت الحرب الى الجزائر ، ندرك أن هذه اللغة تمثل شخصية " زيدان " المناضل المثقف خير تمثيل يقول (زيدان) في احدي الفقرات عندما خلا بنفسه مستعيدا بعض ما قرأه :

" آه ، لا أحد هنا يمكن أن أتحدث معه عن ، فرانسوا مورياك ، وعن بطلته الجبانة - تيزيردي كيرو - يقينا أنه رمز بها ، قاصدا أو غير قاصد ، الى الامة الفرنسية ، كيف كانت ضحية الاعتبارات البرجوازية . . بيد أنه لم يفلح في ابراز تمردها ، لقد جعلها انهزامية ، استسلامية الى أقصى حد . . والادهى من ذلك

1) جورج راسي ، اللاز ، رواية الطاهر وطار ، صفحة من تاريخ الثورة / البلاغ عدد 185 . 1975/7/28 .

2) اللاز ، ص : 206 .

أن يجعل البرجوازية تقذف بها في باريس تزين وتلطخ وجهها بالمساحيق، وتترامى في المقاهي، ليشمل لها الشبان السكاير ... تيريز دي كيرو-استأنفت حياتها بعد الإنهزام عاهرة، عديمة اللقب والضمير.. عاهرة محطمة..مع ما في ذلك من لمسات فنية بارعة، فانه خال من أية موضوعية أو روح علمانية. الأم لا تتحطم وحتى اذا ما تحطمت فانها لا تمارس المهر مثلها فعلت تيريز دي كيرو.. لعله في آخر الكتاب يرمز الى الثورة الفرنسية، الى الكومونة.. يقينا أن فرنسوا مورياك لم يرمز لشيئ انما روحه هي التى كانت رمز لطبقته لوجهة نظرها فيما حدث، ويحدث حولها لقد كان وجوديا وتيريز دي كيرو ثائرة غير مضحية ومتمردة من باطنها من الداخل ليس الا ..."(1).

وتكشف بداية النص الذي استشهدنا به عما قلناه سابقا عن شخصية "زيدان" من تميز، وذلك بالرغم من انتمائها الطبقي. وقوله "آه لا أحد هنا يمكن أن أتحدث معه عن فرنسوا مورياك" يكشف عن مستواه الثقافي، واطلاعه، وثراء تجربته من جهة ويكشف عن مستوى من حوله من جهة ثانية، حيث كان أغلب المناضلين في صفوف الثورة أميين، انحدروا من اوساط شعبية. ويبرز النص أيضا موقف "زيدان" الطبقي، وتكوينه السياسي، وأثر ذلك في تحديد مستوى لغته.

لقد حاول الطاهر وطار من خلال التنويع في لغة رواية "اللاز" تقريب شخصياته من القارئ، ووضعها في وسطها الطبيعي، وخلق علاقات اجتماعية بينها. كانت اللغة التى أحسن انتقاءها، وتوظيفها وسيلة لذلك الربط. وبالاضافة الى التنويع في لغة الرواية، اهتم الكاتب كثيرا بالتراث الشعبي الذي كشف بواسطته

---

1) اللاز، ص: 168، 169.

عن إمستوى تفكير شخصياته ، وثقافة الاوساط المنحدرة منها .

- 4 -

وعن طريق التراث كشف الكاتب عن التناقضات الموجودة في الواقع، حيث تضمنت الرواية العديد من الامثال الشعبية المستمدة من بيئة الشخصيات ، وتختلف الامثال الموظفة في رواية " اللاز " من حيث المضامين التي تحملها . ويعتبر المثل " ما يبقى في الوادي غير حجاره " من ابرز الامثال التى ورد ذكرها في الرواية ، فقد بدأت به الرواية ، وتكرر كثيرا في ثناياها ، وانتهت به أيضا . (1) ونفهم من حجارة الوادي أنها كل ما هو أصيل ، وصحيح ، وحق ، بينما الباطل ، والشر ، والامور غير الاصيلة ستزول كما تزول كل الاشياء الزائدة عن حجارة الوادي الثابتة . ونظرا لقيمة المثل ، وارتباطه بالواقع ، فقد سرى بين شخصيات الرواية ، وغدا كلمة سر بين مناضلي الثورة . وهو زيادة على ذلك مستمد من واقع الحياة اليومية لشخصيات الرواية ، وعبر من خلاله كما قال أحد الدارسين عن رؤاه المستقبلية ، وثقته في انتصار قضية الثورة الاشتراكية . (2)

والمأثورات الشعبية التى وظفها الطاهر وطار تتغلغل في المعنى لتصبح جزءا لا يتجزأ من العمل نفسه ، وتساهم في تطوير الحدث ، وفي تأصيل الشخصية بوصفه جزءا من ثقافتها ، وفي تعميق رؤية الكاتب ، بالاضافة الى اثراء أسلوب الرواية وتنويعه .

وفي الرواية نوع آخر من المأثورات الشعبية تجلى في بعض الصور التي

1) اللاز ، ص : 43 .

2) بورايو عبد الحميد ، مجلة الوحدة ، الاحد 10 أكتوبر 1976، عدد 21 .

نقلها الكاتب من صميم الحياة اليومية والتي تعكس بعض العادات والتقاليد المنتشرة في مواضع كثيرة من الوطن ،كالاعتقاد في قدرة الاولياء ،والاستجابة لدعوات الناس ،والاطلاع على الغيب . يقول قدور :

" حق ربي ما تركت بابا .. خسرت أكثر من عشرين ألف ،حرز سي حمود وما أدراك، لم ينفع ... سحر سي القريشي ،وما أدراك كذلك .. وحرز سي عثمان، وما أدراك كذلك ..

ويستغرق قدور في سرد كل الذين أستعان بهم ،وكل ما بذله ،حتى اشترى أخيرا ، كتاب الشيخ السيوطي ،الرحمة في الطب والحكمة .

فيه حكمة جربتها ونفعت .

- نفعت ماذا تقول ؟

قابلتها أمي اليوم في الحمام . وأرسلت لي معها السلام .

- ولم تعلمني سوى الآن "(1)

بالرغم من بساطة الصورة الا أن الكاتب كشف بواسطتها عما يدور في ذهنية " قدور "، أحد شخوص رواية "اللاز"، كما كشف عن أهمية هذه العادات في الأوساط الشعبية ، واعتقاد الناس الراسخ فيها في تلك المرحلة بالرغم مما تنطوي عليه هذه العادات من تخلف ،وجهل وتأخر الا أن الكاتب حقق بمثل هذه الصور المستوحاة من التراث الشعبي الزاخر ،واقعية شخصياته وتمثيلها الصادق لبيئتها ،وزمانها ،واكتسبت الأحداث بواسطة هذه الصور مرونة كبيرة . وكشف الكاتب عن مثل هذه العادات هو أيضا ادانة لها .

---

1) اللاز ،ص: 29 ، 30 .

- 5 -

في رواية يعزل فيها الكاتب بطله عن محيطه ، وعن حركة التطور العامة التي يشهدها مجتمعه ، يجب البحث عن الاداة الفنية التي تؤدي هذا الفرض وتكون في مستوى الحدث . واذا كانت عدة أساليب فنية تعاونت لتحمل المضامين التي طرحها الكاتب في رواية " اللاز " ، وأعطت للرواية تكنيكها المتميز، فان الأمر يختلف بالنسبة لرواية "الزلزال " التي فرضت طبيعة موضوعها وطبيعة المرحلة التي تناولتها ، تكنيكا خاصا تجلى في أسلوب المونولوج الداخلي الذي ساعد الكاتب في تحديد الابعاد المختلفة للشخصية الرئيسية في الرواية ، شخصية الشيخ " عبد المجيد بوالارواح "، والكشف عن عالمها الداخلي ، الزاخر بالأحداث والذكريات ، والمليئ بالتناقضات . وعن طريق المونولوج الداخلي تتحرر الشخصية ، فتنبعث الاحداث والذكريات دون ترتيب ، ويختلط حاضر الشخصية بماضيها ومستقبلها ، وتمتزج الأمكنة في ذهن الشيخ بوالارواح ، وتتكثف لتكون لحظة الحاضر الحرجة بالنسبة اليه لحظة وجوده في قسنطينة مع ارهاصات الثورة الزراعية .

وبالاضافة الى المونولوج الداخلي وظف الكاتب لغة تتنوع بحسب الحالات النفسية لبطل الرواية الشيخ عبد المجيد بوالارواح ، فهي عنيفة حادة حينا ، قاسية بذيئة أحيانا أخرى ، تعبر عما يعيشه الشيخ بوالارواح من تمزق ، وتوتر وانفصام في الشخصية مما يؤدي في نهاية الأمر الى حقد وسخط ، وشتم من يصادفهم في طريقه . يقول وطار على لسان الشيخ بوالارواح :

" خسئتما

علق خلفهما الشيخ عبد المجيد ، وظل لحظات يفكر ...

لن يدخل الجنة ساكن من أهل الحي ، لن تقبل لكم صلاة أو صيام أو عباده ، ولن يوثق لكم في دين . حتى النار لن تدخلوها ، ستعاملون كالحيوانات والحشرات ، وليس لدى الله أو ملائكته وزبانيته وقت ليضيعوه في التفكير في أمثالكم . بعضكم يحشر مع الذئاب ، وبعضكم مع الكلاب ، وأطفالكم مع القطط والجديان خسئتما . تتحدثان عن الحكومة وتثنيان عليها : واحد معجب بمعمل المحركات ، وآخر بمسجد الأمير عبد القادر ، وآخر لست أدرى بماذا ، ربما بالنقابات أو الشيوعية أو بالسجون ، عندما تكونون في صحراء عين صالح ، أو ادرار أو في صخور الهقار ، أعطوا رأيكم في الحكومة أيضا التعساء ، يا من تجلبون السخط على الاغنياء بوجودكم ، وبثرثرتكم أيضا "(1)

يكشف هذا النص الذي بدأه بلفظة " خسئتما " عن التمزق الحاد الذي يعيشه بطل رواية الزلزال ، الشيخ عبد المجيد بوالارواح ، والعزلة التي وضعه فيها الكاتب ازاء مجتمعه ، ومن ورائه كل طبقته الاقطاعية ، ويتضح من خلال النص أن الشيخ بوالارواح فقد صلته بالمجتمع ، وأصبح يحس بغرابة كل شئ يحيط به ، وبالوحدانية داخل مدينة كان أحد سكانها فيما مضي . وقد ولد التمزق الداخلي ، والاحساس بالغربة عند بوالارواح نوعا من العداء لكل من يراه يتحرك فوق أرض قسنطينة ، المدينة التي ظل يحسبها ملكا للأغنياء والشرفاء لا غير .

ويكشف النص أيضا عما يحمله الشيخ بوالارواح من حقد وكراهية للطبقات الدنيا في المجتمع مما جعله يقارنها بالحيوانات . ويبرز النص أخيرا سخط الشيخ

---

1) الزلزال ، ص : 154 .

بوالارواح على السلطة وهو جوهر الصراع الذي يعيشه ، الحكومة التى تنـــوى تأميم الاراضي ، وزعزعة أركان الاقطاع . وتتميز اللغة الموظفة في هذا النص بالقساوة والحدة ، وهي أيضا مليئة بالحقد والكراهية، مشحونة بالالم والتوتر، تعبر عن شخصية بوالارواح المنهارة نفسيا ، المفلسة هي وكل الطبقة الاقطاعية اجتماعيا .

وبالاضافة الى تكنيك المونولوج الداخلي الذي استعمله الكاتب مع شخصية الشيخ بوالارواح ، وعرى من خلاله واقعه ، وواقع طبقته ، و وظف الكاتب في الروايـــة ، وعلى لسان الشيخ بوالارواح دائما بعض النصوص الدينية التى كانت تستغلها الطبقة الاقطاعية من أجل تشبيت أقدامها ، واعطاء الشرعية لما كانت تمتلكه .(1)

وكشف الكاتب بهذه النصوص الدينية عن ثقافة الشيخ " بوالارواح "، وعن استغلال البطل لهذا الجانب من أجل حماية ممتلكاته ، وابعاد خطر التأميم عنها .(2) .

ومع أن الرواية لا تحتوى الا على سخضية الشيخ بوالارواح ، الشخصيـــــة المحورية التى استقطبت جميع الاحداث ، فان الكاتب اعتمد على شئ من الحوار الخارجي بين أشخاص لم يظهروا بوضوح في سياق الرواية ، ونقل هذا الحـــوار من مقاهي قسنطينة وأزقتها ، مفسحا المجال للشيخ بوالارواح الذي لم يكن يطيق

---

1) الزلزال ، ص : 13 ، ص : 29 .
2) المرجع نفسه ، ص : ، 47 .

سماعها للتعميق عليها وعن طريق هذا الحوار كشف الكاتب عن كثير من التناقضات الموجودة في الواقع ، خاصة عندما يتركها تتصادم مع أفكار بطل الرواية ،الشيخ عبد المجيد بوالارواح . يقول وطار في حوار بين شخصين :

" مشروع الاصلاح الزراعي سيعرض على النقاش عما قريب .

- هكذا ؟!

- عما قريب جدا ،علمت ذلك من الاجتماع الأخير بالعاصمة . هذه السنة يشرع في العملية .

- سيكون حدثا عظيما . مثل اندلاع الثورة ،أو الحصول على الاستقلال . الحق أنه تأخر . تسع سنوات كاملة بعد الاستقلال ولم يتحقق أي عمل في هذا المجال انظر الى هذا الخلق ،انهم هاربون من الريف ، حيث البطالة والجوع والمرض والجهل . والله وحق ربي أنهم في القل وفي الأوراس وسوق اهراس وتبسة لا يزالون على ما كانوا عليه منذ عدة قرون "(1) .

والنص نموذج للحوار الخارجي الذي أثرى به الكاتب أسلوب الرواية، وهو يجرى بين شخصين لا نعرف عنهما شيئا ، وعن طريق هذا الحوار أعطى الكاتب وجهات نظر مختلفة حول بعض القضايا ، وجعل بطل الرواية يصطدم بهذه الآراء واذا كان الشيخ عبد المجيد بوالارواح يعتبر موضوع الاصلاح الزراعي بمثابة صاعقة تنزل على الاغنياء ، وتفقدهم نفوذهم ،فان هذين المتحاورين يعتبر انه حدثا عظيما في مستوى اندلاع الثورة أو الحصول على الاستقلال .

وقد أثرى الكاتب الحوار الخارجي ببعض الصور المستمدة من التراث

---

1) الزلزال ، ص : 207 .

الشعبي لهذه الأوساط ،وتتمتع الأمثال الشعبية الموظفة في هذا الحوار بالبساطة وشدة التركيز ،وبالتكثيف في المعنى (1).

واستغل الكاتب بعض هذه الأمثال في الكشف عن أنانية الشيخ بوالارواح ، وجشعه ،وعن نفاقه الاجتماعي أيضا كما يتضح ذلك من خلال الحوار الجارى بينه وبين أحد معارفه : يقول وطار في هذا الحوار :

" تفضل تفضل مرحبا بك ،العشاء في دارى ما في ذلك جدال .

- كثر الله خيرك أنوى مغادرة المدينة الليلة .

- هذا غير معقول . عمّ صهرى ،ويدخل قسنطينة ويخرج دون أن يذوق ملحى .

- أنا عبد المجيد بوالارواح . عمّ الطاهر صهرك ..
مدير ثانوية بالجزائر العاصمة . وعالم في الدين والنحو والصرف . ألم تسمع بي قبل اليوم ؟!

- حدثنا عنك سي الطاهر . نعم حدثنا عنك .
أعلن ،ثم راح يفكر " لوكان يحرث ما باعوه " لا يسأل عنه طيلة هذه المدة ،ثم يتقدم يعلن عن نفسه أنه عمه ..." حنان الدجاجة بلارضاعة" (2)

ونلاحظ أيضا على لغة رواية الزلزال أنها تتوزع على مستويات الوصف الخارجي ،فتكثر بها أسماء الشوارع ،والمقاهي ،والأبنية ،والمدارس ، وكثيرا ما يحافظ الكاتب على مسمياتها القديمة مما يجعله يستعمل الالفاظ العامية أو الأجنبية في بعض الاحيان (3).

---

1) الزلزال ،ص : 54 ، ص : 178 .

2) المرجع نفسه ،ص : 105 .

3) المرجع نفسه ،ص : 45 ،ص : 152 .

والملاحظة التى نسوقها أخيرا ونحن نتحدث عن رواية " الزلزال " أنها تنزل في بعض الاحيان الى مستوى التقريرية والمباشرة ، فتصبح أقرب الى الكتابة الصحفية منها الى الكتابة الفنية التى يتطلبها العمل الروائي الناجح.(1)

- 7 -

تبدأ رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " بالحوار بين سائق الاندروفير بلقاسم ، وجميلة الطالبة المتطوعة ضمن فوج الطالبات المتطوعات،(2) المتوجهة الى احدى القرى المجاورة للعاصمة . وللبداية دلالتها الخاصة، حيث يكشف الحوار الذي استهل به الرواية عن تعدد الشخصيات بها عكس ما رأيناه في رواية " الزلزال " القائمة على البطولة الفردية .

فطبيعة الموضوع المتناول في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " والفترة الزمنية التى حاول الكاتب تغطيتها ، والموقف الذي يقفه الكاتب من الواقع، ساهمت كلها في خلق البطولة الجماعية في الرواية ، وفي تحديد التكنيك الملائم لها ، التكنيك الذي حاول الكاتب بواسطته ابراز العلاقات المتشابكة بين الناس والمجتمع . ويعتمد التكنيك الموظف في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " على الحوار بشكلية الخارجي والداخلي بالدرجة الاولى . وعن طريق الحوار الخارجي كشف الكاتب عن مختلف العلاقات التى تربط بين شخصيات

---

1) مقال للدارس عصام المويلحي، الثورة السورية 10/4/ 1975

2) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 5، 6 .

الرواية بعضها ببعض ، وحلل كثيرا من المواقف والافكار ، وكشف من خلال أسلوب التحاور الذي يملأ صفحات كثيرة من الرواية عن الصراع الايديولوجي الدائر آنذاك بين مناصرى الثورة الزراعية ، وتأميم أراضي الملاكين الكبار ، وبين الذين يقفون ضدها ، ويعملون على عرقلة حركة التطور ، بشتى الوسائل والطرق يقول في حوار بين طالبين متطوعين :.

" - غداً ألتحق بهم

- بمن

- كيف بمن ؟ بالجماعة ، ألا تعرف أن يد الله مع الجماعة ، انني لا أفهم تصرفنا الشاذ هذا ؟ لقد اتفقنا على أن نتوحد ، فلماذا نخل نحن بالاتفاق ، بينما هم يتشبثون بتطبيقه ؟

تغير لون مصطفى عدة مرات . ارتعدت فرائصه . زاغ بصره بعد أن طرفت عيناه كثيرا . وبسرعة خارقة اصطكت ركبتاه ، قضقضت أسنانه . تقلصت ذقنه .

- أنت . أنت ؟ تلميذ المعهد الاسلامي "وابن " الريف النقي ، طالب كلية الآداب تلتحق بالش . . شو شيوعيين ؟؟ أنت ؟

- من أين لك هذه المعلومات عني أولا وقبل كل شئ .

- اننا نعرف كل صغيرة وكبيرة عنكم وعنهم جميعا . والا كيف اخترناكم ؟

قفز ابراهيم من سريره . كان في أوج غضبه ، يحاول أن لا يظهره . لاحظ بوزيد وعلوان ذلك . فاستعدا للتدخل في اللحظة المناسبة . قصد جرابه حطه وراح يفتش أشياءه البسيطة . صابونة صغيرة آلة حلاقة صدئة . ديوان بشارة الخوري ، وكتاب دعاء الكروان لطه حسين ، وديوان اللهب المقدس لمفدي زكريا . قميص واحد سروال واحد ، وجبة للنوم .

- ماذا تفعل ؟

- لا دخل لأحد في شأني ،أنا متطوع ولست مجندا لأي ناني .

- ولكنك كنت معنا .

- لقد اتفقنا أول أمس بمحضر السلطات المحلية على أن نلتئم في تطوع واحد كانت معركة خضتها وحدك دون اشراكنا فاوضت وبعت واشتريت ووصلنا الى قرار التوحيد ثم ها أنك تستهين بنا وتقرر وحدك خيانتهم وضربهم . ابق وحدك أو مع من تشاء أن يبقى معك .أما أنا فذاهب ،أنا متطوع من أجل دعم الشورة الزراعية وهذا كل ما هنالك ". (1)

والرواية مليئة بمثل هذا الحوار الذي أبرز الكاتب من خلاله طبيعة الصراعات الايديولوجية التى افرزتها المرحلة ،هذه الصراعات التى كانت تدور بين مناصري الاشتراكية ،ومريدي التقدم ،وبين من رفضوا التغيير ،ووقفوا ضد التقدم . ويكشف من جهة ثانية عن المشاكل المفتعلة التى تحاول القوى المعارضة للثورة الزراعية خلقها . هذه القوى التى تستغل الدين من أجل حماية مواقعها الطبقية .

ويتمتع الحوار بالعمق ،وشدة التركيز ،نوع فيه بين الجملة القصيرة والطويلة ، بحسب التلوين النفسي للشخصيتين المتحاورتين ،وانتقى لغة تكشف عن مستوى الشخصيتين ،وعن ثقافتهما وعن انتماءاتهما الطبقية .

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ،ص : 136 .

وبالاضافة الى الحوار العادي ، وظف الكاتب المونولوج الداخلي ، وهو قليل اذا ما قيس بحجم المونولوج الداخلي في رواية "الزلزال" ، وقد كشف بواسطته عن أعماق شخصياته ، وعن عوالمها الداخلية ، وعن مشاكلها الخاصة . ففي رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " التى اهتم فيها الكاتب كثيرا بقضية المرأة من خلال توظيفه لفوج الطالبات المتطوعات الذي كان يعمل الى جانب فئات المجتمع الاخرى من أجل تغيير وجه الريف الجزائري ، ودفع حركة التقدم الى الامام . ونقل صورا كثيرة عن أعمالهن في الريف ، وتحدث عن علاقتهن بالطلبة المتطوعين (1) ، وبالفلاحين ، وعائلاتهم من خلال أسلوب السرد الذي تخلله الحوار . أما المونولوج الداخلي فقد كشف بواسطته عن أعماقهن ووظفه مع شخصية " جميلة "، فعرفنا بواسطته عن محيطها العائلي ، وعلاقتها به ، ومشاكلها داخل الاسرة (2) ومستواها المادي ، واعتمد الكاتب في استشفافه لاعماق شخصية " جميلة " على التحليل النفسي الذي ساعده على فهم كثير من مشاكلها كامرأة ، وكطالبة جامعية تعيش مشاكل المواصلات ، وتأخر المنح ، ومشاكل الدراسة ، وكطالبة متطوعة تحاول أن تتجاوز مشاكلها الخاصة ، وتخرج الى الارياف لتعمل على تحرير غيرها .

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 56 .

2) المرجع نفسه ، ص : 79 .

وقد وفق الطاهر وطار في الكشف عن أعماق شخصية " جميلة " ، وتحليل نفسيتها ، وابراز مشاعرها الداخلية موظفا في ذلك المونولوج الداخلي الذي تحررت بواسطته الشخصية من كل الضغوط الخارجية ، وراحت تستعيد طفولتها وشبابها ، ومشروع الزواج الذي فشل مع القريب الثرى ، جفنة المردود التي فتلتها أمها بيد ميت سرقت من المقبرة ، كي يأكل الخطيب منها ويتم الزواج (1) ، والتحاقها بالجامعة ، وعلاقتها " بمراد " الطالب التقدمي ، (2) و مشاركتها في أعمال التطوع الخ ...

وقد استطاع الكاتب تحديد أبعاد شخصية جميلة النفسية والاجتماعية والفكرية والايديولوجية ، مستعملا المونولوج الداخلي حينا ، والسرد المصحوب بالتحليل حينا آخر وفي مواضع أخرى الحوار الذي بواسطته ربط الشخصية بمحيطها الاجتماعي .

والأمر نفسه يقال بالنسبة الي رفيقات " جميلة " ، فمع " فاطنة " الطالبة المتطوعة ، وظف الكاتب المونولوج الداخلي الذي كشف بواسطته عن أعماقها الداخلية ، وعن أسرارها الخاصة ، ومشاكلها الاجتماعية ، وهمومها العائلية ، والاخفاقات المتتالية في حياتها ، والاحباطات النفسية وعبر كذلك عن تطلعاتها المستقبلية . يقول الكاتب على لسانها :

" يوسف أسقط نفسه ، ورفض شهادة الطب . فضل أن يظل طالبا جامعيا ، وفرض على أن اسقط الجنين الذي نما في بطني طيلة ثلاثة أشهر كاملة .

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 79 .

2) المرجع نفسه ، ص : 149 .

- واذا ما انجبناه في مثل هذه الظروف ، ماذا سنفعل به ؟

- نضيفه الى مسؤولياتنا التاريخية .

- ولكنه ليس مسؤولية عاجلة ، اننا لم نعثر على سكن بعد . وعندما يعود موظف شركة البترول من بريطانيا ، بعد ستة أشهر ، سنجد أنفسنا في الشارع من جديد . قد يكون كاتب ياسين المسكين لا يزال في المركز العائلي بابن عكنون ، فنسكن عنده أسابيع ، ثم يسكر ويطردنا ، وقد نعود الى الاحياء الجامعية ، كل في حيه في انتظار أن يعتبرونا مثل جميع الطلبة المتزوجين ، ويعطونا شقة زوجية ، لقد حاولنا ذلك دونما فائدة ثلاث سنوات كاملة"(1).

فالمونولوج الداخلي كما يظهر من خلال هذا النص ، يكشف عن أعماق الشخصية وعن جوانبها الخفية ، وهمومها الخاصة ، فقد بدت " فاطنة " أول الأمر كطالبة جامعية متطوعة ، تعمل الى جانب الفلاحين ، وأفواج الطلبة المتطوعين في الارياف.

وقد أظهر الكاتب هذا الجانب من الشخصية منذ الوهلة الأولى للقراء أما جوانب الشخصية الاخرى ، فظهرت تدريجيا في الرواية ، وكشفت عنها الشخصية بنفسها بواسطة المونولوج الداخلي الذي أعطانا ماكنا نجهله عنها مشاكل الدراسة ، وأزمة السكن ، ومعاناتها النفسية . هذه المشاكل التي تحاول أن تتجاوزها هي وزوجها يوسف بواسطة العمل الثوري ، ومساعدة الناس على التحرر ، وحل مشاكلهم . انه البديل الذي يحقق للشخصية توازنها . والنص السابق يضع الشخصية في مواجهة نفسها في اللحظات القليلة التي تخلو فيها بنفسها ، وتنطلق في استعادة ذكرياتها ، وهمومها ، وتطلعاتها المستقبلية ، لتحتضن بعد ذلك هموم ومشاكل الآخرين . وعليه فلكل شخصية من شخصيات رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي عالمان : عالم خارجي يحيط بها

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 72 -

تحاول أن تؤثر فيه وتتأثر به ، وعالم داخلي زاخر يمارس تأثيره على الشخصية بشكل أو بآخر وفي هذا العالم وظف المونولوج الداخلي ، والعالمان في نهاية الأمر ليسا الا عالما واحدا يحرص الكاتب على رصد حركته .

وتحمل اللغة الموظفة في النص السابق دلالات كثيرة ، فهي تتسم بالتأمل والهدوء ، بالرغم مما فيها من اصرار ، وتشع بالأمل والتفاؤل بالرغم مما يتخلل بعض مقاطعها من ألم ويأس . وقد حقق الكاتب عن طريق هذه اللغة واقعية شخصية " فاطنة "، وربطها بأرض الواقع .

أما السرد الذي يملأ صفحات كثيرة من الرواية ، فقد وظفه الكاتب في مناقشة بعض القضايا ، والمواقف السياسية الراهنة ، ومحاولة ربطها بما جرى أثناء الثورة الوطنية ،(1) خاصة اذا اعتبرنا رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " امتدادا لرواية " اللاز " التي تناول فيها المرحلة السابقة وأن شخصيات العمل الأول وجدت لها مكانا في العمل الثاني المكرس للمرحلة الوطنية الاجتماعية ، مثل بعطوش ، واللاز ، وحمو ، والشيخ ربيعي ...
والكاتب لا يعتمد في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " على السرد البسيط للحوادث انما يستخدم السرد للتحليل ، والمناقشة ، وينتقي لغته بشكل يفتق أفكار شخصياته . وأثرى الكاتب أسلوب الرواية بما ضمنه من وثائق تعود الى الثورة الوطنية ، وهي مذكرات " شباح المكي الاوراسي "، التي سلمها الشيخ مبارك مدير التكميلية التي تقطنها الطالبات المتطوعات ، الى " جميلة " ورفيقاتها حتى يقرأنها ويمدنها له . ويستعرض الكاتب في هذه المذكرات جزءا من حياة " شباح " المكي الاوراسي " النضالية أثناء الثورة ، والاضطهاد الذي تعرض له بسبب تحريضه للعمال على القيام باضرابات. وقد

1) العشق والموت في الزمن الحراشي "، ص : 128 - 176 .

صاغ المذكرات باسلوب هادئ ،تأملي ،عقلاني ،بالرغم مما فيها من تشويق واقناع ،يقول الطاهر وطار :

" الشيطان الاحمر . . . اللعين ،لم يجد مكانا يتجه اليه غير منطقتي ، غير الاوراس . ماذا يبيت الشيطان الاحمر أيضا . المرة . هذه المرة أقضي عليه . اريح منه فرنسا . أتدرون من هو ؟ الشباح المكي أخطر مشوش على الاطلاق . اصطدم بشيخ العرب بن قانة ، نعم تجرأ على الاصطدام بشيخ العرب بن قانة وما أدراك الامر الذي اضطر شيخ العرب الى معاملته بما يستحق أتدرون ما فعل به لقد ربط ،حبلا في عنقه ،وأمر " دائرة " بجره خلف حصانه ، من بسكرة الى أولاد جلال . الكلب لم يمت استطاع أن يتحمل الموت طوال الخمسة والسبعين كيلو مترا ووجدوا فيه من الطاقة والقوه ، ما أجبرهم على الزج به في السجن"(1)

وانتقى الكاتب صورا كثيرة من التراث الشعبي فكشف بذلك عما في هذا التراث من ثراء وعمق ،واستطاع أن يدخلها في صميم العمل الأدبي ،لتصبح جزءا لا يتجزأ منه وتشمل هذه الصور عادات ،وتقاليد شعبية ،وأمثالا ،ونكتا ، يحمل بعضها مضامين ايجابية وبعضها أفكارا سلبية . وقد وظف المثل الشعبي "ما يبقى في الوادي غير حجاره " ،الذي كان بمثابة لازمة في العمل الأول"اللاز"،

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ،ص : 120 - 121 .

على لسان الشخصية التى تحمل الاسم نفسه ، حيث جعله يضطلع بأدوار جديدة في المرحلة الوطنية الاجتماعية . وحجارة الوادي هذه المرة هي ما تعمل أفواج الطلبة المتطوعين ، وقوى المجتمع الحية على تثبيتها وكانت كل شخصيات الرواية الايجابية تسمع المثل من " اللاز " وترد ده ، وتحاول فهم شخصية " اللاز " من خلاله ، بل وفهم الواقع نفسه .

ووظف الكاتب في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " بعض العادات والتقاليد المستمدة من التراث الشعبي الفني بمادته ، هذه العادات التي ما تزال تمارس تأثيرها في الأوساط الشعبية ، وكشف بواسطة بعض العادات السيئة عن التناقض الموجود في الواقع ، وفي ذهنيات الناس أيضا (1) . وعلى ضوء هذه العادات طرح الكاتب الفكرة ونقيضها ، الواقع وبديله ، فمن خلال ادانة بعض المظاهر السلبية التى مازالت منتشرة ، كزيارة الأولياء ، وممارسة السحر ، والشعوذة ، والصور الحية التى نقلها من المجتمع ، والمعبرة عن هذه المظاهر السلبية كصورة المرأة التى هجرها زوجها ، وأخذ أولادها ، وصورة المرأة التى تزوجت ولم تنجب ، والخطيبة التى سافر خطيبها ولم يعد وصورة المرشح الذي يرغب في الفوز في الانتخابات ، عبر عن التخلف ، والجهل وانعدام الوعي لدى هذه الأوساط . وأعطى كبديل لها صور أخرى يحاول الجيل الجديد المتعلم ، الواعي المتشبع بثقافات كثيرة ، والمدرك لحقيقة التغيير ، تحقيقها .

وبالاضافة الى الصور التى استمدها الكاتب من التراث الشعبي ، وأصل من خلالها شخوص الرواية ، وربطها بأوساطها الاجتماعية ، وبأرض الواقع الذي يتحرك فيه ، ضمن الكاتب الرواية نصوصا شعرية(2) ونثرية انسانية(3)تكشف

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 87 ، 88 - 90 .
2) المرجع نفسه ، ص : 56 ،
3) المرجع نفسه ، ص : 147

عن ثقافة بعض شخصيات الرواية ،وعن انتماءاتهم الايديولوجية ، ورؤية الكاتب المستقبلية .

وفي رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " يوظف الكاتب الطبيعة، لا كما يتناولها الكتاب الرومنسيون الذين يرتمون في أحضانها هروبا من الواقع، ومشاكله ،وتناقضاته ،بل كجزء من الواقع الذي يحاول الكاتب اقتحامه . يقول الكاتب على لسان بلقاسم " ايه يا أيام الارز :

عندما لفت انتباه بلقاسم ،الى عظمة روح شجرة الأرز قال انه لا يحسب منظرها ،ان أيديها المتعدده المتشعبة تذكره بأيدي اخوته الستة والعشرين، وهي تمتد الى قصعة الطعام "(1) .

وفي اللوحة السابقة تتداخل الطبيعة بحقائق الواقع لتصبح أداة من أدوات الكشف عن تناقضاته .

- 10 -

بعد أن اقتحم الكاتب وشخصياته في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي " الواقع الجزائري الفاسد ،المتعفن ،المليء بالتناقضات ،الواقع الذي كانت القوى الحية في المجتمع تعمل على تغييره ،نراه في رواية "عرس بغل" ينتقل بكاميراه الى الواقع العربي ،محاولا رصد حركته ،وفهم طبيعة المرحلة التي يعيشها ،وابراز التناقضات التى أفرزتها هذه المرحلة .

---

1) العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص: 175 .

ومن خلال العنوان الذي وضعه الكاتب للرواية " عرس بغل " نشم رائحة الواقع الــــذي يحاول رصده في هذه الرواية . و "عرس بغل " في التراث الشعبي هو العرس الذي لا مناسبة له ، وفي الرواية له دلالة خاصة ، انه الوسيلة التى تحافظ بواسطتها البرجوازية على مكانتها ، ونفوذها . ويأتي السياق القصصي ليؤكد هذه الفكرة ، فأحداث الرواية تجرى بماخور ، وللفظ ماخور أيضا دلالته الخاصة ، اذالواقع العربي الذي يحاول رصد حركته يراه عبارة عن ماخور ، تتناحر فيه البرجوازيات العربية ، وتتنافس على استلام مقاليد الحكم. وتكنيك اللوحات الذي اعتمده الكاتب في رواية " عرس بغل " جعل الرواية مختلفة عن سابقاتها ، انها أشبه ما تكون بالشريط السنمائي في تتابع لوحاتها ، وفي تكثيف الحدث أيضا .

وهي مختلفة أيضا عن الروايات الاخرى من حيث توظيفها للتراث العربي الاسلامي ، الى جانب الموروث الشعبي الذي استمد منه كثيرا من الصور في رواية "عرس بغل " ، وفي رواياته الاخرى . لقد سلط الكاتب الضوء في رواية "عرس بغل "، وبواسطة شخصية " الحاج كيان " ، على الأحداث التاريخية الهامة كثورة القرامطة (1) ، وثورة الزنوج ، (2) وبعض الانتفاضات الشعبية في ظل ملوك بني عباس . والحاج كيان في رواية عرس بغل " يعيش الواقع واللاواقع معا ، يعيش الحاضر ، ويحاول فهم الواقع في ظله ، فيرتبط بعلاقات مع نساء الماخور : صاحبته العنابية ، وحياة النفوس ، وعلجية ، الوهرانية . وهو مشدود بقوة الى الماضي ، وما يحمله من أحداث ، وذكريات مضيئة تارة ومعتمة تارة أخرى (3) . وهي رمز للطبقة المثقفة العربية ، وما تحمل من تناقضات .

---

1) عرس بغل ، ص : 104 .

2) المرجع نفسه ، ص : 159 .

3)من استجواب لمجلة اليسار العربي ،

ومع شخصية " الحاج كيان " وظف الطاهر وطار نوعين من الحوار : الحوار الخارجي ويكشف به عن علاقات " الحاج كيان " الاجتماعية بشخصيات الرواية الأخرى : نساء الماخور من جهة ،وحمود الجيدوكا ،وخاتم النبوة من جهة أخرى وتمثل هذه الشخصيات الاطار الاجتماعي في الرواية . والنص الذي سأورده هنا مثال لهذه المحاورات الخارجية بين الحاج كيان والعنابية صاحبة الماخور يقول : الحاج كيان : " نستطيع للشروع في تنفيذ مشروعك الكبير هذا ، أن نقيم عرسا ،أوه عرسا . أوه عرس يرحم ذلك الغم نسيت العادات والتقاليد يا الحاج كيان ،عرس بفل ستحضر عنابة وقسنطينة وسطيف والأغواط والجلفة والاصنام وطيانة . هذه جميعا شاركت في أعراسها ،بأجمل البنات اللاتي كنّ في محليّ ،وبكل الاعيان الذين كانوا في قبضة يدي ،علينا أن نتصل بالجميع من الشرق الى الغرب ،وستكون المشاركة في عرس بمحل ذي ستة أبواب مثل محليّ هذا أشرف للجميع .

- سيسر الكثيرات ،طلب النقلة الى هنا لقد فكرت في هذا .
- تعال اقبلك يا الحاج كيان تعال . يا حبيب العمر. يا من لا يستطيع أحد ينزله من عرشه . تسافر أنت للشرق وأسافر أنا وخاتم الى الغرب.
- اسمحي لي يا المعلمة . أنا لا أستطيع أن . أكون بعيدا يومي السبت والأحد .
- او السبت والأحد أنا أيضا لا أستطيع أن أكون بعيدة ،في امكانك أن تتفرغ لي يا الحاج سبتا أو سبتين انني لم اسألك أبدا أين تكون في هذين اليومين .
- لا يفيد ذلك كثيرا يا عنوبة ،كلنا تلك الجرّه الملأى بالقطران .
- البنات يقلن انك تكون مع اطفالك وزوجتك .
- البنات المسكينات خيالهن عن الحياة الخارجية جد خصب يا عنوبة

أنت الوحيدة تعرفين ماضي وتكويني"(1)

والحوار بسيط ومباشر ،يكشف عن نوع العلاقة بين شخصية "الحاج كيان "وشخصية العنابية ،صاحبة الماخور ،التى كانت تتهيأ لاقامة عرس حتى لوكان " عرس بغل " . والعنابية في الرواية رمز للبرجوازية الطفيلية غير المنتجة في بحثها عن السبل التي تجنبها الافلاس . ويكشف الحوار أيضا عن عفونة الواقع ، وعن ضياع وحيرة ، وتمزق الفرد العربي ،وعن حالة المخاض التي يعيشها الواقع " كلنا تلك الجرة الملأي بالقطران ".

ويشير النص السابق الى البعد الثاني في شخصية " الحاج كيان" الذي عبر عنه بواسطة "تيار الوعي "في اللحظات التي يخلو فيها الى نفسه ،وجاذبا أنفاسا من غليونه ومبحرا في عوالم الماضي الزاخرة مع القرامطة ،والزنوج ، اللحظات التي يحس فيها بأنه أصبح المتنبي أو حمدان قرمط.. وان كان استيعابه للثقافة الاسلامية يظل استيعابا وجدانيا جامدا(2).

وقد نوع الكاتب في أسلوب الحوار الموظف مع شخصية " الحاج كيان " حيث تمتع حواره الخارجي بالبساطة والمباشرة والعفوية ،الحوار الذي أقام الجسر بينه وبين شخصيات الماخور ،وهي حالات الوعي التى يعيشها " الحاج كيان " ،لكن هذا الحوار يتكشف في مواضع أخرى من الرواية ليصبح مونولوجا داخليا بين " الحاج كيان " ونفسه . وهي حالات اللاوعي والغيبوبة التي يتجاوز فيها الواقع . وتتفتح تداعياته بالعمق ،والتأمل ،مما يجعل مقاطع كثيرة من الرواية ترتفع الى مستوى الرمز(3).

---

1) عرس بغل ،ص : 88 ، 89 .

2) من مقال النزعة الوجدانية التوفيقية مقدمة لبداية المرحلة ،م الكتابة ، الصافي السعيد ،الكاتب الفلسطيني ،العدد 3 جوان 1978،ص : 150 .

3) عرس بغل ،ص : 10 ، 11 ،

ومع شخصيات الرواية الأخرى انتقى الكاتب لغة تكشف عن مستوى هذه الشخصيات الاجتماعي والمادي ،وعن انتمائها الطبقي أيضا . وهي لغة تتراوح بين مستوى الوصف الداخلي والوصف الخارجي للشخصية . فاللغة التى انتقاها لشخصية " المنابية " ،صاحبة الماخور ،تعكس واقعها الاجتماعي ،وانتماءها الطبقي ،وتعبر عن تطلعاتها وتطلعات كل الطبقة التى تنتمي اليها . يقول الكاتب على لسان المنابية : " أريد نقودا ،نقودا كثيرة جدا يا الحاج كيان . أريد أن لا تنقطع على النقود اطلاقا . لابد أولا من استبدال الماهرات كلهن عدا حياة النفوس والوهرانية . أنت مكلف من الآن بالبحث عن ثماني عشرة فتاة في جمال حياة النفوس . أريد ان أجلب كل الاعيان الى محلي أتفهم يا الحاج كيان ؟

أريد أيضا أن تبحث لي عمّن يأخذ مكان حمود الجيدوكا . أريد أيضا أن تصبح مدير المحل فأنا سئمت الجدران والماهرات والمسكر والطلبة والهزية . أريد أن أركب الى جنبه ،عربة رياضية مكشوفة أو قاربا أبيض وشعرى مشدود بمنديل وردي ،ونظارات سوداء على عيني وننطلق . ننطلق دون توقف . لا أتمنى شيئا ،غير أن نرتطم بصخرة قوية فتضطرم فينا النار ،ويصعد الدخان ليمتزج بالسحاب ، وينزل مطرا يلمس كل شبر من الأرض . أو تبتلعنا موجة عارمة ، فتعطي الى كل قطرات ماء البحر ،شيئا منّا . "(1)

ويعكس النص السابق واقع المنابية ،رمز البرجوازية الطفيلية غير النتجة في جشعها ،وفي محاولتها الاثراء بأقصى سرعة ،وفي قلقها على مصيرها ، وفي تخوفها من المستقبل . وفي النص اشارة الى استبدال الماهرات : النساء اللوا يشتغلن عندها في الماخور بثماني عشرة فتاة جميلات . ونساء الماخور هن رمز

---

1) عرس بغل ، ص : 88 .

للطبقة المستغلة المسحوقة في المجتمع،الطبقة التى تستغل حتى النخاع، ويرمي بها بعد ذلك في انتظار " تحطيم الجرة الملأى بالقطران "!

وفي نهاية النص ،تتكشف المعاني ، ويرتفع الأسلوب الى مستوى الرمز. ورواية " عرس بغل " غنية بالموروث الشعبي : الاغاني ، والامثال ، والعادات، وقد تعامل الكاتب بوعي كبير مع التراث، وأحسن استخدامه في أكثر من موضع من الرواية (1). فبواسطة المادة الشعبية المعروفة في كثير من الجهات باسم "عرس بغل " كشف عن التناقضات الموجودة في الماخور ،أي في الواقع العربي. وحتى أسطورة البغلة المعروفة في أقطار المغرب العربي ، والتى تقول ان البغلة لا تلد بغلا وان ولدت فستكون نهاية العالم (2) تؤكد ما قلناه . وعن طريق الصور المستوحاه من الموروث الشعبي ، طور الكاتب حدث الرواية وأثرى أسلوبها وأصل شخوصها .

- 11 -

اذا كانت روايات الطاهر وطار السالفة الذكر واقعية من حيث طبيعة. موضوعاتها وطريقة تناول الكاتب لها، ومن حيث نوعية شخوصها ، وقوا لبها اللغوية، وطريقة تعامل الكاتب مع التراث الشعبي ،فما نصيب رواية " الحوات والقصر" من هذه الواقعية ؟ وكيف كانت معالجة الكاتب لأحداث الواقع ؟

وللاجابة عن السؤالين، تجدر الاشارة الى أن رواية الحوات والقصر ،

---

1) عرس بغل ، ص : 36 ،ص : 55 ، 188 .
2) من مقال النزعة الوجدانية التوفيقية مقدمة لبداية الرحلة مع الكتابة: ص: 149 .

يمتزج فيها الواقع بالخيال ، والحقيقة بالأسطورة ، ويتداخل الواقع المحلي بمشاكله الخاصة بالواقع الانساني الرحب ، وتصبح هموم الفرد الجزائري جزءا لا يتجزأ من هموم الناس الآخرين في هذا العالم الشاسع ، ومن خلاله تتحدد رؤية الكاتب ، وموقفه من قضايا الانسان المعاصر .

في رواية الحوات والقصر لا ينطلق الكاتب من موضوع معين كما في رواياته السابقة : الثورة الوطنية في رواية اللاز . وموضوع الأرض في مرحلة الثورة الوطنية الاجتماعية من خلال عمليه الزلزال، والعشق والموت في الزمن الحراشي ، مما جعل موضوع كل رواية وأحداثها يحدد تقنية العمل . ومادامت الموضوعات المعالجة في الروايات السالفة الذكر مستمدة من الواقع الجزائري ، ومرتبطة بحياته السياسية والاجتماعية ، فقد أثر ذلك على الأساليب التي وظفها لحمل هذه المضامين ، مما جعلها تتسم بالواقعية لدرجة أنها تحولت في بعض المقاطع من روايتي الزلزال والعشق والموت في الزمن الحراشي الى أساليب تقريرية مباشرة.(1) أما رواية الحوات والقصر فيتجاوز فيها الكاتب المشاكل الآنية ، ليحتضن الواقع الانساني بشموليته ، ويستوعب الزمن بأبعاده المختلفة . وتتمحور أحداث الرواية حول شخصية واحدة . هي شخصية " علي الحوات "، يمتزج فيها الواقع بالخيال . وفي الرواية تشع الاجواء الاسطورية ، ويلعب الخيال دورا كبيرا في تحريك الأحداث ، مما جعل أسلوب الرواية يقترب في مقاطع كثيرة من الرمز . لقد كانت الاسطورة في رواية " الحوات والقصر " هي المعادل الفني للواقع المتشابك .

واعتمد الكاتب في نقل أحداث الرواية على السرد ، تخلل هذا السرد بعض المحاورات بين "علي الحوات" وبعض الاشخاص الذين صادفهم في طريقه

1) انظر رواية الزلزال ، ص : 206 ، 207 ، ورواية العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص : 215 .

الى القصر . وتوظيف الحوار من حين لآخر في رواية "الحوات والقصر" أخرج شخصية "علي الحوات" من عزلتها وقربه من مجتمعات القرى التي مر بها . يقول الكاتب في حوار بين علي الحوات وأحد سكان احدى القرى :

"- أنا يا علي الحوات صاحب هدية لجلالته لقد انصرف أصحاب المشاكل ولم أبق الا أنا .

- يكفي أن يكون في كل قرية ، واحد يحب جلالته ويحب رعيته .
- وما هي هديتك .
- تخطيط لتحويل السلطنة الى جنة .
- آماه كيف ذلك ؟
- لقد شرحت لجلالته كل شئ في هاته الرسالة التي أرجو أن تحملها معك .
- أحملها بكل سرور . ما هو مخططك أيها السيد الطيب .
- واديكم الخير المعطاء ، مياهه تذهب سدى ، تغور في الرمل وتلتحق بالمحيط ، وتظل الأراضي المحيطة به قاحلة جرداء لقد توصلت الى طريقة عجيبة ، لاقامة سدّ عظيم في الوادي بتكاليف جد قليلة ، وفي ظرف جد قصير . ستمتد القنوات كالشرايين في كامل السلطنة ، وستخضر الاشجار ، وتتطاول النباتات ، وتكثر الغلال والفواكه والثمار ، وتنمو الاسماك ، وتعظم ، لن يبقى في السلطنة فقير أو جائع . حتى الشرور تنقص ، ويقوى الخير ، ، لقد فكرت جيدا في حلّ مشاكل جميع هؤلاء الناس بالقضاء على أصلها"(1) .

---

1) الحوات والقصر ، ص : 42 ، 43 .

والحوار السابق الذي دار بين "علي الحوات" وأحد كهول القرية الثانية التي مرّبها في طريقه الى القصر نموذج للمحاورات التي تخللت السردفي رواية "الحوات والقصر". وهي شبيهة بالحوار التي وظفه الطاهر وطارفي رواية "الزلزال" القائمة على البطولة الفردية، مثلما هو الحال في رواية "الحوات والقصر"، مع الفارق في نوعية الشخصية، وطبيعة الموضوع كما بينا من قبل.

ويعرض الكاتب من خلال الحوار السابق مخططا تتحول بواسطته السلطنة الى واحة فيحاء، فيشبع كل فقير، وتنقص الشرور، ويقوى الخير في السلطنة: وعن طريق المخطط الذي تقدم به الكهل الى جلالة الملك يعطي الكاتب صورة عن الواقع، وبديله الواقع بكل فواجعه، وتناقضاته وشروره، الواقع الذي ينسحق فيه الانسان، وتتدمر انسانيته، والبديل الذي يعمل على تحقيقه. عند ما لا يبقى في السلطنة جائع ولا فقير.

ويعتمد الحوار على الجملة القصيرة المركزة، الجملة الفعلية ذات البعد المستقبلي (ستمتد القنوات، ستخضر الاشجار، تتطاول النباتات، تكثر الغلال الخ ..). وللجمل الفعلية المستقبلية في الحوار دلالة خاصة تعكس تطلعات الانسان التواق الى حياة أفضل.

وفي رواية "الحوات والقصر" صور رمزية كثيرة مستوحاة من الاسطورة فصورة حامل/الشعار الذي بامكانه فك سبعة صفوف، وفتح جبهة رأس الغول (1) لها دلالة في الرواية، حيث يرمز "الغول" الى قوى الشر والاستبداد والقمع. والكاتب بهذه التقنية الموظفة في رواية الحوات والقصر: الاعتماد على الاسطورة، وعلى الموروث الشعبي، في محاولة فك رموز الواقع يكون قد دخل عالم الواقعية السحرية.

---

1) الحوات والقصر، ص: 194.

- الخاتمـــــة -

يمكننا القول ، ودون مبالغة ،أنّ الكاتبين عبد الحميد بن هدوقـــه، والطاهر وطار يعتبران البداية الحقيقية ، والفعلية للرواية الجزائريـــة المكتوبة بالعربية ،فقد عكسا في إنتاجهما الروائي واقع الجزائر ابان الثورة الوطنية ، ورصدا واقع الجزائر في المرحلة الوطنية الاجتماعية باستيعابهمـــا لمجمل التحولات التي حدثت في هذه المرحلة . فبالنسبة للكاتب عبـــد الحميد بن هدوقة ،نلاحظ أن أعماله الثلاثة : ريح الجنوب ، ونهايـــة الأمس ، وبان الصبح ،تندرج في اطار الواقعية النقدية ، وذلك من خلال :

1 - الموضوعات التى انتقاها ، وهي موضوع الأرض ، وموضوع المرأة ومشاكل الريف الجزائري ، وواقع المدينة في ظل العلاقات الانتاجية الجديدة . هذه الموضوعات التى كانت الثورة الوطنية خلفية لها .

2 - الشخصيات التى وظفها في أعماله الروائية ، والتى حاول التعبـــير من خلالها عن العلاقات الاجتماعية بين فئات المجتمع المختلفة ، وابـــراز التناقضات الاجتماعية الموجودة في المجتمع ، وبخاصة في المرحلة الوطنيـة الاجتماعيـــة .

3 - اعتماد ابن هدوقة على البطولة الفردية ، وذلك من خلال شخصيـــة نفيســـة في ريح الجنوب ، وشخصية البشير في نهاية الأمس اللتين يعمد أحيانا الى تضخيمهما ، ومن ثم يعزلهما عن الوسط الاجتماعي الذي تتحركان فيه . بيد أن الكاتب في روايته الأخيرة بان الصبح تخلى عن ذلك ، حيث اعتمد فيها على شخصيات كثيرة كانت تعبر عن الشرائح الاجتماعية التى تنتمي اليها .

4 - تطورت أدواته الفنية ، وارتفع أسلوبه القصصي الى مستوى الموضوعات التى يعالجها . وظهر هذا التحسن بخاصة في روايته بان الصبح ، التى تخلّى

فيها عن كثير من الهفوات الفنية التي تخللت روايتي ريح الجنوب، ونهاية الأمس .

5 - اهتم عبد الحميد بن هدوقة بالتراث الشعبي في رواياته الثلاث وذلك باستخدام الشعر الملحون، والأغنية والمثل الشعبيين . وتوظيف كثير من العادات، والتقاليد الضاربة بجذورها في تربة الواقع الجزائري ريفا ومدينة مما ساعده على تأصيل شخصياته، وربطها بأرضية الواقع .

أما فيما يتعلق بالكاتب الطاهر وطار، فنلاحظ أن أعماله الروائية الأربعة: اللاز، والزلزال، وعرس بغل، والعشق والموت في الزمن الحراشي تندرج في اطار الواقعية الاشتراكية . ويؤكد ذلك :

1 - الموضوعات التي انتقاها، والطريقة الجريئة التي عالجها بها، سواء منها ما كان يتعلق بالثورة الوطنية، كما في رواية اللاز. أو ما كان يتعلق بمرحلة ما بعد الاستقلال : مرحلة التحولات الاجتماعية كما في روايات الزلزال، وعرس بغل، والعشق والموت في الزمن الحراشي .

2 - اعتماده على البطولة الجماعية في روايته اللاز، للتأكيد على شعبية الثورة الجزائرية، ورواية العشق والموت في الزمن الحراشي، التي رصد فيها حركة الواقع الجزائري في المرحلة الوطنية الاجتماعية حيث كانت البطولة فيها جماعية أيضا .

3 - كما يؤكد ذلك منظور المستقبل الذي تسلح به الطاهر وطار، وبني على أساسه أحداث العمل الروائي، وحدد خط سير شخصياته، والدور الذي اضطلعت به في التنبؤ بمستقبل الفئات الشعبية التي تناضل، وتعمل من أجل تغيير واقعها .

4 - مال الطاهر وطار الى منهج الواقعية السحرية في رواية الحوات والقصر . فوظف الحكاية والاسطورة ، والقصص الخارقة للعادة ، وكشف لغتها ، وارتفع بها الى الرمز . وأخيرا عبّر عن أزمات الواقع المعاصر ، وتناقضاته من من خلال هذا الشكل الاسطورى .

5 - وفي الأخير نلاحظ أن كل رواية من روايات الطاهر وطار تنفرد بتقنيات روائية معينة ، وبشكل فني خاص مغاير للآخر . فكانت اللاز كلاسيكية من حيث بناؤها الروائي . حيث تبدأ من النهاية وتنتهي عند البداية ان صحّ التعبير ، واعتمد في رواية الزلزال على الشخصية الواحدة ، موظفا المونولوج الداخلي للتعبير عن أزمة البطل وعزلته . وفي رواية عرس بغل اعتمد على تكنيك اللوحات مدللا على سعة ورحابة الواقعية الاشتراكية ، حيث استطاع في اطارها أن يبتكر في كل مرة شكلا جديدا يتناسب والموضوع الذي يعالجه . ويشترك الطاهر وطار مع عبد الحميد بن هدوقة في توظيف التراث الشعبي ، حيث استفاد منه كثيرا في رواياته الخمس . وأثرى به أسلوبه ، وحقق بواسطته واقعية شخصياته .

وأخيرا يمكننا تأكيد أن الكاتبين بابداعاتهما الواقعية النقدية ، والواقعية الاشتراكية والسحرية استوعبا معطيات الواقع الجزائري ، وعبرا عن هموم الانسان الجزائري ، وعن أزماته وطموحاته ، وتطلعاته في تحقيق الغد الافضل ، وهذا بالاضافة الى انهما أرسيا تقاليد الفن الروائي في الأدب الجزائري المكتوب بالعربية .

المصادر والمراجع والدوريات العربية

أولا : المصـــادر :

ابن هدوقة عبد الحميد

1 - ريح الجنوب ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . 1971 .

2 - نهاية الأمس ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر - 1975 .

3 - بان الصبح ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر - 1980 .

4 - وطـــار الطـــاهـــر

1 - اللاز . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر . 1974 .

2 - الزلزال . دار العلم للملا ميين ،بيروت 1974 .

3 - عرس بغل . دار ابن رشد للطباعة والنشر - بيروت 1978 .

4 - الحوات والقصر - دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة (الجزائر
. 1980

5- العشق والموت في الزمن الحراشي .دار ابن رشد للطباعة والنشر .بيروت 1980 .

ثانيـــا : المراجـــع :

1 - ادريس يوسف . الحرام .دار العودة ،بيروت الطبعة الثانيـــة .
. 1978

2 ـ اوفسيانيكوف ، زسميرنوفا . موجز تاريخ النظريات الجمالية .
دار الفارابي . بيروت 1979 .

3 ـ بتروف سرغي ، ترجمة شوكت يوسف ، الواقعية النقدية .
منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي . دمشق 1983 .

4 ـ بقطاش مرزاق . طيور في الظهيرة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر . الطبعة الاولى 19 .

5 ـ ركيبي عبد الله . تطور النثر الجزائري الحديث 1830 ـ 1974
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات
العربية . القاهرة 1976 .

6 ـ ركيبي عبد الله ، القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر .
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة 1969 .

7 ـ سوتشكوف بوريس ، ترجمة محمد عيتاني ، وأكرم الرافعي دار
الحقيقة ، بيروت . الطبعة الأولى 1974 .

8 ـ سلمان نور . الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير . دار
العلم للملايين . بيروت . الطبعة الأولى . 1981 .

9 ـ الشرقاوي عبد الرحمن ، الأرض . دار الكاتب العربي/ للطباعة والنشر .
القاهرة الطبعة الثالثة . 1968 .

10ـ شكري غالي . شعرنا الحديث الى أين . دار المعارف بمصر
القاهرة 1968 .

11 - شكرى غالي . الرواية العربية في رحلة العذاب ، الناشر عالم الكتب ، الطبعة الاولى 1971 .

12 - العالم محمود أمين . عبد العظيم أنيس . في الثقافة المصرية منشورات دار الفكر الجديد . الطبعة الاولى أيار 1955 .

13 - عرعار محمد العالي ، ما لا تذوره الرياح ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر 1972 .

14 - فان تيغم فيليب ، ترجمة فريد أنطنيوس . المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا ، منشورات عويدات ، بيروت باريس ، الطبعة الاولى 1967 .

15 - د / فضل صلاح . منهج الواقعية في الابداع الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978 .

16 - لوكاتش جورج ، ترجمة أمين العيوطى ، معنى الواقعية المعاصرة . دار المعارف بمصر .

17 - د/مصايف محمد . الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . الدار العربية للكتاب ، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983 .

18 - مندوزا بيلينيو أبوليو ، ترجمة حمادي عبد الله ، غابريال غارسيا ماركيز رائد الواقعية السحرية المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر . الطبعة الاولى 1983 .

19 - الهوارى أحمد ابراهيم . نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر . دار المعارف ط 1978 .

ثالثا :الدوريات :

1 - آمال . عدد 33. السنة الثامنة . ماي ،جوان 1976 .الجزائر.

2 - آمال . عدد 53 السنة العاشرة 1981 الجزائر .

3 - البلاغ عدد 185 ، 28 جويلية ، 1975 .

4 - الثقافة . عدد 10 ،السنة الثانية 1972 الجزائر .

5 - الثقافة . عدد 33 . 1976 ،الجزائر .

6 - الثورة السورية ، 10 أفريل 1975 .

7 - الثورة السورية ، عدد 3933، 13 ديسمبر 1975 .

8 - الجزائر الجمهورى . 1950 . الجزائر .

9 - الجمهورية ، 6 سبتمبر 1979 ،وهران (الجزائر) .

10- الشعب ،جوان 1974 ،الجزائر .

11- الشعب ، 19 مارس 1975، الجزائر .

12- الطليعة ،عدد 3 ، 4 ،عدد خاص . آب ،اغسطس 1981 .

13- الكاتب الفلسطيني . عدد 3 ،جوان 1978 بيروت .

14- المجاهد الاسبوعي . عدد 746 . 1 ديسمبر 1974، الجزائر.

15- ملحق الثورة الثقافي السورية . عدد 10، 13 ماي 1976 .

16 - الموقف الأدبي ، خاص بالواقعية ، عدد 85 ، أيار 1978 دمشق .

17 - الوحدة . عدد 21 ، الأحد 10 أكتوبر 1976 . الجزائر .

18 - اليسار العربي ، عدد 28 . 28 فيفري 1981 .

المراجع والدوريات الأجنبيــة

المــــراجــع :

I - Jean Déjeux. La Littérature algérienne contemporaine Collection Que Sais-je presse Universitaire de France I975.

الــدوريــات :

I- Algérie Actualité N° 767. Semaine du 26 Juin au 2 Juillet I980 Alger.

2- El-Moudjahid 8 Fevrier I982 Alger.

3- peuple Mediterranée 7 Avril Juin I979. France

4- Révolution N° 282. du 24 Août au 30 Août I984 France.

فهـــــرس تفصيلـــــي

المقـــدمـــة :

فهـــــــرس عــــام

المـــوضــــوع :	الصفحــــة